حسن بن موسى الصفار

عاشوراء ..ثقافة النهضة والبناء

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى
١٤٣٤هـ-٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين اللهم صلِّ على محمد خاتم الأنبياء وتمام عدة المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

كلمات في البدء

الإحياء الحسيني سمةٌ من أهم وأبرز سمات المجتمع المنتمي لأهل البيت عليهم السلام، وهو توجيهٌ من توجيهات الأئمة الطاهرين عليهم السلام، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «أحيوا أمرنا. رحم الله من أحيى أمرنا».

والسؤال المهم: هل كل من يهتم ويحيي ذكرى الأئمة عليهم السلام بشكلٍ عام، وعاشوراء بشكلٍ خاص، يُحركهم دافعٌ واحد؟ أم أن هناك اختلافاً بين الناس وتفاوتاً؟

بكلِّ بساطة يمكننا الجزم بوجود الاختلاف والتفاوت، وعلى كلِّ فردٍ أن يتأمل ذاته ليكتشف حقيقة الدوافع التي تحرّكه للإحياء الحسيني، وحقيقة علاقته مع هذه الشعائر، فالنجاح في الكشف عن ذلك سيكشف لك عن مستوى الوعي الحقيقي الذي تنتمي إليه، ومهم جدًّا أن تتحرى الصدق في ذلك؛ لأن عدم دقّتك في التأمّل في ذاتك سيعكس نتائج سلبية يعود ضررها عليك.

نعم، إن الدافع الحقيقي للإحياء الحسيني يختلف من شخص لآخر. وأستعرض هنا سبعة من الدوافع التي لا شك أن أحدها هو الدافع الأبرز الذي يحرك اندفاعك باتجاه الإحياء الحسيني، كما أنه قد يكون لديك أكثر من دافع.

والمطلوب منك بدايةً أن تفهم بعمق طبيعة كل دافع، وتتعرّف على ما يميزه عن غيره لتكون قادراً على التمييز بين هذه الدوافع المتعددة.

وعليك أن تدرك أن هذا الدافع إنما هو تعبيرٌ عن مستوى وعيك ومستوى نضج علاقتك مع القضية الحسينية. ولا يعني ذلك أن هذا المستوى هو قدرك ولا يمكنك الارتقاء منه لمستوىً أعلى، إلا أن ذلك مرهون بمدى جدّيتك وهمّتك وإرادتك، فالمرء يطير بهمّته، كما يطير الطير بجناحيه.

أولاً: الذات البدائية

حين يكون غاية تفكير الإنسان هو تأمين الاحتياجات الفسيولوجية لذاته، فإنه يتعامل مع كل ما يُحيط به بصورةٍ بدائية، وفي أدنى المستويات.

وينطبق هذا الكلام على الإحياء الحسيني، حين ينطلق الفرد ضمن هذا المستوى لإحياء عاشوراء محاكياً بذلك والديه، أو لتأمين احتياجاته الفسيولوجية إن كان الإحياء الحسيني يؤمّن له ذلك.

ثانياً: الانتماء العائلي

ينمو الإنسان وتنمو معه احتياجاته، فحين يشعر بالحاجة إلى التكاتف والتلاحم يبدأ في التداخل مع محيطه العائلي الكبير، والهدف من ذلك: تعزيز حالة التكاتف والتلاحم، وإرضاءً للعائلة وشيخها الكبير.

وبذات المستوى من الوعي قد يُحيي الفرد الشعائر الحسينية، بحيث يكون دافعه رضا عائلته، وتعزيزاً لقوّتها في المحيط الاجتماعي الذي ينتمي إليه.

ثالثاً: الذات الأنانية

حين ينظر الإنسان إلى ذاته فقط، ويرى نقاط قوّته، فيسعى لفرضها وبسط سيطرته على المحيط من حوله، فإنه بهذه الذات يكون أنانيّاً، ولا يرى إلا نفسه.

وبهذا الوعي الأناني قد يُحيي الإنسان الشعائر الحسينية، ويسعى جاهداً ليكون وجوده فوق الجميع، وحين يدخل طرفاً في المنافسة، وإن كانت إيجابية،

فإنه مستعدٌّ لاستخدام منطق القوة ليبقى هو بارزاً، ويتجاهل تماماً أنه يعيش في رحاب أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

رابعاً: البيئة المقيِّدَة

يواجه الإنسان في حياته العديد من الجهات التي تفرض رأيها ونفوذها عليه.

ولا يخلو أيُّ مجتمعٍ من المجتمعات من وجود مثل هذه الجهات، فتارةً تتمثّل في زعاماتٍ أو وجاهاتٍ اجتماعية، وتارةً تتمثّل في عاداتٍ وأعرافٍ قد ألزم المجتمع بها نفسه، فتمس كل من ينتمي لهذا المجتمع.

وهنا يجد الإنسان نفسه مضطّراً للخضوع والخنوع لهذا الواقع، فيُقيّد نفسه بالأعراف والتقاليد السائدة، وينتهج رأي وفكر الرموز والزعامات التي يتأثّر بها، فهو هنا أسيرٌ مقيّد، بل قد يبالغ البعض ليصل به المطاف لدرجة تقديس هذا الواقع، فتُصبح الأعراف والتقاليد والرموز، أمراً مقدّساً لا يُمكن المساس بها، أو نقدها، ومن يجرؤ على ذلك، قد يُتّهم في انتمائه والتزامه الديني والقيمي.

وقد يُحيي الإنسان الشعائر الحسينية بهذا المستوى من الوعي، وسط قيود المجتمع، وما إن يكون بعيداً عن تلك القيود تراه بعيداً أيضاً عن الشعائر الحسينية.

خامساً: الذات الربحية

حين يعي الإنسان مصالحه الشخصية، ويتعزز في نفسه مفهوم الربح والخسارة، فإنه قد يضرب بعرض الحائط القيود الاجتماعية، فيتّجه نحو منطق الربح والخسارة.

والفرد ضمن هذا المستوى أرقى من الأناني، فعلاقته مع الآخر علاقة ربحية محسوبة، دون أن يكون فيها لجوءٌ للعنف أو القوة، وإنما المصلحة هي الحاكمة

في الأمر.

وفيما يرتبط بالشعائر الحسينية فضمن هذا المستوى من الوعي يكون دافع الفرد هو الربح بشكل أساس، فطالما هناك ربح مادي أو معنوي فإنه يتفاعل مع الشعائر، وإذا قلّ مستوى الربح فإنّ تفاعله يتراجع.

سادساً: الروح الإنسانية

يرتقي الإنسان وعياً، فيرتقي سلوكاً وروحاً، فهو في هذا المستوى يؤمن بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، فالإنسان من حيث هو إنسان يبقى مكرّماً عنده.

فتراه يشيع بين أقرانه روح المحبة والسلام والتسامح والتعايش والألفة والتعاون والاحترام، دون انتظار مقابل، فهو كالشمعة التي تحترق من أجل الآخرين، وبذلك يُقدّم نموذجاً رائداً في العلاقات البشرية كالنحلة أينما كانت، فإنها تقدّم رحيقها للجميع، بلا استثناء. وقد يعيش البعض ضمن هذه الحالة بطبيعته الفطرية، والبعض يعيشها وعياً، لتُمثّل له دوراً في الحياة.

وتتجلى هذه الروح في خدّام أبي عبد الله الحسين عليه السلام الذين نذروا أنفسهم لخدمة الشعائر الحسينية، بعيداً عن اعتبارات الانتماء العائلي، أو القيود الاجتماعية، إنهم يبذلون عطاءهم بدافعٍ ذاتي، وروحٍ إنسانية، وقلبٍ يفيض بالمحبة لعشّاق أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

سابعاً: الذات التكاملية

حين يرتقي الإنسان بفكره ووعيه، ويتأمل في ذاته ووجوده، فيُدرك أن وجوده في الحياة لم يكن عبثاً، وأن الله سبحانه إنما خلقه ليكون خليفته في الأرض، وحين يتعزز في نفس الإنسان تقديره لذاته، فيرى أنّه يمتلك من الكفاءة والقدرة ما يستحق التقدير، عند ذلك تجده يسعى للارتقاء بفكره ووعيه، وتحقيق دوره في الحياة.

والإنسان ضمن هذه الحالة وإن كان ينظر لذاته نظرة تقديرٍ واعتزاز، إلا أنه في ذات الوقت يحفظ للآخر موقعيته ومكانته وحقّه الطبيعي في أخذ دوره في الحياة. بل إنه ضمن الفريق الواحد يسعى لأن يكون العمل تكاملياً بحيث كل كفاءة تأخذ موقعيتها في النشاط والعمل. فهو يؤمن بأن الحياة تتسع للجميع، وبهذا الوعي يتحقق التكامل بين أصحاب الرسالات الرائدة في الحياة.

وفي هذا المستوى من الوعي فإن الإنسان يُحيي موسم عاشوراء ضمن دورٍ وجد نفسه وروحه فيه، سواءً على مستوى الخطابة الحسينية، أو إقامة المآتم، أو المشاركة بنشاطٍ جمعيٍّ أو فردي، إنه يبحث عن ذاته من خلال دورٍ نذر نفسه له، كما أنّه يرى في عاشوراء الحسين عليه السلام موسماً يستلهم من بركاته وفضائله ما يُحقق له الدور الريادي الذي يتطلع إليه.

ماذا بعد؟

سؤالٌ حائرٌ ينبغي أن تطرحه على نفسك دوماً، وعليك أن تكون صادقاً مع نفسك، إلى أي مستوى تنتمي علاقتك مع القضيّة الحسينية؟ وما هو الدافع الأكثر بروزاً فيها؟

عندها فقط ستُدرك ضمن أي مستوى أنت تُحيي الشعائر الحسينية، وبإمكانك أن ترتقي بذاتك وعياً لتكون علاقتك في أعلى مستوى من النضج، كما أنه بإمكانك أن تبقى حيث أنت، شريطة أن تكون صادقاً مع نفسك، ومدركاً لمستوى وعيك، ومستوى نضج علاقتك مع القضية الحسينية.

وفضيلة الشيخ حسن الصفار يُمثل نموذجاً رائداً ضمن هذا المستوى من الوعي في إحياء عاشوراء الحسين عليه السلام، والكتاب الذي بين يدي القارئ العزيز إنما هو ثمرة من ثمار الدور الريادي الذي يقدمه للأمة من خلال خطابٍ حضاري أصيل.

ففي عام ١٤٣٠هـ وبهمة مجموعة من الأصدقاء المهتمين بنشاط الشيخ الصفار

في موسم عاشوراء سعينا لصياغة تقارير يومية تتضمن أبرز المحاور الجوهرية التي تحدث عنها فضيلته في محاضراته العاشورائية.

كما قام بعض الإخوة بتحرير المحاضرات نصاً. وأوكل لي فضيلة الشيخ الصفار، مشكوراً، دور تحرير صياغة جميع المحاضرات لذلك العام لتظهر في صورتها الأخيرة التي نتطلع من خلالها لأن تكون إضافةً رائدةً للخطباء، وللمهتمين بإحياء عاشوراء الحسين عليه السلام ويتطلعون للاستفادة النوعية من بركات هذا الموسم العظيم.

أسأل الله تعالى أن يجعل في هذا المجهود المتواضع بركةً تعمُّ كل من يصل إليه الكتاب، وأسأله تعالى أن يحفظ فضيلة الشيخ الصفار وأن يديم عليه الصحة والعافية ليواصل مسيرة العطاء والدور الرسالي في خدمة الشرع الشريف.

د. تركي العجيان

١٧ شوال ١٤٣٣هـ

مقدمة

إحياء ذكرى عاشوراء ليس رحلة من الزمن الحاضر إلى التاريخ الغابر.

ولا انشغالاً بحدث أكل عليه الدهر وشرب.

ولا هو طقس مذهبي لتكريس هوّية طائفة.

وليس مسرحاً لتفجير العواطف والمشاعر تنفيساً للهموم والأحزان.

وإذا كان البعض يتخيّل شيئاً من ذلك في رؤيته لهذه المناسبة، فهو إما غافلاً عن حقيقة عاشوراء ومضامينها، أو متأثراً بأجواء بعض الممارسات القشرية في إحيائها.

إن عاشوراء مدرسة زاخرة بالقيم والمعاني السامية، وإحياؤها يستهدف استحضار تلك المبادئ والقيم في حياة الفرد والأمة.

وفي طليعة المبادئ والقيم العاشورائية: مبدأ تحمّل المسؤولية تجاه الدين والمجتمع، والقيام بواجب الإصلاح في ساحة الأمة، والانتصار للحقّ والحرية والعدل، ورفض الظلم والجور والفساد.

إن عاشوراء أبعد ما تكون عن المذهبية والطائفية، فحدوثها سابق لنشأة المذاهب والطوائف، والحسين رمز تجمع الأمة على إجلاله وإعظامه بكل طوائفها ومذاهبها، وخطابات الإمام الحسين لا أثر فيها لجدل عقدي أو فقهي أو تاريخي.

بل إن خطابات الإمام الحسين في عاشوراء منشور إصلاح، ومشروع خلاص للأمة من الاستبداد والظلم والفساد.

فالحسين يعلن في بدء نهضته أن هدفه الإصلاح في الأمة «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر».

والحسين يدعو أبناء الأمة لاتخاذ موقف تجاه انحراف السلطات وجورها، وعدم السكوت والخنوع: يقول عليه السلام: «أيها الناس، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله، ناكثاً لعهده مخالفاً لسنة رسوله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر ما عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله».

كما يؤكد الإمام الحسين أن لا قيمة للحياة إذا ساد فيها الباطل والفساد، وانتهكت فيها الحقوق والمبادئ، يقول عليه السلام: «ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً، فإني لا أرى الموت إلا سعادة، ولا الحياة مع الظالمين إلا برما».

ويستثير الحسين في نفس الإنسان كإنسان نزعته إلى الحرية والكرامة، بغض النظر عن الدوافع الدينية، مطالباً إياه بعدم التفريط بحريته: «إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المعاد فكونوا أحراراً في دنياكم».

وإحياء عاشوراء إنما يعني استحضار وتمثّل هذا الخطاب الحسيني، والمواقف البطولية المجسّدة له في ملحمة كربلاء.

لكن ما يجب الاعتراف به هو القصور والتقصير في بعض مشاهد إحياء عاشوراء، عن محاكاة الخطاب الحسيني واستحضار قيمه ومضامينه، بل قد تحصل بعض الممارسات وتطرح بعض الخطابات المخالفة لمقاصد الثورة الحسينية، لجهل أو غفلة أو سوء فهم أو غرض مصلحي.

ولخطباء المنبر الحسيني دور أساس في توجيه إحياء مناسبة عاشوراء لِتحقّقَ أهدافها المقدسة، وتبعثَ في نفوس أبناء الأمة روح المسؤولية والتزام الحق، والسعي لإقامة العدل.

إن مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة تعاني من واقع التخلف، وهيمنة الاستبداد، وغياب العدل، وانتهاك الحقوق، ولا خلاص لها إلا بحراك نهضوي، ينطلق من الشعور بالمسؤولية، والثقة بالذات، والاستعداد للبذل والتضحية، وكل ذلك يمكن استلهامه من مدرسة عاشوراء.

وقد تختلف البيئات وأوضاع المجتمعات، مما يستدعي تفاوتاً في أولويات الطرح ومستويات الخطاب، إلا أن المهم هو استهداف الإصلاح والتغيير، والتحفيز نحو النهوض والفاعلية وتجاوز معوقات التنمية والبناء.

والكتاب الماثل بين أيدي القراء الكرام هو تجربة متواضعة لتمثّل هذا الخطاب المطلوب، حيث ألقيت هذه المحاضرات في موسم عاشوراء لسنة ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م في مجلس الشيخ محمد صالح المبارك في القطيف، وقام بعض الإخوة الأعزّاء مشكورين بكتابتها وتحريرها، وأجريت عليها شيئاً من التعديل والتنقيح، ويسعدني أن أقدمها للقراء الأعزاء، وخاصة لإخوتي وزملائي من خطباء المنبر الحسيني، بهدف تدوير التجربة، والاستفادة من ملاحظاتهم ونقدهم البناء.

أسأل الله تعالى القبول والتوفيق.

والحمد لله ربّ العالمين.

حسن موسى الصفار

٥ ذو الحجة ١٤٣٣هـ

٢١ أكتوبر٢٠١٢م

المظالم الكبرى في ذاكرة التاريخ

- ☐ الموقف من ظلامات التاريخ
- ☐ ضحايا الرأي
- ☐ فاجعة كربلاء في التاريخ الإسلامي

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ ﴾ [سورة البروج، الآيات: ١-٨]

□ الموقف من ظلامات التاريخ

حفل تاريخ البشرية الطويل بالكثير من المظالم وحالات العدوان، فلا يكاد يخلو عصر من العصور ولا زمن من الأزمان من وقوع الظلامات والاعتداءات بين بني البشر. وتفاوتت هذه المظالم في حجمها وفي سعة رقعتها وتأثيرها، فقد أثر جانب من هذه المظالم على أفراد، فيما نال قسط آخر من جماعات، في حين دفعت أثمانها الباهظة مجتمعات وأمم بأكملها في حالات أخرى.

إن من أبسط ما تسالم عليه العقلاء هو رفض الظلم، فلا يرتضي الإنسان العاقل وقوع الظلم، ذلك يكاد يكون من البديهيات ومما تحكم به فطرة الإنسان وتفكيره السوي، علاوة على رفض الشرائع السماوية لارتكاب الظلم بحق الناس أنى كانوا.

غير أن السؤال الذي يطرح نفسه على طاولة البحث هنا، هو عن ماهية الموقف المناسب إزاء الظلامات التي وقعت في الماضي وعبر مختلف العصور، سواء تلك التي كانت محدودة التأثير أو كانت واسعة النطاق. فهل من واجب الإنسان أن يكون له موقف من تلك الظلامات؟

أم أن المطلوب تجاهلها وتناسيها واعتبارها مجرد قضايا عفى عليها الزمن، قد فني المتورطون فيها كما رحل ضحاياها؟

وتبعًا لذلك قد يقول قائل: ما الداعي لأن نجدد ذكر هذه الظلامة أو تلك وقد تطاول عليها الزمن عبر القرون وتعاقبت عليها الأجيال؟

فيما قد يتساءل آخر مشككًا عن جدوى الانشغال في هذا الزمن بتلك القضايا التاريخية مستدلًا بالآية الكريمة ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٣٤].

من هنا نشأت الجدلية حول الموقف من الظلامات التي حصلت في الماضي والتي تراوحت بين الانشغال أو التجاهل حيال تلك الظلامات.

حقيقة الأمر، يجب أن يكون الموقف من شتى أنواع الظلم والعدوان الذي يقع على البشر حاسمًا وواضحًا وضوح الشمس لكل ذي عينين، إذ لا يفترض بأي عاقل التغاضي عن مطلق الظلم والعدوان، في هذا العصر، أو العصور السالفة على حدٍّ سواء، ذلك هو منهج القرآن الكريم، الذي طالما سلط الضوء على مظالم حصلت في التاريخ الماضي وأحداث جرت على الأجيال السالفة.

والسؤال هنا: كيف نوفق بين الآية الكريمة الآنفة وبين آيات أخرى تدعو الإنسان إلى التأمل في سير وأحوال الأمم الغابرة؟

يقول ربنا عزَّ وجلَّ في محكم كتابه العزيز: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[سورة يوسف، الآية١٠٩]، والآية الكريمة تورد هنا أمراً إلهيًّا صريحًا بأن يسير الإنسان في الأرض فينظر في مصير وأحوال الأمم والأقوام السابقين.

كما أن آي الذكر الحكيم تشير بوضوح إلى فائدة ذكر الأحداث السابقة لغرض أخذ العظة والعبرة، فقد ورد في الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي

الْأَلْبَابِ﴾[سورة يوسف، الآية١١١]، وفي آية أخرى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف، الآية١٧٦].

وعلاوة على ذلك، كثيرًا ما نجد القرآن الكريم يخلّد بعض المظالم السابقة، الفردية منها فضلًا عن الجماعية، فقد تناول الكتاب العزيز ظلامة هابيل بن آدم، وسرد تسلسل واقعة العدوان والقتل التي راح ضحيتها على يد أخيه قابيل، فجاء في الآية الكريمة: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة المائدة، الآية ٢٧]. لقد تناول القرآن الكريم قضية هابيل في عدة آيات، لا لمجرد سرد حادثة مقتل أخ على يد أخيه، بقدر ما هي تخليد لظلامة عظيمة راح ضحيتها أحد الصالحين لتكون درساً تُستلهم منه العبر والعظات.

كذلك تناول ربنا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بالتفصيل قضية معاناة نبي الله يوسف عليه السلام وما لقي من إخوته، وماذا حصل له منذ تغييبه في الجبّ على يد إخوته، ومعاناته في السجن لاحقًا، ثم عفوه عن إخوانه فيما بعد، حتى اعتلائه عرش مصر في نهاية المطاف ، جميع ذلك خلّده القرآن الكريم بالتفصيل في سورة كاملة، حملت اسم نبي الله يوسف.

وفي ذات السياق خلّدت سورة كريمة ثالثة، هي سورة البروج، ظلامة أخرى جرت على شهداء الأخدود. إن هذا يظهر بوضوح: أن المنهج القرآني لا يدعو بأي حالٍ إلى تجاهل الأحداث السابقة، ولا يدعو إلى نسيان المظالم التي وقعت في التاريخ الماضي، بخلاف ما فهمه البعض من الآية الكريمة: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾.

وهذا ما يجرّنا إلى فهم الآية الكريمة على نحو مختلف، وهي أنها جاءت ضمن سياق ذم الافتخار والتباهي بأمجاد وفضائل الأمم الغابرة، فهذه الأمجاد ليست أمجادكم أنتم، ولن تحسب لكم اليوم بأي حال، إن لم تكن لكم أمجادكم

الخاصـة. لقد جاءت الآية الكريمة في هذا السـياق، وإلا فمنهج القرآن الكريم هو الحديـث عـن عبر وأحداث التاريـخ، لغرض أخذ الدروس منهـا، كما أن ذلك من سيرة عقلاء البشر، فهم يحتفون ويخلدون المظالم التي جرت عبر تاريخهم.

والسؤال هنا: لماذا يخلّد الناس المظالم التي حصلت في التاريخ ؟

في الحقيقة، يعدّ اسـتحضار تلك المظالم دافعًا لتقبيح الظلم في عيون الناس، وتأكيـدا على إدانة العـدوان، وتحصينًا للمجتمعات عن تكـرار مثل تلك المظالم، هذا هو هدف عقلاء البشرية من تخليد المظالم السابقة.

ذكرى هيروشيما

نجد مثلاً كيف أن اليابانيين يحيون ذكرى إلقاء القنبلة الذرية الأولى على مدينة هيروشـيما يوم السادس من أغسطس سنة ١٩٤٥م، تلك المدينة الواسعة التي كان يسكنها مليون وأربع وأربعون ألف نسمة، فأحرقت القنبلة على نحو مباشر مساحة ١٣كـم مربـع، وراح ضحيتها بين سـبعين إلى مئة ألف نسـمة منـذ اللحظة الأولى، عدا عن آلاف الإصابات والموتى بسـبب الإشعاع الذري الذي تركته تلك القنبلة ، وكمـا هو معروف، ألقى الأمريكيون بعد ذلك بثلاثة أيام قنبلة ذرية ثانية على مدينة ناجازاكي اليابانية، الأمر الذي قاد لاحقًا لاستسـلام اليابان لقوات الحلفاء، ونهاية الحرب العالمية الثانية[1].

اللافـت أن اليابانيين ومع علاقاتهم الوطيدة بالأمريكان، الذين ضربوا بلادهم بالقنبلـة الذريـة، لكـن ذلك لم يمنعهـم من أن يحتفلوا سـنوياً بذكـرى ضحاياهم، بجانب الأطلال التي خلفتها القنبلة في الميدان الرئيس لمدينة هيروشـيما، وأصبح هذا اليوم في اليابان عطلة سنوية رسمية يتخلله احتفال رسمي وشعبي بذكرى هذه

(١) الموسوعة العربية العالمية. ج٢٦، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ، (الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر)، ص٣٢٣.

الظلامة التي حصلت. ويأتي المغزى الفعلي للاحتفال بهذه الذكرى المؤلمة، لتوجيه رسالة لأجيال البشرية جيلًا بعد آخر، مفادها بأن الإبادة واستخدام أسلحة الدمار الشامل كانت وستظل مستقبحة، وأنها لا ينبغي أن تتكرر مرة أخرى في تاريخ البشرية.

هذا النوع من إحياء الظلامة هو منهج عقلائي يحتفي بالمناسبة على نحو إيجابي، هو أبعد ما يكون عن اجترار وتوارث الأحقاد بينهم وبين الأمريكيين المعاصرين، فهم إنما يحتفون لإدانة الفعل ذاته، وإدانة من اتخذ القرار بإلقاء القنبلة في وقته وعصره.

هولوكوست اليهود

وغير بعيد عنّا كيفية تعاطي اليهود مع ذكرى المحرقة، وأفران الغاز، التي راح ضحيتها مجاميع كبيرة من اليهود على يد النازيين الألمان، بقيادة الزعيم الألماني أدولف هتلر سنة ١٩٤١ و ١٩٤٢ والمعروفة بالهولوكوست. فقد ضخم اليهود هذه المأساة الحقيقية، وأعطوا أرقامًا مبالغة للضحايا بلغت الستة ملايين، وهي أرقام لا يقبلها الكثير من العلماء والباحثين، ويصفونها بالتهويل. غير أن ما يهمنا هنا هو التمعن في كيفية استثمار اليهود لهذه الحادثة، في كسب المزيد من التعاطف الدولي لإيجاد وطن قومي خاص بهم في فلسطين، على حساب أهل الأرض الأصليين، ضمن سلسلة من المطامع التي تقاطعت مع مصالح الإدارات الغربية. وقد بلغ من أمر الاهتمام بهذه الذكرى أن أصبح مجرد التشكيك في أرقام الضحايا جريمة يحاسب عليها القانون في عدد من الدول، هذا إلى جانب تحديد الأمم المتحدة عام ٢٠٠٥م يوماً عالمياً للاحتفاء بذكرى المحرقة يصادف يوم ٢٧ يناير من كل عام.

إن إحياء ذكرى الهولوكوست يفترض أن يكون في جوهره إدانة للظلم والعدوان، لكن ـ وفي مفارقة لافتة ـ وجدنا كيف مارس هؤلاء الذين يعتبرون

أنفسهم ضحايا لعدوان النازيين ما هو أبشع مما مارسه النازيون بحقهم. فقد شرّد الإسرائيليون منذ إنشاء دولتهم الغاصبة على أرض فلسطين عام ١٩٤٨ شعبًا كاملًا من أرضه، وبنوا دولتهم على أنقاضه، بعدما احتلوا أرضه، ومارسوا التنكيل والإبادة الجماعية في حق الشعب الفلسطيني، وذلك ضمن سلسلة متواصلة حتى اليوم من مشاهد الحرب المفتوحة، والحصار والتجويع والتخويف والقمع والإرهاب المنظم المدعوم من قبل الدول الغربية، وعلى مرأى ومسمع من العالم.

إحياء الظلامات منهج عقلائي

من هنا يتضح بأن منهج عقلاء العالم ينزع باتجاه تخليد المظالم السابقة في التاريخ، في سبيل تأكيد قبح الظلم وتحصين النفوس والمجتمعات من تكرار وقوع تلك الفظائع.

هنا تجدر الإشارة، كما أسلفنا، إلى أن الاحتفاء بتلك المناسبات الأليمة، لا يعني الانشغال بالماضي على حساب الحاضر، وليس توارثًا للأحقاد ضد من قاموا بتلك الأفعال، سيما وقد رحلوا عن هذه الحياة وانتهوا، بقدر ما هو إدانة الفعل ذاته والمنهج الذي خلف مثل هذه الأفعال العدوانية.

إذاً فالموقف المناسب من الظلامات التاريخية هو موقف الاهتمام بتلك الظلامات من أجل أخذ الدروس والعبر منها، ومن أجل تأكيد إدانة الظلم والظالمين في كل عصر من العصور؛ لأن الظلم والعدوانية من الجرائم التي لا تسقط بتقادم الزمن، فلا يمكن للظالم أن يتحول إلى قديس وعادل مع مرور الزمن. فالظالم، وإن تطاولت الأيام على ظلمه وتعاقبت الحقب على عدوانه، سيظل ظالمًا معتديًا يستحق اللعن من الله والناس، وآيات القرآن الكريم تزخر بالكثير من الآيات في لعن الظالمين، ويزداد مقدار اللعن والطرد من رحمة الله بقدر حجم الظلامة، واتساع نطاقها، وأهمية الأشخاص الذين طالتهم؛ فإن عذاب الله وعقابه سبحانه وتعالى على الظالم سيكون أشد وأعظم.

وقد سبقت الإشارة إلى أن هناك لونين من الاهتمام بحوادث التاريخ المؤلمة، أحدهما سلبي، يغرق في التفاصيل، ويرتب آثاراً على حساب مصالح الحاضر، والآخر إيجابي، يعنى بأخذ الدروس والعبر. فالحديث عن مظالم التاريخ يأتي بهدف التحصين دون تكرارها، ولتأكيد إدانتها والبراءة منها ومن مرتكبيها، وتهويل وقوع وأثر الظلم في النفوس.

□ ضحايا الرأي

تحدث القرآن الكريم في سورة البروج عن ظلامة تاريخية طالت شهداء الأخدود، الذين قضوا حرقًا على يد أعدائهم، لقاء إيمانهم بالله، وتمسكهم باعتقادهم، حتى آخر لحظة من حياتهم. وقبل الحديث عن هذه الظلامة التي تحكي مأساة من يطلق عليهم اليوم بضحايا الرأي، نشير إلى جدلية تناولها الفقهاء المسلمون بإسهاب حول مسائل القسم والحلف بغير الله عزَّ وجلَّ. فالسورة الكريمة تبدأ بأقسام متعددة ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، فالله تعالى يقسم بالسماء ذات البروج، أي ذات الكواكب والنجوم، واليوم الموعود، أي يوم القيامة كما يرى أكثر المفسرين، وهو ما يتوافق مع قسم آخر في آية أخرى ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [سورة القيامة، الآية١].

غير أن آراء المفسرين تضاربت بشأن المقصود من قول الله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، فهناك من ذهب إلى أن الشاهد هو نبينا محمد ﷺ مستشهدًا بقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ [سورة الفتح، الآية٨]، فالنبي ﷺ إذًا هو الشاهد، أما «المشهود» فقد قيل هو يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [سورة هود، الآية:١٠٣]، وقيل هو يوم الجمعة، وفي قول ثالث أنه يوم عرفة، فيما ذهب بعض المفسرين إلى أنه لا يقصد من ذلك شيء بحدّ ذاته، وإنما يقسم الله تعالى بكل من يشهد شيئاً، وبكل شيءٍ يُشهد.

الحلف بغير الله

لقد أقسم الله سبحانه وتعالى في آيات عديدة بمختلف الكائنات والمخلوقات، وغرض ذلك ـ حسبما نعتقد ـ لفت أنظار الناس إلى عظمته التي تتجلى من خلال تلك المخلوقات والكائنات، فقد أقسم بالشمس: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ۝٢ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ [سورة الشمس، الآيات ١-٣]، وأقسم بالتين والزيتون، وأقسم بالفجر وليال عشر، وهذا ما فجّر نقاشًا محتدمًا بين الفقهاء حول القسم بغير الله تعالى. إذ يتفق فقهاء المسلمين حول عدم صحة انعقاد القسم بغير الله وأسمائه وصفاته المختصة به، فلا تنعقد اليمين ولا يترتب عليها أي أثر ما دام بغير الله تعالى، فالحلف بغير الله لا يصح في القضاء وفض الخصومات، بل لا بدّ من الحلف بالله أو بإحدى صفاته التي هي رمز لذاته. لكن الاختلاف القائم هو في مدى جواز أن يحلف المسلم بغير الله.

ومردّ هذا الجدل يعود إلى أنه إذا كان الله تعالى يقسم بسائر مخلوقاته، كما يتضح من العديد من آيات القرآن الكريم، فكيف يكون القسم بها شركاً أو كفراً كما ذهب بعض الفقهاء؟، فقد رأى فقهاء الحنابلة على وجه الخصوص حرمة حلف الإنسان بغير الله، ويعضدون رأيهم هذا بأحاديث لإثبات أن الحلف بغير الله شكل من أشكال الشرك، فمن حلف بغير الله فقد أشرك على حدّ اعتقادهم. أما بقية المذاهب كالأحناف والمالكية والشافعية فيرون أن الحلف بغير الله مكروه، إما كراهة تحريم أو كراهة تنزيه، فهم يذهبون إلى أن الحلف بغير الله في أصله ليس حراماً ولا يصل عندهم إلى حد الشرك. فذهب الأحناف إلى كراهة الحلف بالأب والحياة من قبيل؛ وأبيك وحياتك وما شابه. وعلى ذات المنوال ذهب الشافعية إلى كراهة الحلف بغير الله إذا لم يكن باعتقاد الشرك. فيما أورد المالكية قولين في القسم بالعظماء والمقدسات كالنبي والكعبة، وهما: الحرمة والكراهة، والمشهور عندهم الحرمة.[١]

(١) الموسوعة الفقهية. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويت، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ (مصر: دار الصفوة)، ٧/ ٢٦٥.

ولعل السؤال هنا ـ كما أسلفنا ـ هو: كيف يكون الحلف بغير الله شرك، والله سبحانه وتعالى نفسه يقسم في القرآن الكريم بمخلوقاته! فهل يعقل أن يقول سبحانه وتعالى كلاماً أو يقسم قسمًا وهو في حدّ ذاته شرك؟

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرُ الرَّأْسِ نَسْمَعُ دَوِيَّ صَوْتِهِ وَلَا نَفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّى دَنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنْ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ فَقَالَ: لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ، وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الزَّكَاةَ، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ، قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ» أو قال: «دَخَلَ الجَنَّةَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ»)[1].

ففي هذا الحديث يقسم رسول الله ﷺ بأبي ذلك الإعرابي حيث يقول: «أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ»، أي أقسم بأبيه.

أصحاب الأخدود

وبالعودة إلى مأساة أصحاب الأخدود الذي أوردت الآيات مأساتهم، وجعلت ربنا سبحانه وتعالى يسبق الحديث عنهم بالقسم بآياته، بما يوحي بعظم هذه الحادثة المهمة، فالأخدود هو الحفرة أو الشق الواسع في الأرض، وأصحاب الأخدود، هم الذين شقوا هذا الأخدود في الأرض وأوقدوا فيه النار. وتشير النصوص والآثار التاريخية إلى أن هؤلاء القوم حفروا حفرة عميقة في الأرض وأوقدوا فيها نارًا عظيمة، ثم جاؤوا بالمؤمنين الذين آمنوا بالله سبحانه وتعالى، وعرضوا عليهم أن

(١) مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. صحيح مسلم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، (الرياض: دار المغني) حديث ٩، ص٢٥.

يتراجعـوا عن إيمانهم، أو أن يلاقوا مصيرهم بأن يلقـوا في النار، فرفض المؤمنون التراجـع عن إيمانهـم، والتنازل عن دينهم، فأُلقوا جـراء مواقفهم الإيمانية في تلك النار المضطرمة المتقدة، ليلاقوا وجه ربهم.

وقـد خلّـد الله سـبحانه وتعالـى هذه الحادثـة اسـتنكارًا وإدانة لهـا، وتحصينًا للمجتمعات عن تكرار أمثالها، فلم يتحدث القرآن الكريم عن تفاصيل مكان وقوع الحادثـة، أو مـن قام بهـا؛ لأن منهج القرآن فـي الحديث عن التاريـخ، ينزع باتجاه التركيز على جوهر القضايا، وهذا ما يدعونا للاسـتفادة من هذا المنهج، من خلال البعد عن الإغراق في التفاصيل على حساب جوهر القضية محلّ البحث.

فالقـرآن لـم يتحدث عـن تفاصيل كثيرة حـول قضية أصحـاب الأخدود، وقد اختلفت أقوال المفسرين والمؤرخين حولها، ولكن من أشهر الآراء في هذا الصدد أن هـذه الحادثـة وقعت في اليمن، في عهد ذي نواس الـذي كان آخر ملوك حمير، فقـد تهوّد هذا الملك، أي أصبح يهودياً، وكان في نجران نصارى منذ عهد نبي الله المسـيح عيسـى بن مريم عليه السلام، فغزاهم هذا الملك، وطلب منهم الرجوع عن دينهم فرفضـوا، فحفر لهم الأخدود، وحينما أصروا على موقفهم قتلهم وألقاهم في تلك النار المضطرمة المتقدة[1]، لذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾، واختلـف المفسـرون فـي مغزى الفعـل ﴿قُتِلَ﴾ ومـا إذا كان متعلقـاً بالمقتولين أو القاتليـن، فقد ذهب مفسـرون إلـى أن المقصود هنا هم المقتوليـن، بمعنى أن الآية تريـد الإخبار بنبأ مقتل أصحاب الأخدود، غيـر أن القول الأرجح هو أن المقصود فـي الآية هم القاتلـون، والمعنى وفقًا لهـذا القول بـ ﴿قُتِلَ أَصْحَـابُ الْأُخْدُودِ﴾ أي لعـن القوم الذين شـقوا هذا الأخـدود، فوصفتهم الآية بأصحـاب الأخدود، ومما يرجـح هذا القـول أن الضمائر الأخرى فـي الآيات التي تلت هذه الآيـة كلها تعود

(١) ناصر مكارم الشيرازي. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، (بيروت: مؤسسة البعثة)، ٢٠/ ٨٦.

على أولئك القوم ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعود على أصحاب الأخدود، وهذا يرجح أن يكون المقصود من ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ يعني الفاعلين والقائمين بذلك القمع، ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ نار متقدة مضطرمة، وتأتي في ذات السياق الآيتان: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾، أما عن سبب ارتكابهم لهذا الفعل فتجيب الآية الكريمة بالقول: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

إن من أقبح أنواع الظلم أن يتعرض بنو البشر للاضطهاد نظير آرائهم أو اتجاهاتهم الفكرية، فيتحولون بذلك إلى ضحايا رأي، وفق التعبير الحديث. فمن المفهوم قيام الصراعات نتيجة تضارب المصالح الخاصة، والتنافس على المكاسب الذاتية، أما ارتكاب الظلم بحق الآخرين نتيجة اعتناقهم لآراء مختلفة، فهذا من أقبح أنواع الظلم. إذ كيف يجيز إنسان لنفسه أن يعاقب آخرين؛ لأن لهم رأياً يختلف عن رأيه، فكما أن لك رأيك فللآخرين آراؤهم، ومن حق الإنسان أن يكون له رأي، وأن يعبر عن رأيه، ولا يصح ولا يجوز أبداً أن يكون هناك اعتداء على إنسان؛ لأن له رأياً مختلفاً أو لأنه عبّر عن رأيه.

من ضحايا الرأي في العهد الأموي

ومن أسف نقول بأن تاريخ البشرية شهد الكثير من المظالم التي طالت ضحايا لم يكن لهم من ذنب سوى أن لهم آراء مغايرة. وقد شهد تاريخنا الإسلامي وقائع كثيرة مؤسفة من هذا القبيل، فما هو ذنب الصحابي الجليل المعروف بالعبادة والفضل والورع حجر بن عدي رضوان الله تعالى عليه حتى يقتل صبرًا؟ وما الجريمة التي قتل بسببها؟ هل كان له نزاع على ملك أو على سلطة أو على مكسب؟ فقد أوتي به هو وأصحابه إلى منطقة مرج عذراء، وعُرض عليهم البراءة من أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام، فمن قبل البراءة أطلق سراحه، وقد أطلق سراح نصفهم بعدما تظاهروا بالبراءة من علي عليه السلام، أما من رفض البراءة كحجر وأصحابه فكان نصيبهم

القتل والشـهادة، وذلك نزولًا عند أوامر معاوية بن أبي سـفيان القاضية بأن يعرض عليهـم البـراءة من صاحبهم، أي الأمـام علي بن أبي طالب، فإن لـم يقبلوا تضرب أعناقهـم، وبالفعل ضربت أعناقهـم ظلماً وقتلوا صبراً، فأثار ذلـك احتجاج الكثير من المسـلمين، حتى إن أم المؤمنين عائشـة احتجت على معاوية جراء قتله حجرًا، ولذلك يبقى السؤال قائمًا: لماذا قتل حجر؟ وبأيّ ذنب قتل هو أصحابه؟. ويروي ابن كثير في هذا السـياق أن معاوية جعـل يغرغر بالموت وهو يقول: (إن يومي بك يا حجر بن عدي لطويل)[١]، مما يعني أن هذه الحادثة الشـنيعة كانت شـاخصة أمام بصره وقد ندم على فعلها حتى آخر لحظات احتضاره وموته.

وعلى غرار ما سـبق، وقعت أحداث مؤسـفة كثيرة، ومنها ما جرى على خبيب بـن عبيـد الله بن الزبير عنـد مخالفته الوليد بـن عبد الملك لمـا أراد الأخير إضافة الحُجَـر ـ أي بيـت رسـول الله ﷺ ـ إلى المسـجد النبوي الشـريف. فقـد كان رأي خبيب أن إضافة الحُجَر إلى المسـجد سـتعني تلقائيًا إلغاء آيـة من كتاب الله تعالى وهـي ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَـكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ فأثار ذلك غضب الوليد، فأمر عامله بأن يجلد خبيب مئة سوط، وأن يلقي عليه قربة ماء بارد في يوم قارس البرودة، ونفذ ذلك الأمر بالفعل فمات خبيب في وقته وساعته[٢] .

وقد روى لنا التاريخ حوادث جمّة، راح ضحيتها أصحاب رأي، كان كل ذنبهم أن تمسـكوا بآرائهم الخاصة. ولعل القرآن الكريم عندما أورد حادثة الأخدود أراد أن يشـير إلـى أن السـبب وراء ذلك لم يكن سـوى القمع والعـدوان على أصحاب الـرأي، وليسـلط الضوء على بشـاعة الاعتداء علـى أي صاحـب رأي لمجرد تبنيه رأيًـا مخالفًا. وقد جاءت المواثيق الحقوقية الدولية وشـرعة حقوق الإنسـان لتقرر

(١) الحافظ بن كثير الدمشقي. البداية والنهاية ج٨ ، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٥٨.

(٢) أحمد بن أبي يعقوب بن وهب الكاتب. تاريخ اليعقوبي. ج٣ ، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ، (النجف: المكتبة الحيدرية)، ص٢٩.

هذه الحقيقة التي قررها القرآن الكريم في إدانة العدوان على أي أحدٍ على أساس رأيه، فضلًا عن رفض معاقبة أو انتهاك حقوق أي جماعة وممارسة التمييز ضدهم، والاعتداء على حقوقهم لا لشيءٍ إلا لأنهم يرون رأياً مختلفًا، أو يعتنقون مذهباً معيناً، ويؤمنون بفكرة مغايرة، هذا من أبشع أنواع الظلم، وهؤلاء المعتدى عليهم يدخلون حتمًا في عداد ضحايا الرأي.

□ فاجعة كربلاء في التاريخ الإسلامي

تعتبر فاجعة كربلاء منعطفاً كبيراً في التاريخ الإسلامي، مع أن أحداثًا كثيرة قد حصلت في تاريخ الأمة، إلا أن تلك الأحداث كانت مشوبة بشبهة الصراع السياسي، والاختلاف على المصالح، والنزاع على المكاسب، وهذا لا يلغي حقيقة أن هناك محقًّا ومبطلاً في جميع هذه الأحداث، فهذا أمر واضح لا يمكن تجاهله أو التنكر له. لكن ما يميز واقعة كربلاء هو تجلي أعلى قمم البشاعة والوحشية التي ارتكبت من قبل جنود بني أمية، ضد عترة رسول الله ﷺ، وعلى رأسهم الإمام الحسين عليه السلام. فلا أحد من المسلمين يجهل مكانة الإمام الحسين عليه السلام، لا من الماضين ولا من المعاصرين، وأحاديث رسول الله ﷺ في فضل الحسين ثابتة عند جميع المسلمين، فطالما رأى الأصحاب رسول الله ﷺ وهو يحمل الحسن والحسين على صدره ويقول عنهما: هذان (سيّدا شباب أهل الجنة)[1]، وقد روي عن النبي ﷺ أنه يطيل السجود عندما يمتطي الحسين ظهره ﷺ فيسأل فيقول: (ابني هذا امتطى ظهري فما أحببت أن أزعجه حتى ينزل من تلقاء نفسه)[2]، فالمسلمون جميعًا يعرفون فضل الحسين، ومقام الحسين، فماذا فعل الحسين حتى يواجه

(١) علاء الدين علي المتقي الهندي.كنز العمال. ج ٧، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص ٢٦.

(٢) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار. ج٣٨، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ، (بيروت: دار إحياء التراث الإسلامي)، ص٨١.

بالقتل على هذا النحو البشع، سوى إعلان رأيه الديني والسياسي في رفض البيعة ليزيد بن معاوية، وقد قالها صراحة في خطابه للجيش الأموي: (وإن كنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي جئت منه إليكم)[١]، ولكنهم حاصروه وأصروا على قتله، بتلك الطريقة الشنيعة هو وكوكبة من أهل البيت. فقد قال الحسن البصري: (قتل مع الحسين بن علي ستة عشر من أهل بيته ما كان لهم على وجه الأرض شبيه)[٢]، فلم يكونوا أشخاصًا عاديين، كما لم تكن المسألة داخلة ضمن دائرة الحروب المألوفة، حيث القتال والقتل المتبادل، لينتهي بغلبة جهة معينة وينقضي الأمر، وإنما مارس الجيش الأموي أبشع أنواع التمثيل والوحشية بجسد الإمام الحسين عليه السلام، حيث أوطؤوا الخيول جسده الشريف، حتى كسرت أضلاعه، ومزقت أشلاءه إنفاذاً لأمر ابن زياد لعمر بن سعد حيث كتب له: (فإن قتلت حسيناً فأوطئ الخيل صدره وظهره)[٣]، وهجموا على خيام النساء والأطفال وفعلوا ما فعلوا، وكانت فيها زينب بنت أمير المؤمنين وبنت فاطمة الزهراء، ومعها أطفال وأيتام إلى جانب النساء المثكولات في أزواجهن وأبنائهن، بل لم يكتف القتلة بذلك حتى حملوا رأسه الشريف عليه السلام ورؤوس الهداة من أهل بيته وطافوا بها في البلدان.

هذه البشاعة الشديدة هي التي توجب تخليد هذه الظلامة، وأن يحتفى بها كل عام، بل كل يوم، حتى تبقى في ذاكرة الأمة شاهداً على ما أصاب ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله من بلاء، وشاهداً على قبح الظلم والعدوان، وحتى يستفاد منها الدروس والعبر.

(١) باقر شريف القرشي. حياة الامام الحسين بن علي، ج٣، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، (بيروت: دار البلاغة)، ص٧٥

(٢) المصدر نفسه. ٤٥ ص٦٤.

(٣) حياة الإمام الحسين بن علي، ج٣، ص١٣١.

إن إحياء هذه الفاجعة لم يكن أمراً من وحي ردود الفعل السياسية والاجتماعية من الشيعة، وإنما كان بتعاليم وتوجيهات من أهل البيت عليهم السلام، فهم وجهوا شيعتهم لإحياء ذكرى هذه الفاجعة، فقد كان الإمام الرضا عليه السلام يحث شيعته على الاحتفاء بهذه المناسبة، وكان يشجع الشعراء على إنشاء القصائد في هذه المأساة، حتى إنه عليه السلام لم يكن يخفي ألمه وحزنه وبكاءه عندما يستمع لتلك القصائد، كما حدث عندما دخل عليه دعبل الخزاعي وأنشد أمامه قصيدته الرقيقة، وتناول فيها المآسي والفجائع التي حلّت بأهل البيت، وكان مما قاله دعبل:

أفاطم لو خلت الحسين مجدلا ... وقد مات عطشانًا بشط فرات
إذن للطمت الخد فاطم عنده ... وأجريت دمع العين في الوجنات
أفاطم قومي يا ابنة الخير واندبي ... نجوم سماوات بأرض فلاة

علي نفس الرسول

- ☐ قيمة القرب من رسول الله
- ☐ خصائص الإمام علي
- ☐ علي حاجة العصر

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ٦١]

□ قيمة القرب من رسول الله

لا شك أن الاقتراب من أي عظيم من العظماء يكسب الإنسان قيمتين: قيمة ذاتية، وأخرى اعتبارية. فعلى المستوى الذاتي يستفيد الإنسان من علم وتجارب وأخلاق العظيم الذي يقترب منه، ولهذا كانت صحبة الأخيار والعلماء أمراً محبذاً ومرغوباً فيه؛ لأن صحبة هؤلاء الصالحين تكسب الإنسان من صلاحهم وفضلهم.

أما من الناحية الاعتبارية فيكتسب القريبون من العظماء احترام وتقدير من حولهم، وذلك انبثاقًا من احترام الناس لذلك العظيم أو الزعيم.

ضمن هذا السياق نفهم جانبًا من علة توجيه الشريعة للتواصل مع أصدقاء الأبوين، فقد ورد عن رسول الله ﷺ قوله: (من البر أن تصل صديق أبيك)[1]، ذلك لأن المحبة التي تكنها لأبيك يفترض أن تدفع بك لاحترام وحب من كان إلى جانب أبيك. من هنا درج الناس على النظر باحترام إلى من يكون بقرب أي عظيم من العظماء.

(١) كنز العمال ج١٦، ص٤٦٥، حديث٤٥٤٦٣.

لا ريب بأن رسول الله ﷺ هو أعظم عظماء البشرية، وأفضل خلق الله، وبذلك يكـون القرب منـه ﷺ بحد ذاته قيمة وسـببًا من أسـباب الفضل. ذلـك أن القريبين منه ﷺ يفترض فيهم الإفادة والاكتسـاب من هدي الرسـول وفضله، كما أن قربهم كفيـل بخلـق الحظوة والمكانـة لهم بين الناس. لكـن هذه الفضيلة لن تكتسـب ما لم تكن لدى الإنسـان الأهلية والاستعداد حتى يكتسـب من فضيلة القرب من هذا العظيم.

إذ إن مجرد ملازمة بعض الناس لأيّ عالم من العلماء، فضلا عن أحد العظماء، دون أن يكون لديهم الاسـتعداد والاهتمام في التلقي والاكتساب، فإنه لن يجديهم هذا القرب نفعاً. كذلك الأمر بالنسبة لمن عاصر النبي الأكرم ﷺ، فليس من الحتمي اكتسـاب جميع معاصريه ﷺ من هديه وفضله، إلا بمقدار ما توفرت لديهم الأهلية والرغبـة فـي اكتسـاب المعرفة والفضائـل. وقد أشـارت الآيات الكريمـة إلى هذا المعنـى، من خلال تناول صنف من الناس ممن لم يسـتفيدوا مطلقا من وجود هذا النبي العظيم بينهم، لانعدام الصدق والإخلاص فيهم، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[سورة التوبة: الآية١٠١].

وقد عاش رأس المنافقين عبد الله بن أُبي مع رسول الله وكان يحضر المسجد ويسـمع خطب رسـول الله ﷺ، ويؤدي الصلاة معه، ويشـارك في بعض الغزوات، لكن هذا القرب من النبي لم يسـتفد منه بن أبي شـيئا، حيث اشـتهر بالنفاق وانعدام الصدق والإخلاص. ويذكر في هذا السياق أن بن أُبي عندما داهمه مرض الموت، حضـر ابنـه عبدالله عند النبي الأكـرم وكان مؤمناً، فقال: (يا رسـول الله، بأبي أنت وأمي، إنك إن لم تأتِ أبي كان ذلك عاراً علينا)[1]، فاستجاب رسول الله ﷺ وجاء لعيادته في مرضه الذي مات فيه، حتى إن عبد الله بن أُبي طلب من رسـول الله ﷺ

(١) بحار الأنوار ج٢٢، ص٩٦.

أن يعطيه قميصه ليكفن به، وخاطب النبي ﷺ قائلًا: (يا رسول الله، ليس بحين عتاب! هو الموت، فإن مت فاحضر غسلي وأعطني قميصك أكفن فيه. فأعطاه الأعلى، وكان عليه قميصان فقال: الذي يلي جلدك. فنزع قميصه الذي يلي جلده فأعطاه)[1]، غير أن قرب عبد الله بن أُبي من النبي لم يعد عليه بفائدة تذكر؛ لأنه كان عديم الصدق والإخلاص، إذ لا توجد نتيجة حتمية واحدة لمجرد معاصرة النبي، فقد أحصى المؤرخون أن من كانوا حول رسول الله ﷺ ورأوه وسمعوا حديثه، يزيد عددهم على مئة ألف من الرجال والنساء، جميعهم يطلق عليهم بالعنوان العام اسم الأصحاب أو الصحابة، فهل كانت استفادة هؤلاء من وجودهم قرب رسول الله ﷺ بمستوى واحد؟ وهل كانوا جميعًا بدرجة واحدة من الصدق والإخلاص؟

إن هناك إجماعاً لدى الأمة على أن أصل القرب من الرسول ﷺ يشكّل قيمة وفضيلة، حتى مع إقرار القرآن الكريم بوجود بعض المنافقين حول النبي ﷺ. وقد اتفق المسلمون على فضل ومكانة أهل بيت رسول الله ﷺ، ليس لأنهم ذرية النبي فحسب، ولكن لأنهم كانوا الأقرب منه ﷺ، فنهلوا واكتسبوا من علمه ﷺ، ولأنهم اخلصوا وصدقوا واستقاموا، لهذا وردت النصوص بفضلهم، وأمر رسول الله ﷺ بمحبتهم، كما فرض القرآن مودّتهم، يقول تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾ [سورة الشورى: الآية٢٣].

فضل الصحابة

كذلك الأمر بالنسبة لصحابة رسول الله وزوجاته ﷺ، فقد اتفق المسلمون على أن الأصل أن لهم فضل الصحبة، وأن لزوجات النبي حرمة باعتبارهن أمهات المؤمنين بنص القرآن الكريم ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾

(١) محمد بن عمر بن واقد. كتاب المغازي ج٣، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص١٠٥٧.

[سورة الأحزاب: الآية٦]، فصحبة رسول الله ﷺ فيها فضل على اختلاف بين المسلمين مداره الجدلية حول مطلق عدالة الصحابة، وهل أن كل واحد منهم عدل، وكلامه حجة يؤخذ به؟

الشيعة أتباع نهج أهل البيت لا يرون مطلق العدالة لجميع الصحابة، إنما يعتقدون بأن صحبة النبي الأكرم مشروطة بالصدق والإخلاص الاستقامة، وأن ذلك ما يفترض أن يكون الأصل في الصحابة إلا إذا ثبت العكس، عندها ينتفي ذلك الفضل، وتبعًا لذلك لا يكون كل صحابي عدلاً، ولا يعد كلام كل واحد منهم حجة.

على الطرف الآخر، يرى جمهور أهل السنة مطلق عدالة الصحابة بشكل عام.

الشيعة يعتقدون بأن أصل صحبة النبي الأكرم فيه فضل، وعليه لا صحة للاتهامات التي تطال شيعة أهل البيت من أنهم يقفون بالضد من الصحابة، وأنهم يبغضونهم ويسبونهم. ذلك لأن شيعة أهل البيت يقرؤون القرآن الكريم، ويقرؤون قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[سورة الفتح: الآية٢٩]، كما يقرأ الشيعة كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة وهو يمتدح جهاد وإخلاص من كانوا حول رسول الله ﷺ، فيقول في إحدى خطبه: (لَقَدْ رَأَيْتُ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَمَا أَرَى أَحَداً يُشْبِهُهُمْ مِنْكُمْ لَقَدْ كَانُوا يُصْبِحُونَ شُعْثاً غُبْراً وقَدْ بَاتُوا سُجَّداً وقِيَاماً يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جِبَاهِهِمْ وخُدُودِهِمْ ويَقِفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ)[1].

وفي السياق نفسه، ورد في الصحيفة السجادية في الدعاء الرابع من أدعية الإمام زين العابدين عليه السلام الذي خصصه للصلاة على أصحاب الرسل وأتباعهم، وخصّ بإحدى فقراته أصحاب رسول الله ﷺ بقوله: (اللَّهُمَّ وأَصْحَابُ مُحَمَّدٍ

(١) نهج البلاغة. خطبة ٩٧، تحقيق الدكتور صبحي الصالح، ص١٤٣.

خَاصَّـةً الَّذِيـنَ أَحْسَـنُوا الصَّحَابَةَ والَّذِيـنَ أَبْلَوُا الْبَلَاءَ الْحَسَـنَ فِي نَصْـرِهِ، وكَانَفُوهُ، وأَسْـرَعُوا إِلَـى وِفَادَتِهِ، وسَـابَقُوا إِلَى دَعْوَتِهِ، واسْـتَجَابُوا لَـهُ حَيْثُ أَسْـمَعَهُمْ حُجَّةَ رِسَـالَاتِهِ. وفَارَقُـوا الْأَزْوَاجَ والْأَوْلَادَ فِـي إِظْهَـارِ كَلِمَتِهِ، وقَاتَلُوا الْآبَـاءَ والْأَبْنَاءَ فِي تَثْبِيتِ نُبُوَّتِهِ، وانْتَصَرُوا بِهِ. ومَنْ كَانُوا مُنْطَوِينَ عَلَى مَحَبَّتِهِ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ فِي مَوَدَّتِهِ. والَّذِينَ هَجَرَتْهُمْ الْعَشَائِرُ إِذْ تَعَلَّقُوا بِعُرْوَتِهِ، وانْتَفَتْ مِنْهُمُ الْقَرَابَاتُ إِذْ سَكَنُوا فِـي ظِـلِّ قَرَابَتِـهِ)[1]. لذلك لا صحـة للمزاعم التـي يروجها البعض من أن الشـيعة يحترمون أربعة من الصحابة فقط.

حاكمية القيم

إن مجمـل الرؤية الشـيعية تجاه موضـوع الصحابة تتلخص فـي حاكمية القيم علـى الجميع، وعليها يقوم معيار الصواب والخطأ في أقوال وأفعال جميع الناس، سـواء كانـوا صحابة أو غيرهـم، فهم لا يـرون أن جميع الصحابة عـدول، وأن كل فـرد منهـم كلامه حجة، بل يقيسـون أعمـال كل واحد منهم بمعيار القيم. فالشـيعة ليسـوا ضـد الصحابة، بـل يحبونهم ويوقرونهـم، ويكفي أن نقـول أن من الصحابة من قاتل إلى جانب علي عليه السلام في حرب صفين، ومنهم أكثر من سبعين بدريًّا، وثمان مئـة من أصحاب بيعـة الرضوان، وأربعمائة من سـائر صحابة النبـي صلى الله عليه وآله. وجاء في مـروج الذهـب أن عـدد الصحابة الذين كانـوا في صف الإمام علـي عليه السلام في صفين ألفـان وثمان مئة صحابـي[2]، فيما لم يتجاوز عدد الصحابة الـذي كانوا مع معاوية بن أبي سـفيان أصابع اليد، فكيف يصح القول بأن الشـيعة لا يقبلون الصحابة، ولا يحبونهم، ولا يحترمونهم؟ هذا كلام ليس صحيحاً.

إن من إحدى المشـاكل التي ابتليت بها الأمة هي النظر إلى الشـخصيات وإلى

(١) صحيفة زين العابدين. دعاء رقم ٤ (دعاؤه فِي الصَّلَاةِ عَلَى أَتْبَاعِ الرُّسُلِ ومُصَدِّقِيهِمْ)، ص ٤٦.
(٢) علي بن الحسين بن علي المسعودي. مروج الذهب، ج٢، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ، (قم المقدسة: دار الهجرة)، ص٢٥٢.

العظمـاء من زاوية طائفية ضيقة. فهناك مـن لا زال يحجم عن الحديث عن فضائل أهل البيت عليهم السلام متوهمًا بأن مثل هذا الحديث هو انتصار للشـيعة، وفي المقابل هناك مـن يحجم عـن الحديث عن الصحابة لأن في ذلك انتصاراً لأهل السـنة من وجهة نظره. وينطبق الأمر ذاته على الدائرة الأوسـع، فمع إيمان المسلمين بجميع الأنبياء وعـدم التفريق بين أحد منهـم، إلا أننا نواجه النظرة الضيقة ذاتها، فلا تجد الاحتفاء بنبي الله عيسى عليه السلام أو نبي الله موسى عليه السلام بالقدر المطلوب، وكأن في الاحتفاء بهما محاباة لليهود والمسيحيين.

أخبرني أحد الباحثين في الرياض أنه طُلب منه إعداد برنامج إذاعي حول شباب الصحابـة ممن كانـوا حول النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأبـدى موافقته واختار البدء فـي أول حلقاته بالحديث عن شخصية الإمام الحسين عليه السلام، إلا أنه جوبه باعتراض مسؤول البرنامج، وعندما اسـتنكر الباحث رفض ذلك المسـؤول تناول شـخصية الإمام الحسين في البرنامج، أوضح المسـؤول بأن الحديث عن الحسـين قد يفسّـر بأنه استجابة لتأثير شـيعي!!، إن التفكير على هذا النحو مسـلك خطأ، وهو يعادل التصور الخطأ لدى بعض الشيعة من أن الحديث عن فضل الصحابة هو استجابة لتأثير سني.

□ خصائص الإمام علي

إذا كان القرب من رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُمثّل قيمةً وشـرفاً عظيماً، فعلينا أن نتساءل: من كان الأقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ لأنه من الطبيعي أن يكون الأوفر حظّاً، والأكثر نصيباً، من هذه القيمة والشـرف. وحين نتأمل، ونتصفّح تاريخ رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلن نجـد أحداً أقرب إلى رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم من علي بن أبي طالـب عليه السلام، فقد نال من ذلك مـا لا يوازيه فيه أحد من الصحابة. ونذكر هنا جملةً من الخصائص التي اختص بها الإمام علي عليه السلام دون سواه في مجال صحبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والقرب منه:

أولاً: عليٌّ نفس الرسول

يقول تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

وقد ورد عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه قال: «أكبر فضيلة لعلي في القرآن الكريم آية المباهلة»[1]، لأن الآية الكريمة تُنزل الإمام علي عليه السلام بمنزلة النفس من رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد ترجم ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله عملياً حين خرج لمباهلة نصارى نجران، ففي السيرة النبوية: أن رسول الله صلى الله عليه وآله أقبل إلى نصارى نجران ليباهلهم، وكان معه عليٌّ، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام، وذكر الآلوسي، وهو من علماء أهل السنة، في تفسيره (روح المعاني): «أن أسقف نجران لما رأى رسول صلى الله عليه وآله مقبلاً ومعه عليٌّ وفاطمة والحسنان عليهم السلام قال: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا تباهلوا وتهلكوا»[2]، وقال: «وفي القصة أوضح دليل على نبوته صلى الله عليه وآله وإلا لما امتنعوا عن مباهلته، ودلالتها على فضل آل رسول الله صلى الله عليه وآله مما لا يمتري فيها مؤمن»[3].

وقد اتفق المفسّرون أن ﴿أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ تعني: الحسن والحسين عليهما السلام، ﴿وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾ تعني: فاطمة الزهراء عليها السلام، ﴿وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ تعني: علي بن أبي طالب عليه السلام، فهو نفس رسول الله.

فإذا كان القرآن الكريم يصف عليًّا بأنه نفس رسول الله صلى الله عليه وآله، فمن الطبيعي أن تكون نفس الرجل أفضل من أصحابه، وجميع من حوله.

---

(١) بحار الأنوار. ج١٠٩، ص٤.

(٢) شهاب الدين السيد محمود الآلوسي. روح المعاني، ج٣، الطبعة الرابعة ١٩٨٥م، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ص١٨٨.

(٣) المصدر نفسه. ص١٨٩.

ثانياً: عليٌّ نشأ في حجر الرسول

من ناحيةٍ أخرى، فإننا إذا قرأنا التاريخ نرى عمق العلاقة التي تجمع بين رسول الله ﷺ والإمام علي عليه السلام. فالرسول ﷺ نشأ في بيت عمه أبي طالب عليه السلام، وبرعايته ورعاية فاطمة بنت أسد عليها السلام، وهما والدا الإمام علي عليه السلام. وشاءت حكمة الله تعالى، أنه بعد ولادة الإمام علي عليه السلام، يصبح الوضع الاقتصادي لأبي طالب وضعاً صعباً، فتحدّث رسول الله ﷺ مع عمّه العباس وقال له: يا عم، إن أبا طالب وضعه الاقتصادي ضعيف، فلو ذهبنا إليه لتأخذ أنت واحداً من أولاده، وآخذ أنا واحداً منهم، نكفيه مؤونتهما، فقال العباس: نعمت المشورة، فذهبا إلى أبي طالب وعرضا عليه الأمر، فقال أبو طالب: «دعو لي عقيلاً وخذوا من شئتما»[1]، لأن أبا طالب كان يُحبّ عقيلًا حبًّا مميزًا، ولذا روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحبّ عقيلًا حبّين: حبًّا له، وحبًّا لحبّ عمي أبي طالب إيّاه»[2]. فأخذ العباس جعفر بن أبي طالب، وأخذ رسول الله ﷺ علياً عليه السلام، وكان صغير السن، فتربى علي عليه السلام في حجر رسول الله ﷺ، وقد أشار لهذا الأمر في إحدى خطبه، يقول عليه السلام: «وقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ والْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ ويَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِهِ ويُمِسُّنِي جَسَدَهُ ويُشِمُّنِي عَرْفَهُ وكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيهِ ومَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ ولا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ»[3]، وورد عنه عليه السلام أنه قال: «استوهبني رسول الله ﷺ عن أبي في صبائي وكنت أكيله وشريبه ومؤنسه ومحدثه»[4]، وقال عليه السلام: «كنت في أيام رسول الله كجزءٍ من رسول الله»[5].

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني. مقاتل الطالبين، (بيروت: دار المعرفة)، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، ص٢٦.

(٢) علي بن برهان الدين الحلبي. السيرة الحلبية، ج١، (بيروت: دار المعرفة)، ص٤٣٢.

(٣) نهج البلاغة. خطبة ١٩٢، ص٣٠٠.

(٤) الشيخ الصدوق. الخصال، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ، (بيروت: دار المرتضى)، ص٥٧١.

(٥) ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغةج٢٠، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، (بيروت: دار الجيل)، ص٢٢٦.

ثالثاً: عليٌّ زوج البتول

وحينما بلغت فاطمة الزهراء عليها السلام مبالغ النساء، جاء كبار الصحابة لخطبتها، وينقل لنا التاريخ أن أبا بكر، وعمر بن الخطاب، وعدداً من الصحابة قد خطبوا الزهراء عليها السلام، ولكن رسول الله صلى الله عليه وآله اعتذر إليهم. وحينما أقبل الإمام علي عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله خاطباً الزهراء عليها السلام جاء الأمر الإلهي لرسول الله صلى الله عليه وآله: «زوج النور من النور، قال: من ممن؟ فقال: فاطمة من علي،»[1]، وهذه من الخصائص الفريدة لعليٍّ عليه السلام.

رابعاً: عليٌّ أخو الرسول

وينقل لنا التاريخ مفصّلاً عمق العلاقة التي جمعت بين رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام، فحين جاء صلى الله عليه وآله إلى المدينة آخى بين أصحابه، من المهاجرين والأنصار، فقال عليٌّ عليه السلام: يا رسول الله إنك قد آخيت بين أصحابك فمن يكون أخي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أما ترضى يا علي أن أكون أخاك؟ فقال علي: بلى، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنت أخي في الدنيا والآخرة»[2]، وهذه ميزةٌ أخرى تُضاف لمناقب علي بن أبي طالب عليه السلام.

وقد استمرت العلاقة الوثيقة بين رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام إلى آخر لحظة من حياة الرسول الكريم، يقول الإمام علي عليه السلام يقول: «ولَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي ولَقَدْ سَالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي فَأَمْرَرْتُهَا عَلَى وَجْهِي ولَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ صلى الله عليه وآله والْمَلائِكَةُ أَعْوَانِي...، فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيّاً ومَيِّتاً»[3].

خصائص الإمام

فهل هناك أحدٌ أولى برسول الله وأقرب إليه من الإمام علي؟! الذي تميّزت

(١) بحار الأنوار. ج٤٣، ص١١١.

(٢) محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري. المستدرك على الصحيحين ج٣، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص١٦ ، حديث٤٢٨٩.

(٣) نهج البلاغة، خطبة ١٩٧، ص٣١١.

علاقته بحيث لم يحظَ بمثلها أحدٌ من ذوي القربى ولا من الصحابة، فقد خصّ رسول الله ﷺ الإمام عليًّا عليه السلام بلقاءٍ خاص يومياً، وقد ذكر النسائي هذا الأمر في كتابه عن خصائص الإمام علي عليه السلام، فنقل ما قاله الإمام علي عليه السلام في ذلك: «كان لي لرسول الله ﷺ مدخلان: مدخل بالليل ومدخل بالنهار»[١]، وقال عليه السلام: «كُنْتُ إِذَا سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَعْطَانِي وَإِذَا سَكَتُّ ابْتَدَأَنِي»[٢].

ولذا فإن عدداً من علماء المسلمين، من السنة والشيعة، كتبوا حول خصائص الإمام علي عليه السلام، ومنهم: المحدث النسائي، صاحب سنن النسائي، الذي ألّف كتاباً حول خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وكذلك الطبري له كتابٌ حول خصائصه، وغيرهما.

وقد سئلت عائشة عن أحب الناس إلى رسول الله، فقالت: فاطمة، قيل من الرجال، قالت: زوجها.[٣]

وبالعودة لحديث المباهلة، وهو الحديث الثابت والمتفق عليه، والذي لا يماري في صحته أحد، ورد في صحيح مسلم في باب فضائل علي بن أبي طالب عن سعد بن أبي وقاص أن معاوية بن أبي سفيان عاتبه بالقول : يا سعد، ما منعك أن تسب أبا التراب؟ فقال سعد: ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول الله ﷺ، فلن أسبه أبدًا، لو أن لي واحدة منهن كان خيراً لي من حمر النعم. الأولى حين خلفه رسول الله ﷺ في المدينة في بعض مغازيه ـ غزوة تبوك ـ فقال علي عليه السلام: تخلفني مع النساء والصبيان؟ فقال له ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا إنه لا نبوة بعدي»، والثانية في خيبر حينما قال ﷺ: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، فتطاولت أعناقنا، فدعا عليًّا فجاء وهو أرمد،

(١) أحمد بن شعيب النسائي. خصائص النسائي، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، ص٢٢٠ ، حديث ١١٧.

(٢) محمد بن عيسى بن سورة الترمذي. سنن الترمذي ج٤، الطبعة الأولى ١٤٠٢١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٤٧٦ ، حديث ٣٧٢٢.

(٣) المستدرك على الصحيحين. ج٣، ص١٥٨.

فبصق من فيه، فأصابت عينه، وأعطاه الراية، والثالثة لما نزلت قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ خرج رسول الله ﷺ ومعه علي وفاطمة والحسنان[١]، وقد صحح الحديث ابن تيمية في منهاج السنة بقوله: (أما أخذه عليًّا والحسن والحسين في المباهلة فحديث صحيح رواه مسلم)[٢].

فهذا الحديث الصحيح يثبت دون شك أن عليًّا عليه السلام هو الأقرب إلى رسول الله ﷺ وهو أكثر من استفاد من علمه وهديه وأخلاقه، ولذلك عدّه الرسول ﷺ كنفسه، ناهيك عن الأحاديث الكثيرة الأخرى، ومنها قوله ﷺ: (علي مني وأنا من علي)[٣]، وفي صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال له : (يا علي، أنا منك وأنت مني)[٤]، فعلاقة النبي بعلي كانت وثيقة وعلى مستوى من العمق بحيث لا تجاريها علاقة أخرى بين النبي وأي أحدٍ آخر.

□ عليٌّ حاجة العصر

حينما نتحدث عن علي بن أبي طالب عليه السلام، ونتمسك بولايته، ونكرر في دعائنا: اللهم ثبتنا على محبته وولايته؛ فهذا إنما يُعبّر عن التزامنا بمنهجه الذي نحتاج إليه في كلّ عصر، وخاصّةً في هذا العصر. فالإمام علي عليه السلام ليس مجرد شخصٍ في التاريخ، وليست المسألة مجرد إعجابٍ بشخصيته؛ وإنما لحاجة البشرية اليوم لفكره وهديه وسيرته، فذلك يمثل المطلب الأساس لتتجاوز البشرية ما تعيشه من

(١) صحيح مسلم، حديث رقم٣٢.
(٢) أحمد بن تيمية الحراني. منهاج السنة النبويةج٤، الطبعة الأولى ١٣٢٢هـ (مصر: المطبعة الكبرى الأميرية)، ص٣٤.
(٣) كنز العمال ج١١، ص٦٠٣.
(٤) محمد بن إسماعيل البخاري. صحيح البخاري ج٣، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٨٣ ، حديث٤٢٥١.

ظلام الجهل والاستبداد والتخلف.

فأهـمّ ما تحتاجه البشـرية اليوم، هو العدل الغائب عن هـذا العالم، وأهم خطرٍ تعاني منه البشرية هو الظلم والجور، وعلي بن أبي طالب عليه السلام سطّر في سيرته وحياته أروع نمـوذج للعـدل. وحين تحدث عنه الأديب المسـيحي جـورج جرداق وألف كتابـه عن سـيرته في خمسـة مجلـدات أطلق عليه عنـوان: الإمـام علي عليه السلام صوت العدالة الإنسانية.

وحيـن نتأمل فـي فكر الإمام علـي عليه السلام نجده يركـز على العدل، كما أن سـيرته قامـت على تشـييد العـدل، ومقاومة الظلم، يقـول الإمام علي عليه السلام: «العدل أسـاس بـه قوام العالـم»[١]، ويقـول عليه السلام: «العدل حيـاة»[٢]، ويقول عليه السلام: «بالعـدل تتضاعف البـركات»[٣]، ويقـول عليه السلام : «مـا عمرت البلاد بمثـل العدل»[٤]. فما أحوج البشـرية لهذا الفكر، وما أحوجها لهذه السيرة.

ومع الأسف، فإن سيرة الإمام علي عليه السلام غائبة عن البشرية اليوم، ولا شكّ أن أتباع علي عليه السلام مقصّرون في ذلك؛ لأنهم لم يكتشفوا حقيقة شخصيته عليه السلام، ولم يعرضوها للعالم في صورتها المشـرقة، فهو لا نظير له في تاريخ البشـرية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول عليه السلام: «وَ اللَّهِ لَأَنْ أَبِيتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ مُسَهَّداً أَوْ أُجَرَّ فِي الأَغْلالِ مُصَفَّداً أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ ورَسُـولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِماً لِبَعْضِ الْعِبَادِ وغَاصِباً لِشَـيْءٍ مِـنَ الْحُطَامِ»[٥] ويقول في مـورد آخر: «واللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ الأَقَالِيمَ السَّـبْعَةَ بِمَا تَحْتَ

(١) بحار الأنوار. ج٧٥ ، ص٨٣

(٢) عبدالواحد الآمدي التميمي. غرر الحكم ودرر الكلم، ج١، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٢٠، حكمة ٣٠٧.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم. ص٢٩١ ، حكمة ٣٣.

(٤) حسين النوري الطبرسي. مستدرك الوسائل ج١١، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)، ص٣٢٠.

(٥) نهج البلاغة. خطبة ٢٢٤ ، ص٣٤٦.

أَفْلاكِهَا عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهَ فِي نَمْلَةٍ أَسْلُبُهَا جُلْبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ»[١].

صوت العدالة

فهذا الرجل عاش للعدل، وخالف كل ما يخالف العدل، ولو كان في ذلك ذهاب أهمّ المكاسب الدنيوية، والمناصب السلطوية. فحينما آلت إليه الخلافة والحكم ساوى بين الناس في العطاء، فحذّره البعض من أن هذه المساواة قد تفقده الكثير من الأتباع والأعوان، فالشخصيات المرموقة إن لم يُميّزوا لا يقفون إلى جانبه، ولكن عليًّا عليه السلام رفض ذلك، وقال في جوابه لهؤلاء: «أَتَأْمُرُونِّي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيْهِ واللَّهِ لا أَطُورُ بِهِ مَا سَمَرَ سَمِيرٌ ومَا أَمَّ نَجْمٌ فِي السَّمَاءِ نَجْماً لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ فَكَيْفَ وإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ الله».

ولهذا عاش الناس في ظل علي بن أبي طالب عليه السلام وهم ينعمون بالعدل، والرفاهية، وقد خاطب الإمام علي عليه السلام أهل الكوفة أواخر حياته بقوله: «ما أصبح أحد في الكوفة إلا ناعماً، وإن أدناهم منزلة لمن يأكل من البر، ويسكن في الظل، ويشرب من ماء الفرات»[٢]؛ يأكل من البر: أي لديه ما يكفيه من الطعام، ويسكن في الظل: بمعنى أن عنده سكناً يأوي له.

وقد كان الإمام علي عليه السلام يتأوه ويتألم لاحتمال أن هناك جائعاً في مناطق بعيدة عن العاصمة، يقول عليه السلام: «ولَوْ شِئْتُ لاهْتَدَيْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مُصَفَّى هَذَا الْعَسَلِ ولُبَابِ هَذَا الْقَمْحِ ونَسَائِجِ هَذَا الْقَزِّ ولَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ ويَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الأَطْعِمَةِ ولَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوْ الْيَمَامَةِ مَنْ لا طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ ولا عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ أَوْ أَبِيتَ مِبْطَاناً وحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وأَكْبَادٌ حَرَّى»[٣].

فما أحوج البشرية إلى هذا النهج، وما أحوج المسلمين في بلدانهم إلى سيرة

(١) المصدر نفسه.
(٢) المستدرك على الصحيحين. ج٢، ص٤٤٥.
(٣) نهج البلاغة. كتاب ٤٥، ص٤١٧.

الإمـام علي عليه السلام، فالمسـلمون بمـا لديهم من ثروات وخيـرات إلا أنهم يعانون من حالات الفقر والحرمان، فأين تذهب أموال المسلمين؟

روح العزة والكرامة

مـن ناحية أخرى، فإن الأمة بحاجة إلى روح العـزة والكرامة، وخاصة في هذا العصر، حيث تكالبت وتضافرت قوى الشر والاستكبار على المسلمين، فما أحوج المسـلمين إلـى أن يمتلكـوا روح العـزة والكرامـة، روح الشـجاعة والبطولـة التي تجسدت في شخصية علي بن أبي طالب عليه السلام في كل المعارك التي خاضها، فحينما بـرز لـه عمرو بن عبـد ودّ، قيل له: يا علـي، إنه عمرو، فقال عليه السلام: «وأنـا علي بن أبي طالب». فما كان يخاف ولا يخشـى ولا يهاب، وكان يقول: «واللَّهِ لابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ»[1]. وكان يتأوّه حينما يرى حالات الخنوع والذل فـي المجتمـع من حوله. فقـد تحدث في أعقاب غارة شـنها جيـش معاوية بن أبي سـفيان على منطقة الأنبار، وقال عليه السلام: «وهَذَا أَخُو غَامِدٍ [وَ] قَـدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الأَنْبَارَ ...، ولَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ والأُخْرَى الْمُعَاهِدَةِ فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وقُلُبَهَا وَقَلائِدَهَا ورُعُثَهَا مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلا بِالاسْتِرْجَاعِ والاسْتِرْحَامِ ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا نَالَ رَجُلاً مِنْهُمْ كَلْمٌ ولا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً»[2].

الحرب على غزة

فكيـف بالإمـام لـو يرى مـا يحصل اليـوم في غزة بفلسـطين، ومـا يحصل من انتهـاكات واعتـداءات وحشـية صارخة، من قبل شـراذمة من الصهاينـة المعتدين، وعددهـم في العالم كله لا يزيد على اثنين وعشـرين مليوناً، بينما الأمة الإسـلامية

(١) نهج البلاغة. خطبة ٥، ص٥٢.
(٢) نهج البلاغة. خطبة ٢٧، ص٦٩.

تبلغ أكثر من مليار وربع المليار في هذا العالم، ولكنهم يقفون موقف الذل والخنوع أمام هذا الكيان الغاصب، الذي يضم ستة ملايين يهودياً في محيط عربي يضم أكثر من مئتين وخمسين مليوناً.

إسرائيل تمعن في اضطهاد أهل غزة بقصف المنازل، ومنع الإمدادات الطبية، والحصار الشامل، وكل ذلك على مرأى ومسمع من العالم، فلو أن علي بن أبي طالب عليه السلام يشهد هذا المشهد، وهو القائل: «فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً»، فماذا سيقول عن واقع العرب والمسلمين هذا اليوم؟!

إن المسلمين اليوم بحاجة إلى روح علي عليه السلام، وإلى شجاعته وبطولته؛ كي تستعيد الأمة كرامتها واعتبارها، وهذا لا يتحقق عبر المفاوضات، حيث جرب العرب هذا الطريق الفاشل؛ لأن الصهاينة مردوا على العدوان، وعلى العنف والإرهاب، فلا يمكن للأمة أن تستعيد عزّتها إلا بروح المقاومة، وبمواقف الثبات والصمود.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يفيض على إخوتنا في غزة روح الصمود والثبات.

وحينما نحتفي بشهادة أبي عبد الله الحسين عليه السلام، إنما من أجل أن نستمد من موقف أبي عبد الله عليه السلام روح الكرامة والعزة، حيث كان شعاره الذي أطلقه يوم عاشوراء: «هيهات منا الذلة يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[1].

(١) بحار الأنوار. ج٧٤، ص١٦٢.

صناعة الإحسان

- ☐ الإحسان شريعة أخلاقية
- ☐ مجالات الإحسان وآلياته
- ☐ ثقافة الإحسان وتنميته

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٩٥].

□ الإحسان شريعة أخلاقية

الإحسان لغة: من الحُسْن، وهو ضد القبح، والإساءة. واصطلاحاً: يقصد به أحد معنيين:

الأول: بمعنى الإتقان، أي إتقان الشيء، وأحسنت الشيء يعني أتقنته، وأديته متقناً على خير وجه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [سورة التغابن، الآية:٣]، يعني جعل صوركم متقنة، ومنه قول رسول الله ﷺ: «إذا صليت فأحسن ركوعك وسجودك»[1] أي أتقن ركوعك وسجودك.

الثاني: بمعنى فعل الخير للغير، أو فعل ما ينفع الغير، بأن تعمل عملاً ينفع الآخرين، وهذا يطلق عليه إحسان.

وباعتبار أن الإنسان يُحب ذاته، فمن الطبيعي أن يفعل ما ينفع نفسه وما يخدم ذاته. أما أن يعمل الإنسان عملاً ينفع الآخرين، فهذا يعتبر درجة متقدمة، واستجابة للفطرة النقية؛ لأن الفطرة الإنسانية تدفع الإنسان لكي يخدم وينفع الآخرين.

دوافع الإحسان

١. **الدافع الديني**: قد يندفع الإنسان نحو خدمة الآخرين بدافع ديني، فهو يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر، ويؤمن بالقيم الإنسانية السامية، ويخدم الآخرين

(١) بحار الأنوار. ج٦٨، ص٢٤٧.

استجابة لإيمانه، لأن الله تعالى يرضيه خدمة عباده، ويقابلها بأعظم الأجر والثواب، حيث ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خصلتان ليس فوقهما من البر شيء: الإيمان بالله والنفع لعباد الله»[1].

٢. **الفطرة والمشاعر الإنسانية**: وقد يندفع الإنسان لخدمة الآخرين بسبب حسّه الإنساني، وفطرته السليمة.

٣. **الوعي الاجتماعي**: وقد يندفع الإنسان للإحسان استجابة لوعيه الاجتماعي؛ لأنه يدرك أن خدمته للآخرين تعود عليه بالخير، وبالمكسب، من خلال قوة مجتمعه الذي هو جزء منه، ومن خلال ما يعود عليه من مكاسب شخصية عبر خدمته للآخرين.

فضل الإحسان

تحدث القرآن الكريم في آيات كثيرة عن الإحسان ومشتقات هذه الكلمة، إضافةً إلى الأمر بالإحسان والإشادة بالمحسنين بمختلف الاشتقاقات، فيما يزيد على مئتي آية قرآنية، وبالتالي فإن هذا المفهوم (الإحسان) هو من أكثر المفاهيم الأخلاقية وروداً في القرآن الكريم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [سورة النحل، الآية: ٩٠]، وهذا أمرٌ صريح من الله سبحانه لك أيها الإنسان بأن تكون محسناً للآخرين ونافعاً لهم. وفي آياتٍ كثيرة جاء الحديث حول فضل الإحسان، ومكانة المحسنين، ويكفي من ذلك أن الله تعالى خصهم واعتبرهم من أهل محبته، كما هو صريح الآية الكريمة: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وآيات أخرى تتحدث عن أن الله تعالى يرافق بعنايته من يحسن إلى الناس: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وذلك يعني أن عناية الله ترافقك إذا كنت تحسن إلى الناس، وفي آية أخرى يشير الله سبحانه وتعالى إلى أن

(١) بحار الأنوار. ج٧٤، ص١٣٧.

رحمته ولطفه قريب من المحسنين: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، ومما لا شك فيه أن الإنسان في حاجة إلى رحمة الله في الدنيا والآخرة، وهذه الآية تؤكد أن الطريق الأقرب إلى رحمة الله تعالى يكمن في الإحسان. وفي آية أخرى يُقدّم الله تعالى البشارة للمحسنين، فيقول جلّ شأنه: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ولا يقتصر الفضل على الإحسان للبشر فقط، بل يتعداه للإحسان لسائر المخلوقات، ففي الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ: «أن امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر. قد ادلع لسانه من العطش فنزعت له بموقها فغفر لها»[١]؛ لأنها أحسنت، ورحمت كلباً يلهث من العطش والظمأ، فكيف لو أحسن الإنسان إلى أخيه الإنسان.

وجاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة»[٢] ويشرح هذا الحديث الإمام جعفر الصادق ﷺ بقوله: «أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة يقال لهم: إن ذنوبكم قد غفرت لكم فهبوا حسناتكم لمن شئتم»[٣].

ومعنى ذلك أن ما لديكم من رصيد من الحسنات التي لا تحتاجون إليها وزعوها على الآخرين المحتاجين، فالمحسنون إلى الناس في الدنيا يعطيهم الله تعالى كذلك فرصة تقديم الإحسان للآخرين يوم القيامة؛ لأن هؤلاء المحسنين لديهم ما يكفيهم من الحسنات ليدخلوا الجنة بسلام آمنين. أضف إلى ذلك، أن الإحسان ونفع الآخرين يحفظ الإنسان من المكاره، وكم من الروايات والنصوص الكثيرة الواردة بشأن حفظ وسلامة الإنسان العامل بالمعروف، والمحسن للآخرين، فصنائع المعروف تقي ميتة السوء كما ورد في الرواية عن علي ﷺ:

(١) صحيح مسلم، ص١٢٣٣ حديث٢٢٤٤.

(٢) محمد بن الحسن الحر العاملي. وسائل الشيعة ج١٦، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)، ص٢٨٨.

(٣) محمد بن يعقوب الكليني. الكافي ج٤، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، (بيروت: دار الأضواء)، ص٢٩.

(وصنائع المعروف فإنها تدفع ميتة السوء)[١].

إن صنع المعروف للناس والإحسان للآخرين، يجلب المحبة ويجذب قلوب الناس لصاحب الإحسان، فمن أحسن إلى الناس فإنه يستقطب عواطفهم ومشاعرهم ويجذب قلوبهم.

وكما قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

إن الإحسان شريعة أخلاقية، وكل إنسان مهما كان دينه، ومهما كان توجهه، فإن فطرته السليمة تدفعه إلى الإحسان وعمل الخير ونفع الآخرين. وقد تناولت آيات القرآن الكريم والنصوص الشريفة جملة من آثار الإحسان ونتائجه، ومنها:

أولًا: العطاء الإلهي الكبير، ومن ذلك:

- محبة الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، تكرر في خمس آيات ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- عناية الله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- القرب من رحمة الله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.
- البشارة من الله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾.
- الضمان من الله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ تكررت في أكثر من مورد، ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾.
- الثواب في الآخرة: عن علي عليه السلام قال: «زاد المعاد الإحسان إلى العباد».

ثانيًا: جذب القلوب: وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»، وبالإحسان تملك القلوب، يقول

(١) وسائل الشيعة. ج١٦، ص٢٨٩.

علي عليه السلام: «من كثر إحسانه أحبه إخوانه»، «من كثر إحسانه زاد خدمه وأعوانه»[١].

ثالثًا: الأثر الاجتماعي، فالإحسان للناس يودي بطبيعة الحال إلى المزيد من التماسك المجتمعي، وصناعة القوة الاجتماعية، وقد عبرت الآية الكريمة عن هذا المفهوم في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، وكذلك في الآية الكريمة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾.

فدوافع الإحسان لدى الناس تنطلق غالبًا من ثلاثة منطلقات، هي: الفطرة السليمة إلى جانب الإيمان بالله تعالى، والإدراك والوعي الاجتماعي. كما خص الله تعالى المحسنين بجملة خواص، منها: راحة النفس، وسعادة القلب، والوعد بالعطاء الإلهي في الآخرة، ومحبة الناس وانجذاب القلوب نحوهم، إلى جانب ما يتحقق للمجتمعات التي يكثر فيها الإحسان من القوة والمنعة والتماسك.

□ مجالات الإحسان وآلياته

الكلمة الطيبة والرأي النافع

إن أول مجال من مجالات الإحسان وآلياته هي الكلمة الطيبة والرأي النافع، وذلك بخلاف ما قد يتبادر إلى الأذهان غالباً حول ارتباط الإحسان بالإنفاق المالي، ومساعدة المحتاجين والمعوزين تحديدًا، مع أن الإنفاق يشكل بالفعل أحد مجالات الإحسان، لكنه ليس الوحيد.

إن بذل الكلمة الطيبة للناس، المتمثلة في إبداء التقدير والاحترام، وفي تقديم التجربة الشخصية، والخبرة العامة، والرأي النافع، يشكل أحد مجالات الإحسان الضرورية التي تحتاجها مجتمعاتنا. فكثير من الناس في مجتمعاتنا يعانون من ضعف الخبرة والتجربة في إدارة الحياة، فهم يواجهون مصاعب في ترتيب أمور حياتهم،

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة ٩٦٠.

وحل مشاكلهم على اختلافها، وهذا ضعف ملحوظ، خاصة مع التطورات الكبيرة التي طرأت على المجتمع، إن متطلبات الحياة أخذت في التشعب والتعقيد، وسط انعدام الخبرة والتجربة لدى أكثر الناس، في مقابل تنامي حاجاتهم الحياتية. من هنا كان تمرير التجارب الشخصية الناجحة في أوساط الناس، وتقديم الخبرة والرأي النافع أحد مجالات الإحسان، وهذا ما عبرت عنه الشريعة بالكلمة الطيبة، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[سورة إبراهيم، الآية:٢٤]، وورد في الحديث عن رسول الله ﷺأنه قال: «الدال على الخير كفاعله»[١]، وجاء في حديث آخر عنه ﷺ: (الكلمة الطيبة صدقة)[٢].

وتتراوح مجالات تقديم الخبرة من إرشاد الطلبة المتخرجين في الثانوية لاختيار الكليات المناسبة لهم، إلى المساعدة في توفير فرص العمل، وتقديم الاستشارة للشباب في مجال تأسيس المشاريع والأعمال الحرة، وصولًا إلى مساعدة أبناء المجتمع في مجال إنشاء الشركات والمشاريع الكبرى.

فهناك آلاف الطلاب من خريجي الثانوية كل عام يواجهون خيارات محيّرة في اختيار تخصصاتهم الجامعية المناسبة لسوق العمل. إن تقديم النصح والإرشاد لهؤلاء هو شكل من أشكال الإحسان وآلية من آلياته.

وكثير من الشبان ليست لديهم معرفة بالفرص الوظيفية المتاحة أمامهم، وهم بذلك أحوج ما يكونون إلى من ينصحهم و يرشدهم ويقدم لهم الخبرة، ولهذا كان إنشاء لجان التأهيل الوظيفي في الجمعيات الخيرية استجابة لهذه الحاجة، فهو مجال من مجالات الإحسان، غير أننا بحاجة في السياق ذاته إلى أن نعطي لأبنائنا وشبابنا خبرة وتجربة في اقتحام مجال الأعمال الحرة، وأن نرشدهم باتجاه إدارة المشاريع الناجحة، وتأسيس المؤسسات والشركات الانتاجية. لا بدّ من القول هنا

(١) كنز العمال. ج٦ ص٣٥٩ حديث ١٦٠٥٢.
(٢) وسائل الشيعة. ج٥، ص٢٣٣.

بـأن الوظيفة ليسـت هي الخيار الوحيد، بل ليسـت هي الخيـار الأفضل، فالأعمال الحـرة أفضل بكثير من الحصول على وظيفة. إن كثيراً من أبنائنا وبناتنا لا يمتلكون الخبـرة اللازمـة فـي هذا المجـال، ولذلك هم بحاجة ماسـة إلى دعم وإلى إرشـاد ومساعدة.

وضمن مجال تقديم الخبرة الطوعية نشير هنا إلى إنشاء فرع ما يعرف بصندوق المئوية في محافظة القطيف، والمنوط به منح القروض المالية للشباب الراغب في إنشـاء المشـاريع التجارية، والأهمّ من ذلك هو تولي هذا الصنـدوق تقديم الخبرة والاستشـارات التطوعية للشـباب. إن صندوق المئوية فـي كل أنحاء البلاد يحتاج إلى متطوعين من رجـال الأعمال الناجحين، لتقديم خبراتهم في مجالات التجارة والصناعـة وإطلاق المشـاريع من خلال اللقاء المباشـر بالشـباب، هذا عمل مهم، وهو شكل من أشكال الإحسان.

الأعمال الحرة خيار أفضل

وتحضرنـي فـي هذا السـياق تجربـة طيبة لمجموعة مـن الشـيعة المقيمين في أوروبـا وبعض بـلاد أفريقيا، والمعروفين بالخوجة، هـذه المجموعة تعود أصولها لشـبه القـارة الهندية قبل أن تنتشـر حول العالم، من المعـروف بأن هؤلاء الخوجة أغلبهـم من التجار ورجال الأعمال، ويروون سـرّ تجربتهـم الناجحة التي تتمحور فـي تربيتهـم لأولادهم منـذ الصغر على نبذ العمـل الوظيفي، والتوجـه عوضًا عن ذلك صوب التجارة والأعمال الحرة، وهم يعمدون في هذا المجال نحو مسـاعدة بعضهم البعض في تأسيس الأعمال التجارية الكبيرة في مختلف المناطق، ولذلك تجدهم باسـتمرار من أبرز التجار والأثرياء أينما تواجدوا، وقلما تجد بينهم من هو فقيـر محتاج؛ ذلك لأنهـم يتوارثون الخبرة والتجربة، ومسـاعدة بعضهم على نحو دائم.

وعلـى ذات المنـوال يمكن النظـر إلى تجربة اليهـود كمثال آخـر، فاليهود في

مختلـف أنحاء العالـم تحولوا من مجتمـع منبوذ ضعيف إلى مجتمـع قوي، نتيجة اهتمامهـم بالتجارة والاقتصاد والعمل الحـر. فقد درج اليهود على تبادل الخبرات فيما بينهم، فكل رجل أعمال منهم يشـعر أن من مسـؤوليته أن يسـاعد أبناء جماعته على أن يصبحوا تجارًا، وأصحاب مؤسسـات، ورجـال أعمال ناجحين. إن تقديم الخبرات مجال مهم من مجالات الإحسان نحن في أمسّ الحاجة إليه.

الاستشارات العائلية

وينسـحب الإحسـان بالكلمة الطيبة كذلـك على المجـال الاجتماعي، فهناك الكثير من المشاكل العائلية القائمة في المجتمع، التي لا تحتاج في كثير من الأحيان لأكثر من كلمة طيبة يتقدم بها بعض المصلحين لذات البين. فالكلمة الطيبة مفتاح لمعالجة الكثير من المشاكل، من هنا نحتاج إلى أناس يتفرغون إلى تأسيس وإنتاج ثقافة التماسك والانسـجام العائلي واحتواء المشاكل الأسرية. وهنا نشيد بانطلاق تجربـة الهاتـف الاستشـاري القائمـة في بعـض الجمعيـات الخيرية، التـي تحتاج إليهـا كل منطقة من مناطقنـا، فمهمة هؤلاء الاستشـاريين المتطوعين تقديم العون والاستشـارة للأسـر التي تعصف بها الخلافات العائلية، سواء بين الزوج وزوجته، أو بين الأولاد وأبويهم، فلا يتطلب الأمر سوى مكالمة هاتفية لطلب المساعدة في حل المشـكلة، لا شـك بأن هذا شـكل من أشكال الإحسان عبر المشـاركة بالرأي والكلمة الطيبة.

ترشيد الممارسات الشبابية

إن الكلمـة الطيبـة والـرأي النافـع يلعبـان دورًا محوريًـا في احتـواء ومواجهة التصرفـات الخاطئـة مـن قبـل بعض أبنـاء المجتمـع. وقد قـرأت في هـذا الصدد عـن تجربـة أوردتها مجلة (ديستسناسـيون سـانتيه) الفرنسـية، أجريـت في جامعة كاليفورنيا وغرضها مساعدة المدخنين على التوقف عن هذه الممارسة، من خلال تقديم المسـاعدة المباشـرة من متخصصين عبر الهاتف. وقاد هذه التجربة الدكتور

(شـو انـغ زو) من جامعـة كاليفورنيـا، الذي نجح مـع فريقه المؤلف من عشـرات التلاميـذ فـي معالجة ٣٣٠٠ مدخـن، فقد كان هـؤلاء الطلبة يتصلـون بالمدخنين يوميًّـا، ويحادثونهم عن مخاطر وأضرار التدخين، وتأثيره السـلبي والمباشـر على سـلامة أعضاء بدنهم. وتورد المجلة أنه بعد مرور شـهر واحـد على التجربة، أقلع نحو ثلث هؤلاء المدخنين عن عادتهم، وامتنع عن التدخين بعد أشـهر قليلة ٩٦ ٪ من المشاركين في هذه التجربة، وقال بعضهم عن الدعم الذي قدمه لهم تلامذة شو بأنه كان مهماً كثيراً وكمعالجة نفسـية[١]، فهؤلاء الطلبة اسـتطاعوا عبر الاتصالات والحديث الهاتفي مع المدخنين أن يسهموا في حل مشكلة لدى هؤلاء الناس.

كما نذكر في هذا السـياق تجربة تأسـيس اللجان المحلية لمسـاعدة المدمنين علـى المخدرات فـي التعافي والإقلاع عن هذه العادة المدمـرة. وتتركز مهمة هذه اللجان على معالجة وتوجيه المتورطين في بلاء المخدرات. إن من الأصح أن نطلق علـى المدمنين عنـوان المرضى؛ ذلك لأن النظرة للمدمن باعتباره مجرمًا يسـتحق العقوبـة والردع باتت من الماضي، فقد تغيّرت النظرة للمدمنين اليوم حيث صنفوا باعتبارهم مرضى يستحقون العلاج والمساعدة في تجاوز هذه الحالة المأسوية. إن «مجموعة زمالة المدمنين المتعافين» في المنطقة تعتمد في برامجها على الاتصال واللقاء المباشـر بين الأعضاء المتعافين من مشكلة الإدمان بالمتورطين في تعاطي المخـدرات، لنقـل تجربتهم في تخطي معضلة الإدمـان، وإقناعهم من ثم بالتخلي عـن تعاطي المخدرات، وقد تمكن أعضاء اللجنة فـي منطقتنا من التأثير على عدد من المتورطين في مشكلة الإدمان وإنقاذهم من هذا المرض.

من هنا، فالإحسـان قد يكون بالكلمة الطيبـة، وبالرأي النافع. فهناك الكثير من المرضى الذين ربما لا يعرفون كيفية الوصول لسبل العلاج، وآخرون لديهم مشاكل

(١) جريدة الحياة. صحيفة يومية تصدر من لندن، العدد ١٤٤٦٤ بتاريخ ٢٠ شعبان ١٤٢٣هـ الموافق ٢٦ أكتوبر ٢٠٠٢م.

مختلفة، قد تكون قابلة للحل بقليل من الجهد، من قبيل التورط في الديون المالية، أو التوقيف لأي سبب آخر، ولا يعرفون سبل الخروج من هذا المأزق، فهؤلاء بأمسّ الحاجة إلى من يرشدهم ويعينهم، ولذا تبرز الحاجة إلى قيام مؤسسات استشارية، مهمتها تقديم الحلول والاستشارات المجانية للناس، فللرأي قيمة كبيرة، وهو مجال مهم من مجالات الإحسان.

ثانياً: بذل المال

بذل المال والعطاء من أهم تجليات الإحسان، وفي مجتمعنا نشعر بالحاجة إلى تنمية حالة البذل والعطاء، إذ إن واقع مجتمعات أخرى في هذا الجانب أفضل مما هو عليه واقع مجتمعنا. وقد يقول قائل: إن مجتمعنا تنقصه رؤوس الأموال الكبيرة، إلا أن هذا الكلام ليس دقيقاً، فمجتمعنا فيه خيرٌ كثير، إضافةً إلى أن البذل والعطاء مطلوبٌ من الجميع وليس من الأثرياء فقط، فالله تعالى في كتابه الحكيم يُشجّع الإنسان على الإنفاق والبذل مما آتاه الله تعالى من فضله، يقول تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [سورة النور، الآية:٣٣]، كما أن الله تعالى وعد بأن يُعوّض على الإنسان ما أنفقه، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾[سورة سبأ، الآية: ٣٩]، وورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما نقص مال من صدقة قط فأعطوا ولا تجبنوا»(١)، وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه ينزل ملك كل ليلة في الثلث الأخير ينادي: «اللهم أعط كل منفقٍ خلفاً وأعط كل ممسك تلفاً»(٢).

لقد آن الأوان لأن يلتفت الأثرياء لحاجات مجتمعهم من خلال إطلاق المشاريع الاقتصادية التي تخدم الناس، عوضًا عن الاكتفاء بإعطاء الصدقات الصغيرة هنا وهناك. المجتمع في حاجة ماسة إلى من ينفق في مجال إسكان

(١) محمد بن علي بن بابويه القمي (الشيخ الصدوق). من لا يحضره الفقيه ج٤، الطبعة الأولى١٤٢٧هـ، (بيروت: دار المرتضى)، ص٣٨١.

(٢) بحار الأنوار. ج٧٤، ص١٦٤

الفقـراء والمحتاجيـن، ودعـم البعثـات الدراسـية للطلبـة المحتاجيـن، وتزويـج العزاب، وتأسـيس المستوصفات والمستشـفيات لخدمة المجتمع، إن جميع ذلك من مجالات الخير والإحسان.

ثالثاً: السعي العملي

ومـن تجليات الإحسـان السـعي علـى نحـو عملي في مسـاعدة النـاس لحل مشـاكلهم، وتذليل العقبات أمامهم. فهناك الكثير من الناس ممن يواجهون مشاكل المـرض أو السـجن وما أشـبه ذلك، لكـن تعوزهـم الحيلة ويحتاجـون لمن يقف بجانبهم، ويدلّهم ويأخذ بأيديهم، ويتحرك لمسـاعدتهم، هذا سعي عملي مطلوب فـي خدمة الناس، وهو مجال من مجالات الإحسـان وآلياتـه، وفي ذلك أجرٌ كبير، وفضل عظيم عند الله تعالى، فعن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: «من سعى في حاجة أخيه المسـلم، فاجتهـد فيها، فأجـرى الله على يديه قضاءها كتب اللـه عزّ وجلّ له حجة وعمرة، واعتكاف شـهرين في المسـجد الحـرام وصيامهمـا، وإن اجتهد ولم يجر الله قضاءها على يديه، كتب الله عزّ وجلّ له حجة وعمرة»[1]. فالسـعي العملي في حوائج المؤمنين بحد ذاته من الإحسان ويستحق عليه الإنسان الأجر والثواب.

فحريٌّ بنا جميعاً أن نُعزّز في أنفسنا هذه التجلّيات، لنكون من المحسنين الذين يُحبّهم الله تعالى، ويكتب لهم من فضله عظيم الأجر والثواب.

☐ ثقافة الإحسان وتنميته

إن واحـدة من أبرز نقـاط الضعف في أي مجتمع هي قلة عدد المحسـنين فيه، وهـذا مـا يتطلب معالجة خاصة نأتي عليها. فلا يكاد يخلو مجتمع من المجتمعات من المحسـنين، لكن تكمن المشكلة الحقيقية في قلة عدد هؤلاء المحسنين، وبقاء هذه الممارسة ضمن إطارها الفردي ودائرتها المحدودة. إن الوضع الأمثل في أي

(١) وسائل الشيعة، ج١٦، ص٣٦٩، حديث ٢١٧٨٧.

مجتمع هو أن يصبح الإحسان وأعداد المحسنين حالة ظاهرة سائدة في المجتمع، لا مجرد حالات فردية تعدّ على الأصابع، ينبغي أن تكون هناك حالة إحسان في المجتمع بأنواعه ومجالاته المختلفة. فكيف نصنع مثل هذه الحالة وننميها في مجتمعنا؟ هناك عدة أمور ينبغي الالتفات لها لتحقيق هذا التطلع النبيل:

أولاً: التربية على الإحسان

إن أولى لبنات صناعة الإحسان في أي مجتمع هي تربية الأبناء على الإحسان. فالأب ينبغي أن يربي أبناءه على الإحسان منذ نعومة أظفارهم، وقد رأينا كيف يمارس بعض الآباء هذا النوع من التربية، فهم حينما يعطون أبناءهم نفقتهم أو ما يعرف بالمصروف اليومي، يضعون عليه مبلغًا رمزيًا يحثون الابن على التصدق به للفقراء والمساكين، وبهذا ينشأ الابن وقد تربى على فعل الإحسان في حقّ الغير، فكم هو رائع أن تربي العائلة أبناءها على مساعدة المحتاجين والتبرع للصناديق الخيرية المخصصة لمساعدة الفقراء، ذلك حتى يتربى الولد على هذه الحالة، فيكون مسلكًا أساسيًّا يسير فيه طوال حياته، في دراسته وعمله وعلاقاته الاجتماعية، فالتربية عامل أساس ومهم في تشجيع الأبناء على العطاء والإحسان وخدمة الآخرين .

ثانياً: نشر ثقافة الإحسان

وثاني لبنات صناعة الإحسان في مجتمعاتنا: نشر ثقافة الإحسان في الأوساط العامة. جنبًا إلى جنب مع ثقافة حث الناس على العبادات من الصلاة والصيام والحج. فالمطلوب ألا يقتصر خطابنا الديني على حث الناس على جانب العبادات فحسب، بل الواجب أيضًا حثهم على عمل الخير، وقضاء الحوائج، وتفريج الكرب، والوقوف إلى جانب المضطرين والمحتاجين. إن نشر ثقافة الإحسان يجب ألا تغيب عن مجالسنا ومحاضراتنا وكتاباتنا ووسائل إعلامنا، فهذا أمر في غاية الأهمية.

ثالثاً: مأسسة الإحسان

ينبغي أن يتحول عملنا الخيري والاجتماعي إلى عمل مؤسسي منظم في كل مجال من المجالات. المطلوب منا مأسسة الإحسان، عبر تحويله من العمل الفردي المحدود، إلى حال المؤسسة القائمة في كل مجال من المجالات. فكل حاجة من حاجات المجتمع، ينبغي أن ترعاها مؤسسة قائمة بذاتها، تتولى سدّ الفراغ في ذلك الجانب.

وقد أصبح هذا الأمر بحكم البديهيات في المجتمعات الأخرى، فمنظمات المجتمع المدني باتت تغطي كل مجالات الحياة في الكثير من المجتمعات المتقدمة، بدءاً من حماية البيئة، ولجان أصدقاء المرضى، ولا تنتهي عند منظمات رعاية الحيوانات. بل ينسحب الأمر في مجالات العمل التطوعي إلى رعاية الطلبة الأجانب في تعلم اللغات المحلية، فهناك في بعض الجامعات الغربية متطوعون لمساعدة الطلبة الأجانب في تعلم اللغة الإنجليزية على نحو منظم، ففي بعض الجامعات قوائم بأسماء المتطوعين من أبناء البلد المستعدين لصرف الوقت في مساعدة الطلبة المستجدين على تعلم اللغة الإنجليزية، عبر المحادثة المباشرة. وقد أخبرني أحد طلابنا في أستراليا أن متطوعًا من الأستراليين خصص له ساعات محددة يصرفها معه في سبيل أن يتعلم منه اللغة الإنجليزية، فقد فرّغ ذلك المواطن الأسترالي نفسه لعدة أسابيع لمساعدة هذا الطالب الغريب على تعلم اللغة، هذا نوع من الإحسان. من هنا كان من اللازم أن تنشأ لدينا مؤسسات تطوعية في مختلف المجالات.

ان مما يؤسف عليه تكرر شكوى مختلف المؤسسات من ضعف التفاعل الاجتماعي معها، فالجمعيات الخيرية تشكو من ضعف التفاعل مع أنشطتها، والأندية الرياضية تشكو من ضعف الإقبال عليها، وصناديق الزواج ومراكز الأسرة تشكو الأمر ذاته. هنا لا يمكن إنكار تفاعل بعض الخيرين مع مختلف الأنشطة

الاجتماعيـة، إلا أنه لا يزال محدوداً ودون مستوى الحاجـة والتطلع. ولذلك تبرز الحاجة لنشر ثقافة الإحسان ومأسسة عمل الإحسان والبذل في خدمة الآخرين.

رابعاً: تشجيع الإحسان

إن أحـد أهـم جوانـب تعزيز ظاهرة الإحسـان فـي المجتمع، يكمن في شـكر المحسـنين، وتقدير دورهم من قبل المجتمع، إن تقدم ظاهرة الإحسان مرهون في جانب منه بتقدير حالة الإحسـان وشكر المحسـنين، بينما المجتمع الذي يتجاهل محسـنيه، ولا يقـدر العامليـن والسـاعين بالمعـروف تنخفض وتتضـاءل فيه حالة الإحسان.

من هنا نجد النصوص الدينية تشجعنا على شكر المحسن، فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «لا يشـكر الله من لا يشـكر الناس»[1]، وأبعد من ذلك، يحثنا ربنا سبحانه وتعالى حتى عند ردّ التحية البسـيطة بأن نرد بأحسـن منها ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَـنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[سورة النساء، الآية:٨٦]. فالواجب علينا أن نشكر المحسنين وأن نقـدّر دورهم، فهذا أمر مطلوب ومهم للغاية، وقد ورد عن الإمام زين العابدين عليه السلام فصـل في رسـالة الحقوق بعنوان حق ذي المعروف عليك، جـاء فيه «وَأَمّا حَقُّ ذِي المَعْرُوفِ عَلَيكَ فَأَنْ تَشْـكُرَهُ وتَذْكُرَ مَعْرُوفَهُ وتَنْشُـرَ لَهُ الْمَقَالَةَ الْحَسَنَةَ، وَتُخلِصَ لَهُ الدُّعَاءَ فِيمَا بَينَكَ وبَيْنَ اللَّهِ سُـبْحَانَهُ»[2]، فحق الإنسـان المحسـن على المجتمع أن يشكره ويذكر إحسانه، وهذه روحية يفتقدها بعض الناس على المستوى الشخصي مع شديد الأسف، فهؤلاء لم يتربوا على شكر المعروف.

قـرأت قبـل أيام في إحـدى الصحف مقالة لأحـد الكتاب ذكر فيهـا كيف تغير سـلوك ابنه الصغير بمجـرد عودته للبلاد من بعثته الدراسـية، يقـول الكاتب عندما

(١) أبو داؤود سليمان بن الأشعث السجستاني. سنن أبي داؤود ج٢، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ، (جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية، بيروت: مؤسسة الريان)، ص٦٧١، حديث ٤٨١١.

(٢) بحار الأنوار، ج٧١، ص٧.

كنت في الخارج مع عائلتي، تربى ابني الصغير على شكرنا أنا ووالدته على أي عمل نقدمه له مهما كان صغيرًا، ونحن نقابله بذات التصرف أيضًا، فنحن نشكره على أي عمل يقوم به تجاهنا مهما صغر، ويضيف الكاتب أنه تفاجأ بعد عودته للبلاد بشهر، بأن ابنه كفّ عن مقابلة والديه بالشكر كما درج على ذلك سابقًا، وذلك حين أعطاه هدية فلم ينطق بكلمة شكرًا، فلما سأله عن سبب إحجامه عن تقديم الشكر مقابل الهدية التي تلقاها، قال الولد: الناس هنا لا يقولون شكرا، فهذا الولد لم يعتد على سماع كلمة الشكر في بلاده بخلاف ما كان عليه أيام بقائه في الخارج.

إن تقديم الشكر للمحسنين على المستوى الفردي أو المجتمعي أمر واجب، إذ ينبغي لنا ردّ الإحسان لمن أحسن إلينا. المؤسف في الأمر أن بعض المجتمعات لديها حالة من الجفاء والجفاف، فمن السهل أن تجد أحدهم يأتيك لحاجة فيُظهر لك الاحترام والتقدير حينها، ومتى ما انتهت حاجته، فكأنه لم يعرفك، ولم يرك، وقد لا يسلم عليك. نحن في الوقت الذي نؤمن فيه بضرورة أن يكون الإحسان خالصًا لوجه الله تعالى، كما قال الله تعالى عن أولئك المخلصين الصادقين من أهل البيت ﷺ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ [سورة الإنسان، الآية: ٩]، لكن الإنسان، أي إنسان يبقى بشرًا يتأثر بالتشجيع، ويطرب للثناء، فلماذا لا نشجع المحسنين عبر شكرهم والدعاء لهم بالخير والأجر والثواب. وذلك بخلاف تصرف بعض الناس الذين يجتهد الآخرون في معالجة مشاكلهم، فيصرفون أوقاتهم، ويبذلون ماء وجوههم لغرض المساعدة، فإذا ما انتهت مشكلتهم يبخلون حتى بنسبة المعروف لأهله، ويستنكفون عن شكر من ساعدهم، إن هذا نكران للمعروف.

المطلوب أن يشجع الناس بعضهم بعضًا على عمل المعروف وشكر الإحسان، والدعاء لمن يحسن إلينا فيما بيننا وبين الله. ولو ضربنا مثلًا ببعض المتطوعين

الذيـن يعملون فـي الجمعيـات الخيرية جزاهم اللـه خيرًا، فالكثيـر منهم موظفون ولديهم عوائل ومسؤوليات وأعمال، لكنهم مع ذلك يصرفون أوقاتهم الخاصة في العمل كمتطوعين في هذه الجمعيات، لكنهم كثيرًا ما يقابلون بالنكران، وفوق ذلك تطالهم الاتهامات بدلًا من أن يشكرهم المجتمع.

النقد البنّاء

نشير هنا إلى أن بعض الانتقادات العنيفة التي تطال هؤلاء قد تكون نتيجة أخطاء معينـة، ولا يوجد أحد معصوم من الخطأ، لكن مقابلة هذه الأخطاء ينبغي أن تكون على نحو بنّاء، وليس بالتشهير والإسقاط، فالمجتمع الذي يشهر برجالاته، ويسقط العاملين للخير فيه، لا يمكن أن يتقدم، وقد تنحسر في هذا المجتمع حالة الاهتمام بالعمل التطوعي، والانخراط في الشأن العام، ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قـد كافأتمـوه»[1]، أقلّ الواجب أن نسـتمر في الدعاء لصاحـب المعروف المرة تلو الأخرى حتى نتأكد من أننا أدينا الواجب اللازم علينا اتجاهه.

فـي هـذا الإطار لا بـدّ وأن نقـدر عاليًا بروز مؤسسـات اجتماعيـة تعنى بتقدير العامليـن والناشـطين فـي الحقل العـام ومنها لجنـة التكريم الأهلية فـي القطيف، وقـد كان لهـا مبادرات طيبـة لتكريم شـخصيات المجتمـع، والعامليـن للخير من أجل المجتمع، كما نشـيد بتأسـيس لجنة جائـزة القطيف للإنجـاز المهتمة بتكريم المبدعيـن مـن الشـباب في مختلـف مجـالات العلـوم والأدب والفنـون والعلوم الإدارية والاقتصادية، هذا عمل حضاري ينبغي أن يشكر القائمون عليه.

نحن نحتاج إلى ثقافة تشـجيع الإحسـان وتنمية الإحسـان، فالمحسـن نفسـه يكسـب قبـل أن يكسـب الآخـرون، ولذلك يقـول تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَـنْتُمْ أَحْسَـنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾[سورة الإسراء، الآية:٧] فالإحسان ينعكس عليك أنت، فأحسن كما أحسن

(١) سنن أبي داؤود ج٢، ص٣٧٧، حديث ١٦٦٩.

اللـه إليـك، واعلـم أن ما عندك من خير مـن الله، فابذل للناس يعطيـك الله المزيد من الخير ، قال تعالى: ﴿وَسَـنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾[سورة البقرة، الآية:٥٨]، إن من يحسن إلى الناس هو أول من يشعر بالراحة النفسية ، ففي الإحسان لذة لا يشعر بها إلا من وفق إليها، فإذا وفق إنسـان لتفريج كربة إنسـان آخر، تغمره راحة نفسـية، ولذة روحية لا تعادلها أية لذة، علاوة على اكتساب حب الناس.

ولنا في سيرة الإمام الحسين عليه السلام مثل أعلى، فقد كانت داره في المدينة المنورة مقصـداً للفقـراء والمحتاجين، ولذا فإن خروج الحسـين عليه السلام إلى مكة المكرّمة كان كالصاعقـة علـى النـاس فـي المدينـة، إذ ليس هنـاك من يسـدّ الفراغ الـذي يُحدثه الحسين عليه السلام بخروجه.

وفي مكة المكرّمة كانت دار الحسين، أيضاً، مقصداً للمحتاجين، وكان الحجاج مسرورين بوجود الحسين عليه السلام إذ إنهم سيحجون بحجه وفي ظلّ بركة وجوده معهم، إلا أنهم يتفاجؤون بخطاب الحسـين عليه السلام في اليوم السـابع من ذي الحجة، إذ أعلن عزمه على الخروج من مكة تاركاً صدمةً لم تكن في حساب أيّ أحدٍ من الحجيج، فكان مما قال عليه السلام: «الحمد لله ما شـاء اللـه ولا حول ولا قوة إلا بالله، خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخيّر لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويـس وكربلاء، فيملأن مني أجربة سـغباً، وأكراشـاً جوفـاً، لا محيص عن يوم خـط بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت، نصبر علـى بلائه فيوفينا أجور الصابرين، ألا مـن كان باذلاً فينـا مهجته، موطناً على لقاء الله نفسـه، فليرحل معنا فإني راحل مصبحاً إن شاء الله»[1].

(١) بحار الأنوار ج ٤٤ ص٣٦٦.

تجربة في البناء والتغيير: الإمام الصدر نموذجاً

- ☐ القراءة الواعية لتجارب الآخرين
- ☐ الحالة الشيعية في لبنان
- ☐ دور الإمام موسى الصدر

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: الآية٤٦]

□ القراءة الواعية لتجارب الآخرين

إن أبرز ميزة ميّز الله بها الإنسان على سائر الكائنات أن أعطاه القدرة على اختزان ومراكمة التجارب والاستفادة منها، الأمر الذي ساهم في تطور البشرية على نحو كبير وعلى مختلف المجالات. فالإنسان يبني على تجارب من سبقه، ويستفيد من خبرات الآخرين.

ولو أن كل إنسان جاء إلى هذه الحياة وبدأ ممارسة الحياة من الصفر، لما اتسعت حياته لفعل أشياء تذكر؛ لأن مجالات الحياة واسعة متعددة وأكثر من أن تحصى، وأصعب من أن تستوعب خلال فترة زمنية قصيرة من حياة الإنسان.

فالإنسان يستفيد من تجارب من سبقه، ويتلقى هذه التجارب عن طريق التربية، وعن طريق البيئة والتعليم، ثم يبني عليها جيلًا بعد جيل.

فما وصلت إليه البشرية في مجال علم الطب على سبيل المثال، إنما هو حصيلة لتجارب قرون وأجيال من أبناء البشر، وهكذا في مختلف مجالات الحياة، فتراكم التجارب وحده هو ما أوصل الإنسان إلى هذا المستوى المتقدم، وإلا فإن كل إنسان يأتي إلى هذه الحياة فهو بمفرده لا يعلم شيئاً، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ

مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة النحل: الآية ٧٨].

لقد أعطى الله أبناء البشر وسائل التعلم، وجعل قيمة كل إنسان ومستواه مرهوناً بقدرته على الاستفادة من علوم وتجارب سابقيه، سواء كان ذلك على المستوى الفردي أو المجتمعي. فالمجتمع الذي يستفيد من تجارب المجتمعات الأخرى سيتقدم، بينما الذين لا يستفيدون من خبرات وتجارب الآخرين مصيرهم التأخر والتخلف.

من هنا جاء الأمر في القرآن الكريم للناس بأن ينظروا في تجارب الأمم ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾[سورة الحج: الآية٤٦]، إن هذه دعوة للإنسان لأن يتجاوز المحيط المحدود الذي يعيش فيه؛ لأن العالم لا يتلخص في هذا المحيط الضيق.

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تدعو الإنسان إلى السير في الأرض حتى يرى حياة الأمم والشعوب الأخرى، فينظر كيف كانت حياتهم وأوضاعهم فيستفيد من تجاربهم. وينطوي التأكيد القرآني على حقيقة مفادها أن لحياة المجتمعات أنظمتها وقوانينها، تمامًا كما للقضايا المادية معادلاتها، فليس من قبيل الصدفة المحضة أن تجد مجتمعاتٍ تحقق أقصى درجات التقدم، فيما تنغمس مجتمعات أخرى في حضيض التخلف، فالتقدم له قوانينه والتخلف له أسبابه. من هنا تأتي أهمية دراسة المعادلات والأسباب التي تنتج مجتمعًا متقدمًا وآخر متخلفًا، يقول تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[سورة الأحزاب:الآية٦٢]، وفي آية أخرى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[سورة فاطر: الآية٤٣].

إن على الإنسان أن يقرأ تجارب الآخرين، دون اشتراط التوافق الفكري المسبق بينه وبين من يقرأ تجاربهم. فالمنطق العقلي يحثنا على الاستفادة من تجارب جميع الأمم بما فيها تلك التي تختلف معنا في الدين أو الفكر، وقد ورد عن رسول الله ﷺ

أنه قال: «اطلبوا العلم ولو بالصين»[١]، وورد عنه ﷺ «الحكمة ضالة المؤمن فحيثما وجدها فهو أحق بها»[٢]، فالاستفادة من تجارب الأمم والمجتمعات الأخرى أمر مطلوب.

ويقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «العاقل من وعظته التجارب»[٣]، وروي عنه عليه السلام أيضًا: «في التجارب علم مستأنف»[٤]، و: «حفظ التجارب رأس العقل»[٥]، و: «كفى بالتجارب مؤدباً»[٦]، كما أشار الإمام علي عليه السلام إلى تجربته في الاستفادة من تجارب الغير في كلمته التي يقول فيها: «إِنِّي وإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ وفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ وسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ ونَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ»[٧].

الاستفادة الواعية

وبالرغم من كثرة النصوص الدينية التي تدعو الإنسان للاستفادة والنظر في تجارب الآخرين، إلا أن ذلك لا يعني التقليد الأعمى أو الاستنساخ الكامل. حيث إن لكل مجتمع آلياته الخاصة، ولكل بيئة ظروفها، وعليه قد لا يكون ممكناً أو صالحاً استنساخ تجربة حدثت في بيئة معينة عبر نقل كل تفاصيلها إلى بيئة أخرى تختلف عنها، فالأوضاع في العراق مثلًا تختلف عنها في إيران، كما يختلف الوضع في هذه الأخيرة عنها في لبنان، وذلك تبعًا لظروف وبيئة كل بلد. وكما أن من الخطأ

(١) كنز العمال. ج١٠، ص١٣٨، حديث ٢٨٦٩٧.
(٢) بحار الأنوار. ج٢، ص٩٩.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم. ج١، ص٥٧، حكمة ١٢٣٣.
(٤) بحار الأنوار. ج٩٨، ص٣٤٢.
(٥) غرر الحكم ودرر الكلم. ج١، ص٣٤٤، حكمة ٤٩.
(٦) غرر الحكم ودرر الكلم. ج٢، ص٩٥، حكمة ٧٠.
(٧) نهج البلاغة. كتاب ٣١.

الاستنساخ الساذج للتجارب، فكذلك من الخطأ جعل بعض الفروق البسيطة مبرراً لعدم التفاعل مع تجارب الآخرين. ذلك لأن هناك من يتذرع بالفروق الجزئية بين مجتمع وآخر، ويجعل ذلك مبرراً لعدم الاستفادة من التجارب الناجحة. المطلوب هو الاستفادة من جوهر ومضمون تجارب الآخرين، وليس محاكاتها في الجزئيات والهوامش الجانبية.

فما أحوج مجتمعاتنا الإسلامية إلى الاستفادة من تجارب الأمم الرائدة في تقدمها العلمي والتكنولوجي، واستقرارها الاجتماعي والسياسي. كما ينطبق الأمر ذاته على ضرورة استفادة المجتمعات الإسلامية نفسها من بعضها البعض، على غرار التجربة التنموية المتقدمة للشعب الماليزي؛ فلماذا لا نقرأ تجربة هذا الشعب ونستفيد منها؟.

□ الحالة الشيعية في لبنان

شكل الانبعاث الكبير للطائفة الشيعية في لبنان تجربة متقدمة ومتطورة، لفتت الأنظار إقليمياً ودولياً، ونالت الإعجاب والتقدير، وهي بذلك تستحق الدراسة والاستفادة منها. فالشيعة في لبنان لهم تاريخ عريق وضارب الجذور، يرجعه بعض المؤرخين إلى منتصف القرن الأول للهجرة. وعادة ما يطرح تساؤل دارج عند الحديث عن الشيعة في لبنان، يتمحور حول ظروف دخول التشيع إلى لبنان ومنطقة بلاد الشام، بالنظر إلى خضوع تلك المنطقة إلى ظروف لا تخدم انتشار التشيع. فالشام منذ أن فتحها المسلمون وانتقلت ولايتها إلى معاوية بن أبي سفيان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، تحولت إلى بيئة أموية خالصة لا تساعد على انتشار التشيع، فكيف انتقل التشيع إلى الشام ومنه إلى لبنان؟.

هناك قول مشهور يرى أن التشيع انتقل إلى لبنان وبلاد الشام عبر الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضوان الله عليه، هذا الصحابي الجليل الذي كان رابع أو

خامس من أسلم من الصحابة، والذي قال في حقه رسول الله ﷺ تلك الشهادات العظيمة، فقال ﷺ: «ما أقلت الخضراء ولا أظلت الغبراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر»[١]، وقال عنه ﷺ حينما رآه يمشي وحده في تبوك: «يا أبا ذر، رحمك الله، تعيش وحدك وتموت وحدك وتحشر يوم القيامة أمة وحدك وتدخل الجنة وحدك»[٢]، هذا الرجل الصادق الشجاع كان في المدينة المنورة في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فلاحظ أن هناك ممارسات غير منسجمة مع تعاليم الإسلام، فيما يرتبط بالتصرف في أموال المسلمين، وفي تولية بعض المتنفذين القريبين عائليًّا من الخليفة، فصار يجهر باعتراضه على تلك الممارسات، فأمر الخليفة عثمان بإخراجه من المدينة، ونفاه إلى الشام على عهد معاوية بن أبي سفيان. وتروي كتب السير أن معاوية حاول استمالة أبي ذر عبر إغداق المال عليه، ظنًّا منه أن أبا ذر يمكن أن يتأثر بهذا الأمر، فأرسل معاوية إلى أبي ذر بصرّة من الدنانير مع غلام له، وقال: اذهب بها إلى أبي ذر، فإن قبلها منك فأنت حرٌّ لوجه الله، فرفضها أبو ذر، فحاول الغلام أن يستعطفه، «يا أبا ذر خذها ففي ذلك عتقي»، فأجابه أبو ذر: «ولكن فيها رقي»[٣].

هناك في الشام أيضًا أبدى أبو ذر اعتراضه على جملة ممارسات منحرفة لمعاوية خصوصًا على الصعيد المالي، فكان يقرأ الآية الكريمة: ﴿والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فلفت أنظار الناس هناك، فانزعج معاوية فكتب إلى الخليفة عثمان «إن كان لك بالشام حاجة أو بأهله فابعث إلى أبي ذر فإنه قد أوغر قلوب الناس»[٤] فنفي رضوان الله عليه إلى الربذة

(١) المستدرك على الصحيحين. ج٣ ص٣٨٧ حديث٥٤٦٧.
(٢) بحار الأنوار. ج٢٢ ص٤٢٩.
(٣) الشيخ البهائي. الكشكول، ج١، الطبعة الأولى١٤٢٧هـ، (قم المقدسة: المطبعة الحيدرية)، ص٢٠٨.
(٤) الإمام شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. سير أعلام النبلاء، الطبعة الحادية عشرة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦ م، (بيروت: مؤسسة الرسالة). ج٢ ص٦٩.

حتى توفي غريباً فيها سنة ٣٢هـ.

بداية التشيع في الشام

وبناءً عليه ابتنت مقولة أن بذرة التشيع في الشام زرعها أبو ذر حين تواجد في قرى وبلدات غرب الشام، المعروفة بجبل عامل في لبنان. وجاء في أمل الآمل: «لما خرج أبو ذر إلى الشام بقي أياماً فتشيع جماعة كثيرة، ثم أخرجه معاوية إلى القرى فوقع في جبل عامل فتشيعوا من ذلك اليوم»[1]، لكن أحد الباحثين المعاصرين أثبت أن هذا المبرر وهذا التفسير ليس دقيقًا، وهو العلامة الشيخ جعفر المهاجر في دراسة تضمنت بحثاً علمياً موثقاً تحت عنوان (التأسيس لتاريخ الشيعة في لبنان وسوريا) أثبت فيه أن انتشار التشيع في لبنان وفي بلاد الشام لم يكن عن طريق أبي ذر الغفاري، واستند في هذا الرأي إلى قصر المدة التي مكثها أبو ذر في لبنان، مستبعداً أن تكون تلك المدة كافية لانتشار التشيع. واجتهد العلامة المهاجر في مقابل ذلك في جمع الأدلة والشواهد على أن علة انتشار التشيع وبدايته في لبنان وسوريا، كان بسبب زحف قبيلة همدان اليمنية إلى بلاد الشام، وقد كانت هذه القبيلة من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كما هو معروف، فقد أسلمت هذه القبيلة على يد علي عليه السلام وأقام بينهم سنتين، فحفظت القبيلة وغيرها من القبائل اليمنية ولاءها لأهل البيت، من هنا نسب للإمام علي قوله فيهم:

ولو كنت باباً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقد كان من الهمدانيين في الكوفة إبان عهد علي عليه السلام حشد غفير، حيث كان في الكوفة تجمع عساكر المسلمين، وقدر باحثون عدد الهمدانيين الذين كانوا متواجدين في الكوفة، آنذاك بين أربعين إلى خمسين ألف شخص، وبعد مقتل الإمام علي عليه السلام ضاقت بهم الأمور في الكوفة فانزاحوا إلى مختلف المناطق فرادى

(١) محمد الحسن الحر العاملي. أمل الآمل. ج١، (النجف الأشرف: مكتبة الأندلس، تحقيق السيد أحمد الحسيني)، ص١٣.

وجماعـات، فانتقـل عدد كبيـر منهم إلى بلاد الشـام، في حمـص وطرابلس، وإلى مناطـق مختلفة، فأقامـوا هناك، وأثروا فـي محيطهم الاجتماعـي الجديد مع مرور الزمن، فكانت بداية التشيع في لبنان.

كانت أغلب مناطق لبنان حواضر شـيعية. فطرابلس مثلاً كانت حاضرة شـيعية كبرى، حتى أسقطها الصليبيون سنة ٥٠٢هـ ـ ١١٠٩م، وجبال كسروان أيضاً كانت كذلك حتى القرن الثامن الهجري، وقد كانت أكثرية سـكان لبنان من الشـيعة، لولا الضغـوط الهائلة التي تعرضوا لها أيام العثمانيين، وأيام الاسـتعمار الفرنسـي على حد سـواء. فقد أفتى بعض رجال الدين المتشـددين أيام العثمانيين، ومنهم الشـيخ نوح الحنفي ، بإباحة دماء الشيعة، حتى إن قسمًا كبيرًا من الشيعة تواروا عن الأنظار واختفوا، وغيّر الكثير منهم مذهبهم. ولذلك يذكر في هذا السياق أن عوائل مسيحية في لبنان تعود في أصولها إلى الشيعة، مثل عائلة جوزيف الهاشم، الأديب اللبناني المعروف، فهو مسـيحي من أصول شـيعية، وقد تحولت عائلته إلى المسيحية على غـرار الكثير من العوائل نتيجة الضغوط الدينية والسياسـية التي فرضتها السـلطات آنذاك.

الانبعاث الشيعي

ومع ذلك، لا يزال الشـيعة في لبنان يشـكلون غالبية السـكان بالقياس إلى بقية الطوائف. فمع نسـبتها التي تبلغ نحو ٤٠٪ من الشعب اللبناني تعد الطائفة الشيعية فـي لبنان اليوم أكبـر الطوائف تعدادًا. وللشـيعة في هذا البلد تاريـخ علمي وثقافي عريـق، فقد كان كبار علماء الشـيعة مـن لبنان، من أمثال صاحب اللمعة الدمشـقية الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي ، الذي استشهد سنة ٧٨٦هـ، وكذلك الشهيد الثاني صاحب الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية، وهو كتاب لا يزال يدرس في الحوزات العلمية، وقد استشـهد سـنة ٩٦٦هـ، ومن أبرز علماء الشيعة في لبنان أيضًا الحر العاملي صاحب وسـائل الشـيعة المتوفى سـنة ١١٠٤هـ والشيخ البهائي

المتوفي سنة ١٠٣٠هـ.

لقد حفل تاريخ الشيعة في لبنان بنشاط علمي وفكري وثقافي على امتداد الزمن، حتى قال الحر العاملي في كتابه المشهور أمل الآمل في تراجم علماء جبل عامل: «إن علماء الشيعة في جبل عامل يبلغون نحو الخمس من علماء الشيعة في جميع الأقطار مع أن بلادهم أقل من عشر العشر ـ أي جزء من مائة جزء من البلدان ـ»[١]. وينقل في هذا السياق حول حياة الشهيد الثاني أنه في إحدى قرى جبل عامل، شارك في تشييع جنازة واحدة سبعون مجتهداً، فضلاً عن بقية العلماء والطلبة والأدباء[٢]. فتاريخ الشيعة هناك حافل بالعلم والفكر والنشاط.

ويعدّ الانبعاث الشيعي في لبنان في العصر الراهن أبرز ظهور للشيعة في العالم العربي. وقد عزز من ذلك ظهور المقاومة الإسلامية، والنصر الذي تحقق على يديها على العدوان والاحتلال الإسرائيلي، الأمر الذي جعل الشيعة في لبنان وجهاً بارزاً للتشيع في العالم، ولهذا ينبغي دراسة حالتهم وقراءة تجربتهم.

لا شك أن تجربة الشيعة في لبنان تجربة متقدمة متطورة، نالت الإعجاب والتقدير، فتوجهت نحو دراستها مراكز الأبحاث والدراسات في الغرب والشرق. ولكن يبقى السؤال المحوري القائم هنا؛ كيف أصبح وضع الشيعة في لبنان بهذا المستوى الذي هم عليه الآن؟ ولعلّ مبرر التساؤل هو أن أكثر الناس لا يلتفتون إلى الشجرة إلا في مرحلة إثمارها، لكنهم غالبًا ما يتناسون ظروف غرس ورعاية هذه الشجرة على مدى فترة طويلة، وهو الجانب الأهمّ في دراسة التجارب.

إن قراءة التجارب تتطلب عودة إلى الجذور وتاريخ التأسيس، ودراسة العقبات التي صاحبت النشأة، لا مجرد الاكتفاء بالنظر إلى التجربة في لحظتها الراهنة، وقد وصلت إلى مرحلة الإثمار والإنتاج، فالوقائع القائمة اليوم تفرض نفسها، وتتناولها

(١) أمل الآمل. ج١، ص١٥.
(٢) أمل الآمل. ج١، ص١٣.

وسائل الإعلام يوميًّا، بينما يغيب الحديث عن خلفيات التأسيس.

□ دور الإمام موسى الصدر

عند الحديث عن الانبعاث الشيعي الجديد في لبنان، لا أحد يماري في أن هذا الانبعاث إنما تبلور على يد الإمام السيد موسى الصدر، المغيب في ليبيا منذ سنة ١٩٧٨، فهو باعث هذه الحالة الجديدة في لبنان.

ينحدر الإمام الصدر من أسرة علمية عريقة، أسرة آل الصدر في العراق، فكان أبوه السيد صدر الدين الصدر يدرس في النجف الأشرف، ومنها هاجر إلى إيران، وبقي في مدينة قم، فكان من مؤسسي الحوزة العلمية إلى جانب مؤسسها الأول الشيخ عبد الكريم الحائري، عاش الصدر الأب في قم، وتزوج سيدة من مدينة مشهد، وقد ولد السيد موسى الصدر في قم سنة ١٩٢٨م وهو ابن عم الشهيد السيد محمد باقر الصدر المتزوج من أخت السيد موسى الصدر.

ولد السيد موسى في قم، وعاش فيها، ودرس هناك الدراسة الأكاديمية، ثم التحق بالحوزة العلمية سنة ١٩٤١م لعشر سنوات، قبل أن يلتحق بجامعة طهران سنة ١٩٥٠م، فكان أول عمامة تدخل جامعة طهران، درس في قسم الحقوق الاقتصادية، وتحصل على البكالوريوس سنة ١٩٥٣، وتعلم اللغتين الإنكليزية والفرنسية، إلى جانب إتقانه الفارسية والعربية، ويعتبر أول شخصية دينية شيعية في العالم العربي يكون لها نشاط سياسي، فبرز سياسيًا وثقافيًا واجتماعيًا، من هنا يستحق أن تقرأ تجربته وأن تدرس سيرته.

درس الإمام الصدر في الحوزة العلمية ما تعرف بدروس السطوح والمقدمات والسطوح العالية، ومن تلامذته الشيخ هاشمي رفسنجاني رئيس مجلس تشخيص مصلحة النظام، والمرجع الديني الشيخ يوسف الصانعي، وحضر الصدر بعض أبحاث الخارج في حوزة قم، ثم انتقل إلى النجف الأشرف، وبقي فيها أربع

سنوات، حضر على مراجعها كالسيد محسن الحكيم، والسيد أبو القاسم الخوئي، والشيخ حسين الحلي، والسيد محمود الشاهرودي، وكانت له مباحثات مع السيد محمد باقر الصدر في الفقه والأصول والفلسفة، ثم عاد بعدها إلى قم سنة ١٩٥٨م، وكان له دور في تأسيس بواكير النشاط الإسلامي الحديث في إيران، فقد فكر هو وبعض العلماء في إصدار مجلة فكرية، وكان إنشاء مجلة فكرية في الحوزة في تلك المرحلة مهمة شاقة، وغير مرحب بها، لكن السيد موسى الصدر غامر وتحمل الصعوبات والاتهامات، وأصدر أول مجلة في حوزة قم تحت اسم (مكتب إسلام) باللغة الفارسية، كما أنشأ مدرسة أهلية ابتدائية، فكانت أول مدرسة أهلية تنشأ في قم بالتعاون مع الشهيد الدكتور بهشتي الذي أصبح لاحقًا أول رئيس لمجلس الشورى الإسلامي بعد قيام الثورة.

وقد حطّ السيد موسى الصدر رحاله في لبنان لأول مرة سنة ١٩٥٩م بعد رحيل السيد عبدالحسين شرف الدين المرجع الديني في لبنان، وهو من نفس أسرة آل الصدر. فقد طُلب من السيد موسى الصدر الذي كان في عقده الثالث آنذاك أن يأتي إلى لبنان ليحل محل السيد عبد الحسين شرف الدين، وقد قال في حقه السيد جعفر شرف الدين «لقد رحل عنكم السيد عبد الحسين شرف الدين وهو يحمل على أكتافه سبعة وثمانين عاماً وعاد إليكم الآن وهو في الحادية والثلاثين من العمر».

مارس الإمام الصدر منذ بواكير تواجده في لبنان أدوارًا سياسية وثقافية واجتماعية غير مسبوقة على مستوى علماء الدين في تلك المرحلة. ومن تلك الأدوار:

أولاً: التصدي للشأن العام

إن أول ما لفت نظر الإمام الصدر إبان قدومه إلى لبنان هو المستوى المعيشي المتدني للشيعة هناك، لدرجة لم يكونوا يحملون معها بطاقات هوية تحفظ لهم

أبسط حقوق المواطنة. لقد كان السكان الشيعة مهضومي الحقوق على كافة المستويات، بدءًا من التهميش السياسي التام ـ ومن كان من الشيعة ذا حظوة سياسية فلم يكن يتجاوز في ذلك مصالحه الخاصة والضيقة ـ وصولًا إلى الفقر والمرض الذي يعشش في مناطقهم، وأبرز مناطقهم ما عرف بـ (حزام البؤس) حول بيروت، الذي ضمّ السكان النازحين نتيجة العدوان الإسرائيلي المتكرر على قراهم في الجنوب اللبناني. ولعلّ آثار الإهمال التنموي للمناطق الشيعية في تلك المرحلة لا تزال ماثلة حتى اليوم في مناطق البقاع وجنوب لبنان.

إزاء هذا الوضع السيئ الذي يعيشه الشيعة في لبنان، مارس الإمام الصدر منذ بواكير تواجده أدوارًا غير مسبوقة على مستوى علماء الدين في تلك المرحلة، فقد كان اهتمام العلماء آنذاك منحصرًا في الجانب الديني فقط، بعيدًا عن أي اهتمام بالوضع السياسي والاقتصادي والتعليمي، فتصدى السيد الصدر لهذا الأمر، وبدأ في تجاوز التفكير المنحصر في المسائل الدينية إلى النهوض الحضاري بالطائفة الشيعية في لبنان.

لقد شكلت خطابات ومحاضرات السيد الصدر انعطافة ثقافية كبرى على المستوى الحياتي للناس. وكان يرى أنه بدوره هذا يسدّ الفراغ الذي تركه انشغال العلماء بالأمور الدينية والعقائدية الخاصة. علمًا بأنه لم تكن تنقصه الكفاءة الدينية، فقد كان عالمًا فقيهًا مجتهدًا، ويقول بعض أقرانه أنه لو بقي في النجف لبضع سنوات أخرى لأصبح من كبار المراجع، كما ينقل عن المرجع الراحل السيد الخوئي ، أنه أسف كثيراً لخروج السيد موسى الصدر من النجف، وكان يرى ضرورة بقاء الصدر في النجف ليصبح أحد المراجع في المستقبل. غير أن الإمام الصدر آثر أن يرعى مشروعه النهضوي الجديد التي كانت أولى لبناته بث الوعي الثقافي والحياتي في أوساط الناس.

رأى الصدر أن من أهم أسباب ضعف الشيعة في لبنان فقرهم الاقتصادي،

فشـدد على ضرورة تقوية أنفسـهم اقتصاديًا. فأحدث على هذا الصعيد نقلة أخرى لا تقـل أهميـة عن سـابقتها، عبـر تأسـيس الكليـة المهنية بجبـل عامل، مسـتهدفًا تخريـج الكفـاءات المهنية في مختلـف مجالات العمل. وكان يشـجع الناس على العمل والتجارة، كما أسـس معهدًا للتمريض لتخريج الممرضات، وأنشـأ مؤسسة لتعليـم حياكـة السـجاد، وهكذا كان لـه دور كبير في دفـع الناس للتجـارة والعمل والتصنيع والفاعلية.

كما أولى السيد الصدر اهتمامًا كبيرًا بالوضع الاجتماعي للشيعة، فقام بتأسيس نادٍ للشباب، ومركز طبي، ودار للمعوقين والعجزة. كما أسس (هيئة نصرة الجنوب) على أثر العدوان الإسرائيلي، وهي هيئة مشكلة من مختلف الطوائف الموجودة في لبنان، ناهيك عن دوره الفاعل في تشكيل ما يعرف بمجلس الجنوب.

ثانياً: استثمار وسائل الإعلام

بخلاف ما كان سائدًا وسط الطبقة الدينية آنذاك، اتجه الإمام الصدر إلى استثمار الإعلام المفتوح الذي يملأ السـاحة اللبنانية مـن الصحف والمجلات والإذاعات والتلفزيونات ووكالات الأنباء. فقد كان العلماء يتجاهلون وسائل الإعلام، وكانوا يرون أن التعاطي معها نوع من البروز غير اللائق برجال الدين، غير أن السيد الصدر كان يحاججهم بضرورة الاسـتفادة من فرص الوصول لوسائل الإعلام، وكان يرى بـأن هذا الظهور هو إثبات لوجودنا أولاً، وإيصال صوتنا للآخرين ثانياً، مستشـهداً بقـول الإمام جعفر الصادق عليه السلام لتلميذه أبان بن تغلب: «اجلس في مسـجد المدينة وأفتِ الناس فإني أحب أن يُرى في شيعتي مثلك»[1]، فكان أول عالم دين في لبنان يسـتقبل الصحفيين ووسـائل الإعلام، ويصنع علاقة طيبة معهم، ويتواصل معهم، وكان يطلق على الصحافيين مصطلح (الناطقون بالحق) وكان يردّد مقولة (الإعلام نار ونور)، فاستفاد من الفرص المتاحة في هذا المجال إلى حدٍّ كبير.

(١) وسائل الشيعة. ج٣٠ ص٢٩١.

ثالثاً: الانفتاح الديني

لقد أدرك الإمام الصدر أن الشيعة في لبنان لا يعيشون في جزيرة نائية، وإنما هم جزء من تشكيلة واسعة من الطوائف في بلدهم، فأسس لعلاقات وطيدة عابرة للطوائف. واهتم بإقامة العلاقات والانفتاح على التجمعات والطوائف الأخرى، من المسيحيين والدروز والسنة. لقد أقدم الصدر على هذه الخطوة في وقت لم يكن معظم علماء الدين يرون أنفسهم معنيين بأيّ شأن خارج مجتمعهم وطائفتهم. بدأ الإمام موسى الصدر بالتواصل مع رؤساء الطوائف المختلفة، فكان أول عالم دين مسلم في لبنان وربما في العالم العربي يدخل الكنيسة، عندما ألقى محاضرة في كنيسة (مار مارون) في طرابلس، وقد كان يدعى في بعض الأحيان لإلقاء عظة الأحد. وقد أوجد هذا التحرك ضجة كبرى ضد السيد الصدر في لبنان وخارجها.

رابعًا: الانفتاح السياسي:

لقد كان الإمام الصدر أول عالم دين شيعي استطاع أن يقتحم المجال السياسي العربي من أوسع أبوابه، عبر منهجية أثارت الإعجاب. فقد اتسم تحرك الصدر بانفتاحٍ سياسيٍّ على حكومات المنطقة، تحاشيًا لأي سوء فهم لتحركاته السياسية والاجتماعية في لبنان. وقد سافر إلى مصر، وربطته علاقة جيدة مع الرئيس المصري آنذاك جمال عبد الناصر، وعقد معه عدة لقاءات، كما حضر إلى المملكة والكويت بدعوات رسمية من قادتها السياسيين، وكان له اتصال وثيق مع الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد، وأقام علاقات جيدة مع الحكومات العربية، وكان بذلك أول عالم دين شيعي يخترق هذا الميدان.

إن من المهم التوضيح هنا بأن العمل السياسي واللقاء مع الأنظمة ورؤساء الحكومات كان ينظر إليه آنذاك في بعض الأوساط باعتباره عملاً مشبوهاً. إلا أن السيد الصدر كانت له نظرة ثاقبة، وقد وطّن نفسه على تحمل المضاعفات والنتائج، خصوصًا مع مخالفة بعض كبار العلماء في لبنان لمنهجيته. وتذكر بعض التراجم

في هذا السياق أن العالم المعروف الشيخ محمد جواد مغنية كان مخالفاً لحركة السيد موسى الصدر، وقد ألقى عدة خطابات وكتابات ضده، فقد كانت عنده وجهة نظر أخرى، على غرار علماء آخرين مضوا في ذات السبيل.

وقد طلب الصدر من كثير من العلماء أن يتعاونوا معه في إنشاء المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، لكنهم رفضوا، واعتبروا هذا المشروع مشبوهًا، فلم يكن هناك إجماع عليه، ولم يكن هناك فهم لطبيعة حركته، ومع ذلك مضى السيد الصدر في تأسيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى الذي أصبح فيما بعد كياناً للطائفة منذ عام ١٩٦٩م، وأسس بعد ذلك (أفواج المقاومة الإسلامية) المعروفة اليوم بحركة أمل وذلك سنة ١٩٧٥.

وقد سبق ذلك وقوف الصدر إلى جانب القضية الفلسطينية منذ سنة ١٩٧٠ بعيد واقعة أيلول الأسود في الأردن. فقد حث الإمام الصدر الشيعة في الجنوب اللبناني على احتضان إخوانهم الفلسطينيين المهجرين من الأردن، وأن يكونوا معهم كما كان الأنصار للمهاجرين، وهذا ما حصل بالفعل، فقد آزر الشيعة في لبنان إخوانهم الفلسطينيين، وقد انعكس ذلك على علماء ومراجع الشيعة خارج لبنان، ومنهم المرجع الأعلى آنذاك السيد محسن الحكيم في النجف الأشرف، الذي أصدر فتوى بإعطاء الحقوق الشرعية للاجئين الفلسطينيين. وقد قاد الموقف الشيعي المناصر للقضية الفلسطينية، إلى اندلاع ما عرف بحركة خرداد في إيران على خلفية الاحتجاج الشعبي على إقامة شاه إيران العلاقة مع إسرائيل. ذلك لأن الشيعة يعيشون حالة الظلامة والحرمان، فهم يستشعرون على نحو بالغ آلام المحرومين الآخرين، فضلًا عن تربيتهم على سيرة أئمتهم منذ نعومة أظفارهم، في التزام الوقوف إلى جانب المظلومين، وقد كان آخر وصية لأمير المؤمنين عليه السلام لابنيه الحسن والحسين: «كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً»[1].

(١) نهج البلاغة. كتاب ٤٧ وصيته للحسن والحسين عليهما السلام.

التجاوب الاجتماعي

بقي أن نشير إلى أن أحد أهم أسرار نجاح حركة الإمام موسى الصدر هو وجود مجتمع متفاعل ومتجاوب مع طروحاته التجديدية المختلفة. ولو لم يجد السيد الصدر مجتمعاً يتفاعل ويتجاوب معه لما استطاع أن يحقق ما حقق، وأن ينجز ما أنجز، بالرغم من وجود المخالفين، وهم في الغالب من الزعامات السياسية والدينية. لقد كان الجمهور متعاطفاً ومتفاعلاً مع طروحات السيد الصدر، وقد ترجم ذلك بحضور أكثر من ١٠٠,٠٠٠ مواطن في المهرجانين الذين أقامهما في بعلبك وفي صور، أن في ذلك دلالة واضحة على أن الرجل كانت له شعبيته من جهة، وعلى وعي الشعب اللبناني من جهة أخرى، حيث استطاعوا أن يميزوا القيادة التي تخدمهم ويلتفوا من حولها، ويتفاعلوا معها.

إن كفاءة القيادة لا تحقق أهداف الأمة وتطلعات المجتمع ما لم يكن هناك استجابة من الجمهور لنداءات القيادة، ووعي والتزام بمشروعها.

فقد كان الإمام الحسين بن علي أفضل قيادة للأمة في عصره، وكان يمكنه إنقاذ الأمة وتخليصها من الجور والفساد الأموي، وقد أعلن موقفه الرافض لحكم يزيد بن معاوية، وتوجه للعراق تلبية لرسائل زعماء الكوفة الذين تمنوا عليه التصدي لقيادة الأمة.

وبعث إليهم سفيره مسلم بن عقيل، الذي بايعه جمع غفير من أهل الكوفة في البداية، لكن الجمهور الكوفي خضع فيما بعد لتضليل وترهيب السلطة الأموية، وخذل الإمام الحسين، وانتهى الأمر بمقتل مسلم بن عقيل في الكوفة، ثم مقتل الإمام الحسين وأهل بيته وأنصاره في كربلاء.

ولم تتحقق للأمة أهدافها في إقامة الحق والعدل آنذاك، وبقيت خاضعة للطغيان الأموي عقوداً من الزمن، لا لنقص في كفاءة القيادة الحسينية، وإنما لضعف في إرادة الأمة ووعي الجمهور.

مواجهة أهل البيت لسياسة العزل والتهميش

- ☐ العزل والتهميش سياسة الظلم
- ☐ برنامج أهل البيت لمواجهة هذه السياسة

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[سورة النمل: الآية ٥٦].

العزل والتهميش سياسة الظلم

عادة ما يُواجه حملة القيم والمبادئ بحرب من المتسلطين الذين يتضررون من انتشار القيم الفاضلة، والمبادئ السامية.

المتسلطون الفاسدون في المجتمعات يريدون أن تبقى الساحة خالية أمام هيمنتهم وتسلطهم، فإذا كان هناك من يبث قيم العدل والحرية والكرامة ومكارم الأخلاق، فإن هؤلاء المتسلطين الفاسدين المستفيدين من انتشار الرذائل والمفاسد، يعلنون حرباً على حملة القيم والمبادئ؛ لأن انتشارها يضر تسلطهم وهيمنتهم، وهذه الحرب تشمل وسائل وأساليب قذرة، من أهمها سياسة العزل والتهميش، فيخططون ويعملون من أجل أن يعزلوا أصحاب القيم والمبادئ، وأن يهمّشوا دورهم، ويبعدونهم حتى لا يؤثروا في المجتمع، ولا تنتشر في الناس القيم التي يبشرون بها.

وفي قصة نبي الله لوط عليه السلام يتحدث القرآن الكريم عن السياسة التي أعلنها قومه تجاه دعوته، وهي طرده وذويه من البلاد، حتى لا يتأثر المجتمع بقيم الأخلاق الطاهرة التي يبشّر بها، يقول تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[سورة النمل، الآية: ٥٦].

لقد جاء نبي الله لوط عليه السلام يدعو الناس إلى عبادة الله، وينهاهم عن المفاسد

والرذائل، وكان من أسوئها ما انتشر في أوساطهم من شذوذ أخلاقي، هو ممارسة الجنس بين الذكور، هذا الشذوذ الجنسي انتشر في قوم لوط، ويبدو أنهم أول مجتمع ظهر فيه هذا الفساد، كما تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾[سورة العنكبوت: الآية٢٨]، وفي سورة النمل: ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[سورة النمل: الآية٥٥].

وهي ممارسة شاذة مخالفة لمسار الطبيعة، ومحرمة شرعاً، توعّد الشرع فاعلها ومرتكبها بأشد أنواع العذاب، فقد ورد عن النبي محمد ﷺ أنه قال: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط»[1]، وفي حديث آخر عنه ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[2]، والفقهاء تكلموا حول أحكام الحد الذي يقام على من يمارس هذه الفاحشة النكراء، التي تعتبر مصدراً لأسوأ وأخطر الأمراض في تاريخ البشر، وهو مرض نقص المناعة المكتسبة (الإيدز)، الذي يطلق عليه (طاعون العصر)، هذا المرض بداية اكتشافه كان في أوساط مجموعة من الشباب الشاذين في ولاية سان فرانسيسكو في أمريكا، وبدأ البحث العلمي والطبي حول هذا الموضوع، فوجد العلماء والأطباء أن الشذوذ الجنسي من أهم أسباب هذا المرض، و لا ينحصر السبب في الإصابة به في الشذوذ الجنسي؛ لأنه ينتقل أيضاً عبر نقل الدم وانتقال سائر السوائل من أجسام المصابين.

نبي الله لوط عليه السلام كان يحذّر قومه من هذا السلوك الفاسد، ويدعوهم إلى عبادة الله بالمنطق والدليل والبرهان، وتشير الروايات أنه كان يدعو قومه ما يقرب من ثلاثين عاماً، وينصحهم، لكن زعماء قومه المتضررين من مكافحة الفساد وانتشار مكارم الأخلاق كان جوابهم وموقفهم العمل على إبعاده عن المجتمع: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾، اطردوا هؤلاء الذين يبشرون بالقيم الأخلاقية الفاضلة،

(١) المستدرك على الصحيحين. ج٤، ص٣٥٦.
(٢) مستدرك الوسائل، ج١٨، ص٨١، حديث ٢٢١٠٧.

أخرجوهـم من القرية وأبعدوهم عن المجتمع! لماذا؟ وما هو ذنبهم حتى يخرجوا ويحاصروا؟ ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾، الالتزام بالطهارة الأخلاقية، جريمة استحقوا بهـا أن يُعزلـوا ويُخرجوا من القرية، وهذا هو أسـلوب المتسـلطين المفسـدين في كل مجتمـع، تجـاه أي جماعـة يحملـون القيم والمبـادئ الفاضلة، حيث يسـعون لمحاصرتهم، وهي سياسـة ظالمة؛ لأن الرأي يُواجه بالرأي، والفكر يُقابل بالفكر، ولا يصح أن يحرم إنسان من التمتع بحقوقه الإنسانية؛ لأن له رأيًا آخر يبشر به، هذا ظلم وعدوان.

آثار سياسة العزل

بالطبع فإن سياسة العزل والتهميش تترك آثاراً وأضراراً بالغة الخطورة على من يتحمّل مسؤولية الدعوة إلى القيم والمبادئ، ومن بين تلك الآثار والأضرار:

أولاً: الضغوط النفسية: تمارس سياسة العزل والتهميش كحربٍ نفسية في مواجهة المبشّرين بالقيم، وذلك بهدف إيقاع الضغط النفسي عليهم.

ثانياً: الصعوبات الحياتية: كما أن هذه السياسـة من شـأنها أن تُسـبب صُعوبات في حياة الذين تُمارس ضدّهم، وبذلك ينشغلون بمشاكلهم الحياتية على حساب تفرغهم لدعوتهم.

ثالثاً: منع التأثير والتمدد: وهذه السياسة الظالمة تستهدف تقليص دور دعاة الفضيلة والقيم، وتقليل مسـاحة حضورهم في المجتمع. ومنع تمددهم وتأثيرهم في الآخرين.

أساليب التهميش

إن لهـذه السياسـة أسـاليب متعـددة يمتهنهـا المتسـلّطون، ومـن تلـك الأساليب:

١. **حجب فرص التقدم**: التكافؤ في الفرص من سمات المجتمع المتقدّم، أما المجتمعات المتخلّفة فتكون مستنقعاً لذوي الأطماع، الذين لا يتركون لسواهم مجالاً للتقدّم، فيسعون جاهدين للاستئثار بمختلف الفرص، وخصوصاً عن أولئك الذين يتطلعون لتحقيق القيم العادلة في المجتمع.

٢. **تشويه السمعة**: ومن الأساليب المشينة التي يُمارسها المتسلّطون ضدّ دعاة الفضيلة ترويج الشائعات التي من شأنها تشويه سمعتهم، والنيل من أشخاصهم، وهذا امتحانٌ صعب يواجهه كل من يتحمّل مسؤولية نشر القيم والفضيلة في المجتمع.

٣. **تخويف الناس من المصلحين**: ومن الأساليب، بث مشاعر الخوف في الناس من الاقتراب من المصلحين، ليتحقق عزلهم عن الناس.

ولقد تعرّض أهل البيت عليهم السلام لمختلف أساليب سياسة العزل التهميش، فقد حاصر المشركون في مكة رسول الله صلى الله عليه وآله وأسرته من بني هاشم في شعب أبي طالب عليه السلام لثلاث سنوات، حتى إن الواحد منهم كان يخرج ببضاعته فلا يشتري منه أحد، أو يخرج بماله فلا يبيعه أحد، وقد ورد أن بني هاشم اضطروا لأكل أوراق الأشجار من الجوع.

معاناة أهل البيت

وتعرض أهل البيت عليهم السلام لإشاعات تشويه السمعة، فاختُلقت الأحاديث ضدّهم، ونُسب إليهم كلامٌ لم يتكلّموا به، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدّمة، فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دسَّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا

محمد ﷺ»[١].

ومثل ذلك ورد عن الإمام الرضا عليه السلام أيضاً إذ يقول: «إن مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على أقسام ثلاثة: أحدها الغلو، وثانيها التقصير في أمرنا، وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلو فينا كفروا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[سورة الأنعام: الآية١٠٨]»[٢].

وتجدر الإشارة هنا إلى ضرورة تنقية التراث الإسلامي من الأحاديث التي فيها غلو وإثارة طائفية، كما ينبغي التصدي للأحاديث الموضوعة، ولذا يحتاج المجتمع إلى خبراء ليكشفوا المدسوس من غير المدسوس، لتبقى الأحاديث سليمة من أغراض العابثين.

وتعرض أهل البيت عليهم السلام لأساليب التخويف من الاقتراب منهم ومن شيعتهم أيضاً، وفي ذلك يقول الفتح بن شخرف: «حملتني عيني فنمت، فبينما أنا نائم إذا بشخصين، فقلت للذي يقرب مني: من أنت يا هذا؟ فقال: من ولد آدم. قال: قلت: كلنا من ولد آدم، فمن الذي وراءك؟ قال: علي بن أبي طالب. قلت: أنت قريب منه ولا تسأله؟ قال: أخشى أن يقول الناس إني رافضي»[٣]، هكذا انعكست سياسة التخويف على هؤلاء الناس حتى في أطياف نومهم.

وينقل الخطيب البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد) كيف أن الإمام أحمد بن حنبل تعرّض للوم والعتاب؛لأنه كان يستقبل إحدى الشخصيات الشيعية الموالية

(١) بحار الأنوار ج٢ ص٢٥٠

(٢) المصدر نفسه ج٢٦ ص٢٢٩.

(٣) أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن عساكر. تاريخ مدينة دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، (بيروت: دار الفكر، تحقيق علي شيري) ٤٨/ ٢٣٣.

لأهل البيت عليهم السلام وهو عبدالرحمن بن صالح الأزدي الكوفي (توفي ٢٣٥هـ).

حيث أورد البغدادي عن يعقوب بن يوسف المطوعي قال: «كان عبدالرحمن بن صالح الأزدي رافضياً وكان يغشى الإمام أحمد بن حنبل، فيحترمه الإمام أحمد بن حنبل فيقربه ويدنيه، فقيل له: يا أبا عبدالله، عبدالرحمن رافضي! فقال: سبحان الله، رجل أحبّ قوماً من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، نقول له لا تحبهم؟ هو ثقة»[١].

ونقل البغدادي عن يحيى بن معين (توفي٢٣٣هـ) وهو من الأئمة الأعلام، ومن شيوخ المحدثين، ومؤرخي رجال الحديث عند أهل السنة، وصفه الذهبي أنه سيد الحفاظ، يقول ابن معين عن عبدالرحمن بن صالح الأزدي: (يقدم عليكم رجل من أهل الكوفة يقال له: عبدالرحمن بن صالح، ثقة صدوق شيعي؛ لأن يخرّ من السماء أحبّ إليه من أن يكذب في نصف حرف)[٢].

هكذا تمارس الضغوط لعزل الشخصيات المنتمية لأهل البيت، مثل عبدالرحمن الأزدي، مع ظهور وثاقته، وجلالة قدره.

وفي هذا العصر

هذه السياسة مستمرة إلى هذا العصر، إذ نجد توجهًا عنيفًا عند بعض الجهات من أجل توسيع الشقة والفاصلة بين جناحي الأمة: السنة والشيعة. بحيث يمكن القول بكل ثقة وعن طريق الكثير من الشواهد الواضحة والظاهرة: إن هناك جهات تعمل ليل نهار كي لا يتقارب المسلمون من بعضهم بعضاً، وهذا إما بسبب التعصب الأعمى، وإما لمصالح وأغراض سياسية، أو بتوجيه من أعداء الأمة في الداخل والخارج، وقد يكون لغفلة بعض من يسلكون هذا المنهج الخطأ.

(١) الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد، ج١٠، (بيروت: دار الكتب العربية)، ص٢٦٢.
(٢) المصدر نفسه.

وقـد رأينا الكثير من النماذج، ففي لبنان حين عقد جماعة من السـنة السـلفيين اتفاقاً مع حزب الله بتاريخ ١٨ اغسطس٢٠٠٨م، تضمّن إقراراً للاحترام المتبادل، وللتناصر والسلم الاجتماعي، وتأكيد الوحدة الإسلامية، قامت قائمة جهات كثيرة، وما قرت لهم عين حتى جمّد هذا الاتفاق.

ويتحـدث الدكتور الشـيخ محمـد العوضي، وهو مـن الدعاة الإسـلاميين في الكويت، في مقابلة له في إحدى المجلات، حين سـئل: كثيراً ما تغازل الشـيعة في برامجك التلفزيونية الرمضانية، فهل هذا بهدف توسيع قاعدتك الجماهيرية؟

أجابهـم: هـل الصـلاة علـى آل بيت النبـوة وذكر مناقـب الإمام علـي وفاطمة والحسن والحسين وجعفر الصادق دليل على أنني «أجامل الشيعة»؟ إن كانت هذه قناعة بعض الناس فإنني أردّد مع الإمام الشافعي:

إن كان رفضـاً حـبّ آل محمـدٍ فليشـهد الثقـلان أني رافـضي

وحين سـئل: ولكنك أكثـرت وبالغت بذكر آل البيت، قـال: إنها نعم المبالغة، حيث حب آل البيت من الإيمان وبغضهم من الخسران، والأحاديث في كتب السنة كالبخـاري ومسـلم وغيرهـا كثيرة في مناقـب آل البيت، بل إن الإمام مسـلم يروي حديثاً عن النبي ﷺ يقول: «يا علي، لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»[1].

وفـي بلادنـا التي تحتضـن الحرمين الشـريفين، والتـي يُفترض فيهـا أن تكون حامية الوحدة الإسـلامية، نجد ـ مع الأسف ـ بعض الجهات تعمل على تعزيز هذا الاتجاه، ورأينا ذلك بكل وضوح وجلاء، فحين يكتب أحد علماء الشيعة في جريدة محلية، أو يظهر في إحدى الوسائل الإعلامية، تجد نشاطاً محموماً لمنعه بمختلف الأساليب: رسائل الجوال، البريد الإلكتروني، رسائل الفاكس، الاتصالات، المهم في الأمر أن يتحقق المنع.

(١) مجلة الحدث. العدد ٤٧ بتاريخ يونيو ٢٠٠٠م.

وليس فقط في المجال الإعلامي وإنما حتى في مجال التواصل، فإذا جاء عالم من علماء السنة لزيارة الشيعة، تبدأ حملة شعواء ضده، بمختلف الطرق والوسائل، وحينما يدعى عالم من علماء الشيعة إلى مجلس من مجالس أهل السنة في الرياض أو في جدة، تبدأ حرب شعواء، وقد تصل إلى التهديد والوعيد.

وكلّكم رأيتم كيف أن عالماً كبيراً ورمزاً من الرموز، وهو الشيخ القرضاوي، حينما بدأ يتواصل مع الشيعة وكتب بحثاً جميلاً حول التقريب بين السنة والشيعة، يدعو فيه إلى التقريب، ويرد على بعض الاتهامات حول الشيعة، ثارت ثائرة البعض إذ لم يعجبهم هذا الأمر فقاموا بالضغط على الشيخ القرضاوي حتى يغيّر رأيه.

والسؤال الذي يطرح نفسه: ما هو الموقف تجاه هذه الحالة؟

□ برنامج أهل البيت لمواجهة هذه السياسة

البعض من الناس حينما تمارس ضدهم سياسة العزل والتهميش، يستجيبون لتلك السياسة الظالمة، ويعينون على أنفسهم، إما بسبب الجهل وضعف الوعي، أو بسبب غلبة العاطفة والانفعال، فيقعون في فخ العزلة، ويستمرؤون حالة الانكفاء والانطواء، أو يتصرفون بطريقة ردود الأفعال المتشنجة.

إن أي جهة تواجه هذه الحالة ينبغي أن تتحلى بالوعي، ذلك لأن الاستجابة لسياسة المتسلّطين والمغرضين إنما تخدم مصلحة أعداء الأمة. ولنا في سيرة أهل البيت عليهم السلام المثل الأعلى، ويُمكننا أن نستلهم من موقف أهل البيت عليهم السلام تجاه سياسة العزل والتهميش التي مورست ضدّهم البرامج التالية:

أولاً: ثقافة التسامح والانفتاح

لقد دأب الأئمة عليهم السلام على نشر ثقافة التسامح، ورحابة الصدر، واستيعاب الآخر، بين أتباعهم؛ إذ لم يشجعوا شيعتهم على الانفعال والغضب، وكان ذلك واضحاً

في سيرتهم، فهذا الإمام الحسن عليه السلام حينما يأتيه ذلك الشامي ويسبه ويشتمه، نجد بوضوح كيف تعامل الإمام الحسن عليه السلام معه، قال له:

«أيها الشيخ أظنك غريباً، ولعلك شبهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعًا أشبعناك، وإن كنت عريانًا كسوناك، وإن كنت محتاجًا أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حركت رحلك إلينا، وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك كان أعود عليك، لأن لنا موضعاً رحباً وجاهاً عريضاً ومالاً كثيراً، فلما سمع الرجل كلامه، بكى ثم قال: أشهد أنك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ والآن أنت أحب خلق الله إليّ»[١].

وهذا الإمام الباقر عليه السلام يقول لأحد أصحابه وكان شديد الحماسة: «إني أراك لو سمعت إنسانًا يشتم عليًّا فاستطعت أن تقطع أنفه فعلت؟ قلت: نعم، قال: فلا تفعل، ثم قال: إني لأسمع الرجل يسب عليًّا واستتر منه بالسارية، وإذا فرغ أتيته وصافحته»[٢].

هذه سيرة أئمة أهل البيت عليهم السلام، التي تُعبّر عن الموقف الحكيم الذي يدعو له القرآن الكريم: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [سورة فصلت: الآية ٣٤].

بعض الناس يرى أنه لا تجدي الأخلاق الطيبة مع المتشددين والمتعصبين، ولكن المسألة أن كل إناء بالذي فيه ينضح، فالمؤمن الواعي لا يرضى لنفسه أن يمارس أسلوب التشنج والانفعال؛ لأن الآخرين يمارسونه. ولا تقف المسألة عند هذا الحد وإنما تتسع إلى أفق الأمة كلها، فوجود جماعة متعصبة ضد أخرى

(١) بحار الأنوار ج ٤٣ ص٣٤٤.
(٢) المصدر نفسه ج٧٢ ص٤٠٠.

منفتحة، يجعل الأمة تقف إلى جانب الجماعة المنفتحة وينتصرون لأخلاقها.

ثانياً: تشجيع الحضور والتواصل

ينبغي لمجتمع المؤمنين أن يحبط سياسة العزل والتهميش بتواجده وحضوره ، وإثبات كفاءته وقدراته، ولذلك نجد أن الأئمة عليهم السلام ربوا في تلامذتهم كفاءات وقدرات كانت تفرض نفسها، وكانوا يدفعونهم للحضور والتواجد في ساحة الأمة، وفيما يلي نستعرض بعض الجوانب من حضور أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم البارز في الساحة الإسلامية:

الحضور السياسي

حين نتصفّح التاريخ نجد أن هناك عددًا كبيراً من أصحاب وتلامذة أهل البيت عليهم السلام كان لهم حضور واضح على الصعيد السياسي، فهذا سلمان الفارسي الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «سلمان منا أهل البيت»[١] المعروف بولائه لأمير المؤمنين عليه السلام، كان والياً من قبل الخليفة عمر بن الخطاب على المدائن[٢].

وهذا عمار بن ياسر، الذي ورد فيه عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه: (ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه)[٣] وهو وثيق الصلة بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، كان والياً على الكوفة من قبل الخليفة عمر بن الخطاب، ومما جاء في خطاب الخليفة لأهل الكوفة: «أما بعد، فاني قد بعثت لكم عماراً أميراً، وعبدالله بن مسعود وزيراً ومعلماً، وهما من نجباء أصحاب محمد صلى الله عليه وآله فاقتدوا بهما»[٤].

وكذلك داوود بن زربي الكوفي، وكان من أصحاب الإمام زين العابدين

(١) المستدرك على الصحيحين. ج٣ ص٦٩١ حديث ٦٥٣٩.
(٢) بحار الأنوار ج٢٢ ص٣٧٤.
(٣) بحار الأنوار ج١٩ ص٣٥.
(٤) عز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٤، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص١٢٦.

والإمـام الباقـر والإمام الصادق عليهما السلام، وكان من سـيرته أنه من أخـصّ الناس بهارون الرشـيد، وقبل ذلك كان قريباً من المنصور، ويقيم إلى جوار بسـتانه وقد وشوه إليه أنه رافضي[١].

ومـن النمـاذج أيضاً: علي بن يقطين الذي كان كرئيس الوزراء في عهد هارون الرشـيد، في الوقت الذي كان فيه الإمام موسـى بن جعفر عليه السلام في السـجن، وحاول مـراراً أن يخـرج من الوزارة إلا أن الإمام الكاظم عليه السلام ينهاه، ويقول له: «لا تفعل فإن لنا بك أنساً ولإخوانك بك عزاً»[٢].

وأيضـاً عبدالله النجاشـي كان والياً علـى الأهواز، وهو من أفذاذ شـيعة الإمام الصادق عليه السلام.

وكذلك نوح بن دراج الذي كان من أصحاب الأئمة عليهم السلام، وقد تولى القضاء في الدولة العباسـية، وكان بالرغم من هـذا المنصب يفتي ويقضي طبقاً لرأي أئمة أهل البيت عليهم السلام.

كل ذلك يؤكد لنا بجلاء كيف أن أتباع أهل البيت عليهم السلام كان لهم حضورهم البارز في الجانب السياسي، وكان أئمة أهل البيت عليهم السلام يُشجّعونهم على ذلك.

الحضور العلمي

مدرسـة أهل البيت عليهم السلام العلمية كانـت ملتقىً لمختلف التوجهات في السـاحة الإسلامية، فإمام المذهب الحنفي أبو حنيفة كان يحضر مجلس الإمام الصادق عليه السلام لمدة سـنتين، وقد نقل عنه قوله: «لولا السـنتان لهلك النعمان»[٣]، وكذلك أنس بن

(١) السيد أبو القاسم الخوئي. معجم رجال الحديث، ج٧، الطبعة الرابعة ١٤١٠هـ، (قم المقدسة: مركز نشر آثار الشيعة)، ص١٠٢

(٢) بحار الأنوار ج٤٨ ص١٣٦.

(٣) عبدالحليم الجندي. الإمام جعفر الصادق، الطبعة الأولى ١٩٧٧م، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية)، ص٢٥٢..

مالك، إمام المذهب المالكي، أيضاً كان يغشى مجلس الإمام الصادق عليه السلام، فكان يقول: «ما رأت عين، ولا سمعت أذن، ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علمًا وعبادةً وورعًا[١]»، وقال: «كان كثير الدعابة والتبسم، فإذا ذكر عنده رسول اللّه صلى الله عليه وآله أصفّر، وما رأيته يحدث عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله إلا على طهارة، ولقد اختلفت إليه زمانًا، فما كنت أراه إلّا على ثلاث خصال: إما مصليًا وإما صائمًا وإما يقرأ القرآن»[٢].

ومن تلامذة الإمام الباقر عليه السلام إبان بن تغلب الذي قال له الإمام: «اجلس في مسجد المدينة وأفتِ الناس فإني أحب أن يُرى في شيعتي مثلك»[٣]، وقد سأل الإمام ذات مرة: إني أقعد في المسجد فيجيئون الناس فيسألوني فإن لم أجبهم لم يقبلوا مني، وأكره أن أجيبهم بقولكم وما جاء منكم، فقال: انظر ما علمت أنه من قولهم فأخبرهم بذلك»[٤].

وعلى هذا المنهج الانفتاحي سار العلماء من أتباع أهل البيت عليهم السلام، فالشيخ المفيد، رحمة الله عليه، وهو من كبار علماء الشيعة، درس على يد علي بن عيسى الرماني، وهو أستاذ سني، فأعجب بذكائه فسمّاه المفيد. وكان درس شيخ الطائفة الطوسي في بغداد منفتحاً على مختلف المذاهب الإسلامية.

وفي وقتنا المعاصر نجد هذا الانفتاح حاضراً في الساحة العلمية، ومن أبرز النماذج المعاصرة الخطاب الذي ألقاه المرجع الأعلى السيد السيستاني في النجف الأشرف، حينما التقى وفدًا من علماء السنة والشيعة، ونشر هذا الخطاب

---

(١) أسد حيدر. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، المجلد٤، ج٨، الطبعة الخامسة ١٤٢٢هـ، (بيروت: دار التعارف)، ص٣٧١. وأيضًا: التوسل والوسيلة لابن تيمية، ص٥٢.

(٢) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، المجلد ٤، ج٨ ص ٣٧١-٣٧٢. وأيضًا: مناقب الزواوي، ص٣٣-٣٤.

(٣) وسائل الشيعة. ج٣٠ ص٢٩١.

(٤) المصدر نفسه ج١٦ ص٢٣٣ حديث٢١٤٤٣.

في بعض وسائل الإعلام، ومما جاء فيه قول السيد السيستاني: « درست عن الشيخ أحمد الراوي، وهو من علماء السنة في سامراء، ولم يكن يخطر ببالي أنه على غير مذهبي»[١].

من هنا فإن الحضور العلمي لأهل البيت عليهم السلام وتلامذتهم وأتباعهم واضح المعالم، بل إنه يُمثّل منهجاً أساساً في مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

الحضور الاجتماعي

إذا كان الحضور السياسي والعلمي خاصاً بالنخبة، فإننا نجد في تراث أهل البيت عليهم السلام توجيهاً لعامة أتباعهم، بأن يتواجدوا مع بقية المسلمين، يقول عبد الله بن زياد: «دخلت على الإمام جعفر الصادق عليه السلام بمنى قلت له: يا بن رسول الله، إن مكاننا بعيد، ولا نستطيع أن نجلس معك مثل هذا المجلس كلما أردنا، فأوصنا، قال عليه السلام: «أوصيكم بتقوى الله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الصحبة لمن صحبكم، صلوا في مجالسهم، عودوا مرضاهم، اشهدوا جنائزهم، فإن أبي كان يقول: إن شيعتنا هم خيار قومهم، كذلك حببونا إلى الناس، ولا تبغضونا إليهم»[٢]، وفي رواية أخرى يقول الإمام الصادق عليه السلام: «رحم الله عبداً اجتر مودة الناس إلى نفسه والينا»[٣]، وعنه عليه السلام: «رحم الله عبداً حبّبنا إلى الناس ولم يبغضنا إليهم»[٤].

فمن توجيهات الأئمة عليهم السلام أنهم يُشجّعون أتباعهم لحضور الصلاة مع بقية المسلمين، وهي مسألة مهمّة، فالصلاة جماعة فيها من الفضل ما لا يُحصى. وفي الفقه الإمامي هناك شرطٌ في إمام الجماعة بأن يكون مؤمناً، أي اثني عشرياً. إلا أن

(١) موقع رابطة الحوار الديني. www.alhiwaraldini.com.
(٢) وسائل الشيعة ج١٢ ص٨.
(٣) مستدرك الوسائل ١٢ ص٢٧٥.
(٤) آقا حسين البروجردي. جامع أحاديث الشيعة، ج١، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، (قم المقدسة)، ص٢٨٩.

هذا الشـرط له اسـتثناء، فإذا كان الإنسان الشيعي في مكان وأقيمت صلاة الجماعة لأهل السنة، فينبغي له أن يُصلّي معهم، بل إذا كان امتناعه يُسبب تشويهاً للمذهب، فـلا يجـوز لـه الامتناع؛ وهـذا ينطبق على مـن يكون فـي الحرمين الشـريفين، فإذا أقيمت الصلاة هناك وكان الشـيعي حاضراً في الحرم الشريف، فينبغي له أن يُصلي مـع المسـلمين، ولا ينبغي له أن يتأخر أو يتخلـف أو أن يُصلي وحده. ففي حديث بسـند صحيح عـن حماد بن عثمان عن الإمام جعفر الصـادق عليه السلام يقول: «من صلى معهم في الصف الأول كان كمن صلى خلف رسول الله صلى الله عليه وآله في الصف الأول»[١]، وفـي حديـث آخر عـن الإمـام الصـادق عليه السلام: «إذا صليت معهـم غفر لـك بعدد من خالفك»[٢]، وسأل أحدهم الإمام الصادق عليه السلام: « إن لنا إماماً مخالفاً يبغض أصحابنا كلهـم، فقـال عليه السلام: «ما عليك مـن قوله، والله لئن كنت صادقاً لأنت أحق بالمسـجد منه، فكن أول داخل وآخر خارج، وأحسـن خلقك مع الناس وقل خيراً»[٣]، وسأل الإمام الصادق إسـحاق بن عمار: «يا إسـحاق، أتصلي معهم في المسـجد؟ قلت: نعم، قال: صلِّ معهم فإن المصلي معهم في الصف الأول كالشـاهر سيفه في سبيل الله»[٤].

وقـد أفتـى فقهـاء الإمامية بـأن الصـلاة مع بقيـة المسـلمين لا تختـص بحالة الاضطـرار، وإنما تتسـع لتشـمل تعزيـز التواصل وبناء جسـور الثقـة والألفة، وقد ناقش الفقهاء مسألة القراءة حين الصلاة مع جماعة أهل السنة، وهي مسألة يختلف فيها علماء السـنة أيضاً، فالسيد الخوئي والسـيد الشيرازي والسيد السيستاني يرون وجـوب قراءة الحمد والسـورة مع إمـام الجماعة المخالف لك فـي المذهب، أما الإمام الخميني والسـيد الخامنئي والشـيخ مكارم الشـيرازي والشـيخ الصانعي لا

(١) وسائل الشيعة. ج٨، ص٢٩٩، حديث١٠٧١٧.
(٢) المصدر نفسه. ج٨، ص٢٩٩، حديث١٠٧١٨.
(٣) المصدر نفسه. ج٨، ص٣٠٠، حديث ١٠٧٢٢.
(٤) المصدر نفسه. ج٨، ص٣٠١، حديث ١٠٧٢٣.

يرون لزوم القراءة بل يكتفي بقراءة الإمام وإن كان مخالفاً في المذهب.

وفي ملحق مناسك الحج للمرجع السيد السيستاني تأكيد كبير على حضور الشيعة الصلاة في الحرمين الشريفين، وأنها الأفضل من إقامتها في منازل سكناهم.

لذلك يجب أن ننطلق من الفقه، ومن تعاليم الأئمة عليهم السلام، فالأئمة كانوا يدفعون أتباعهم لكي يكونوا ضمن الأمة، حتى لا يعزلوا ويهمّشوا، ولا يبعدوا عن بقية جماهير الأمة، وهذا ما يجب أن يسود في المجتمع الشيعي، وخاصة في هذا العصر مع تكالب مؤامرات الأعداء، ووجود متشددين ومتعصبين، علينا أن نكشف هذه المحاولات ونفشلها.

إذاً ينبغي أن يكون هناك حضور لأتباع أهل البيت في ساحة الأمة، ولا يصح أن ننجح سياسة الحصار والعزل والتهميش. وقد يتخذ بعض أتباع الأئمة طريق الثورة حين تشتد عليهم ضغوط التهميش والعزل، ولذلك حصلت ثورات في عصور الأئمة عليهم السلام، فقد ثار زيد بن علي بن الحسين، وثار بقية الثائرين من الحسنيين، ومن أتباع أهل البيت، وما ذاك إلا بسبب الضغوط، وقد كان الأئمة عليهم السلام يتفهمون الدوافع التي تدفع البعض من شيعتهم للثورة، فهي حالة طبيعية نتيجة لاشتداد الضغوط.

أما سيرة أئمتنا عليهم السلام في الأصل فقد كانت قائمة على أساس وحدة الأمة، وحفظ الاستقرار السياسي والاجتماعي، والسلم العام في الأمة.

وحين تحرك الإمام الحسين عليه السلام ضد سلطة يزيد بن معاوية، لم تكن حركته كإمام لطائفة، ولا دفاعاً عن حقوق طائفة، إنما تحرك من موقعه الرسالي دفاعاً عن مصالح الإسلام والأمة، قال عليه السلام: «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر».

عالم الدين وشجاعة الرأي ـ الإمام كاشف الغطاء نموذجاً

- ☐ التعبير عن الرأي بين الحق والواجب
- ☐ العوائق والتحديات
- ☐ الإمام كاشف الغطاء نموذجاً

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾ [سورة الأحزاب: الآية ٣٩].

□ التعبير عن الرأي بين الحق والواجب

تكـوّن الـرأي عند الإنسـان ناتجٌ لاسـتعماله لقدرته العقلية، وحيـث إنّ النّاس يتفاوتون في مدى استفادتهم من قدراتهم العقلية، فإن رصيدهم من الآراء مختلفٌ أيضاً، ويعود ذلك إلى مستوى الثقة بالنفس، وتوجه التفكير، وواقع البيئة والتربية.

إن اللـه سـبحانه وتعالى أعطى الإنسـان قدرةً عقليـةً يفكر بها، وباسـتخدامها يتكـوَّن لـه الـرأي، وحيثما وجّه المـرء فكره أو اهتـمّ بموضوعٍ ما، يتكـوّن له رأيٌ، وقـد يختلف عـن الآخرين من حوله، فمن يسـتخدم عقله أكثر، تنتج لـه آراء أكثر، أمـا من لا يسـتخدم عقله؛ فمن الطبيعي أن لا تتكون لـه آراء، وإنما يأخذ الآراء من الآخرين.

والإنسـان إنمـا يُوجّـه فكره لأمرٍ مـا، ويُكوّن رأياً حولـه، ويُعبّر بعـد عن رأيه، لأسباب عدّة، منها:

٤. الثقة بالنفس: الإنسان الذي يثق بنفسه يستخدم عقله ويفكر في الأمور، وكثير من الناس لا يثقون بأنفسهم، ولا يرون أنفسهم أهلاً للتفكير في هذا الموضوع أو ذاك.

٥. التدرب والممارسة: إذا درَّب الإنسان نفسه على التفكير، ومارسه باحثاً فيما

يفكر فيه تتكون لديه آراء.

٦. البيئة والتربية: إذا عاش الإنسان في بيئة تُشجع إنتاج الرأي والتعبير عنه، فإنه ينشأ على هذا النهج، أما إذا تربى في عائلة وبيئة قمعية، تضعف ثقته بنفسه، ولا تسمح له أن يعبر عن مشاعره وآرائه، فإن قدرته العقلية لا تنمو.

من هنا، فالتعبير عن الرأي حقٌّ للإنسان، وحقٌّ عليه من قبل المجتمع الإنساني، ولو لم يعبر العلماء عن آرائهم في مختلف المجالات لما تقدمت الإنسانية، ولهذا نجد أن الإعلان العالمي لحقوق الإنسان يتضمّن في مادّته ١٩ العبارة التالية: (لكل شخص حقّ التمتع بحرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحقّ حريته في اعتناق الآراء دون مضايقة، وفي التماس الأنباء والأفكار وتلقيها ونقلها إلى الآخرين، بأية وسيلة ودونما اعتبار للحدود).

وقد يُصبح تعبير الإنسان عن رأيه واجباً إذا كان في إبداء ذلك الرأي مصلحة وإنقاذًا للآخرين، وكمثال بسيط، إذا رأيت أمامك إنساناً يوشك أن يقع في حفرة وأنت ترى وتبصر، وبإمكانك أن تنبهه، فليس من الإنسانية أن تسكت وتتفرج على وقوعه.

ويُفترض في أي تخصصٍ من التخصصات، أو علمٍ من العلوم، أن يهتمّ المنتمون إليه بتنمية قدراتهم على تكوين الآراء فيه، ليتقدّم العلم ويتطوّر، إذ مطلوبٌ من الإنسان أن يسعى للإبداع وابتكار الجديد في المجال الذي يتخصص فيه، وليس فقط أن يبقى ضمن الآراء والنظريات السابقة، ولذا نجد في الجامعات يُطلب من الإنسان أن يكتب رسالة حتى ينال بها البكالوريوس أو الماجستير أو الدكتوراه، ومن الشروط أن يضيف من خلالها شيئاً جديداً، ليتكوّن تراكمٌ علمي في مجال البحث والعلم.

التعبير عن الرأي الشرعي

وهـذا ينطبـق أيضاً على مجـالات العلـوم الشـرعية، فلكي يصل عالـم الدين لمسـتوى الاجتهاد والفقاهـة، فإن المطلوب منه أن يبـدع ويضيف ويمارس قدرته الاجتهادية، لا أن يردد الآراء الموجودة التي درسها، يقول الشيخ المطهري: (ليس صحيحـاً أن جميع المشـاكل قد حلها العلمـاء، ولم تعد لدينا مشـكلة ما، إننا نجد آلاف الألغـاز والمشـاكل فـي الكلام والتفسـير والفقه وسـائر العلوم الإسـلامية، ممـا قـام العلماء السـابقون بحل الكثير منهـا، ولكن بقي منها الكثيـر الذي يتطلب الحل)[1].

والاجتهـاد إنمـا يعني القدرة على الاسـتنباط مـن المصـادر المعتمدة، وليس شرطاً أن يتّفق العلماء على رأيٍ واحد، وإن اتّفقوا على آلية الاستنباط.

والسـؤال المهـم: حين يتكوّن لـدى عالم الدين رأيٌ مخالفٌ لما هو سـائد في المجال الفكري أو الفقهي، فهل من حقّه أن يُعبّر عن رأيه؟

في الحقيقة، إن الفكر والفقه الإسـلامي مدينٌ لأولئك العلماء الأبطال، الذين عبروا عن آرائهم ونظرياتهم الجديدة، فأضافوا إلى الفكر وإلى الفقه إضافات مهمة، ومنهم: شيخ الطائفة الطوسي الذي رفد المكتبة العلمية بكتابه (المبسوط)، فأدخل الفقـه فـي مرحلة جديدة متّسـعة بعد أن كانـت الكتب الفقهية محـدودة مختصرة، وحين جاء الشـيخ محمد حسـن النجفي وكتب موسـوعته (الجواهر) فإنه ضاعف مساحة البحث الفقهي.

والعجيب أن يحتاج عالم الدين لجرأة وشجاعة من أجل إبداء رأيٍ قد استنبطه مـن المصـادر المقـررة، إلا أن الوقع يحكي لنا هـذا الأمر، فبعـض العلماء تتكون عندهـم آراء إلا أنهـم لا يعبرون عنها ولا يطرحونها، تجنبـاً لمحاذير صنعها الواقع

(١) مرتضى مطهري. الاجتهاد في الإسلام، ترجمة جعفر صادق الخليلي، (طهران: مؤسسة البعثة)، ص٢٥.

الاجتماعي المحيط بهم.

بالطبع إذا كان رأي العالم موضع حاجة وابتلاء للأمة فواجبه الشرعي أن يطرح رأيه، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾[سورة الأحزاب، الآية: ٣٩]، وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية:١٥٩] .

والنصوص التي تحذر العالم من أن يكتم العلم الذي يحتاج إليه الناس كثيرة، فقد ورد في الحديث عن نبينا محمد ﷺ: (من كتم علماً نافعاً عنده ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار)[١]، وفي حديث آخر عنه ﷺ: (إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه فإن لم يفعل فعليه لعنة الله)[٢].

□ العوائق والتحديات

مسؤولية عالم الدين وواجبه الشرعي أن يجهر برأيه حين يكون الأمر موضع حاجة وابتلاء، ليساعد الأمة ويخدم مصلحتها ومصلحة الدين، إلا أن الكثير من العوائق والتحديات تقف أمام عالم الدين فتجعله متردداً أو ممتنعاً عن تبيين رأيه، فما هي تلك العوائق؟

الأول: العامل السياسي

تقف السلطات السياسية في كثيرٍ من الأحيان أمام العلماء، فلا تفسح المجال للعالم أن يبين رأيه بوضوح في بعض المسائل الشرعية الفكرية والفقهية، وكم عانى العلماء أيام الدولتين الأموية والعباسية حين تجرؤوا وطرحوا آراءهم التي كانت

(١) كنز العمال. ج١٠، ص٢١٦.
(٢) الكافي. ج٤، ص ٥٤.

تتصادم ورأي الحاكم ومصلحته، وما محنة خلق القرآن إلا نموذجاً من النماذج التي اختلقها الحكام العباسيون.

وفي عصرنا الحديث هذه المعاناة موجودة، ومن النماذج ما نُقل عن الرئيس الأسبق لتونس، الحبيب بورقيبة، أنه مرةً تحدث عن آية من آيات القرآن الكريم، وفسرها تفسيراً خطأ، وحين صحح أحد علماء الدين هذا التفسير في محاضرة ألقاها، أمر الرئيس بسجنه وبقي مدة في السجن[1].

من هنا، فإن عالم الدين قد يخفي رأيه الديني الشرعي حذراً من السلطة السياسية القائمة، التي يعيش في ظلّها.

الثاني: الصراع والتنافس الداخلي

علماء الدين هم شريحة من الناس وفقهم الله تعالى لدراسة العلوم الشرعية، ويفترض أن تتهذب وتتشذب نفوسهم بأخلاق الدين بتأثير دراستهم لتعاليمه، كما يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [سورة فاطر: الآية٢٨]، إلا أنهم بشر غير معصومين، ولذا قد يحصل داخل هذه الشريحة سوء إدارة للخلاف في الرأي، بحيث إن عالم الدين لا يجرؤ أن يقول رأياً يخالف السائد في الوسط العلمي المحيط به، بينما يفترض أن يكون هناك ترحيب بالرأي لمناقشته، فيطرح كل عالم رأيه وأدلته.

إلا أن الواقع يحكي أمراً آخر، إذ إن الغالب لدى الفقهاء أن يكون طرحهم في حدود المشهور والمألوف، وإذا جاء عالم وكان له رأي يخالف الرأي السائد والمشهور، فإن عليه الاستعداد لمواجهة مشكلة بسبب طرحه لرأيه. لذلك فإن بعض العلماء يراعون هذه الحالة فيكتمون آراءهم خوفاً من بعضهم بعضًا، وهذا الخوف يتمثل في أمرين:

(١) مجلة (المجلة) عدد ٧٧١، مقال فهمي هويدي بعنوان (سجل غير مشرف للعلمانيين العرب).

الأمر الأول: حتى لا تتأثر مكانته بينهم: فالعالم الذي يخرج عن مألوف العلماء قد لا يُنظر له باحترامٍ وإكبارٍ، ولذا يضطر لمسايرة الحالة القائمة حتى يحتفظ باحترامه في وسط الشريحة التي ينتمي إليها.

ولهذه الحالة شواهد كثيرة في وسط علماء السنة والشيعة.

ومن تلك الشواهد: المرجع الراحل السيد الخوئي حين بدأ درساً في الحوزة العلمية في النجف في تفسير القرآن الكريم، توالت عليه الضغوط من بعض الأطراف لإثنائه عن توجهه لتفسير القرآن؛ لأن انشغاله بغير الفقه والأصول يقلّل من مقامه العلمي، وأثرت هذه الضغوط فتوقف عن التفسير الذي صدر منه مجلد واحد تحت عنوان (البيان في تفسير القرآن)، يقول الشيخ المطهري: (تشرّف أحد رجالنا الفضلاء بزيارة العتبات المقدسة، وعند رجوعه قال إنه تشرف بزيارة آية الله الخوئي حفظه الله، وسأله: لماذا تركت تدريس التفسير الذي كنت تدرسه في السابق؟ (كان لآية الله الخوئي قبل عدة سنوات درس في التفسير في النجف الأشرف، وقد طبع قسم منه)، فأجاب أن هناك موانع ومشكلات في تدريس التفسير، يقول : فقلت له : إن العلامة الطباطبائي مستمر في دروسه التفسيرية في قم. فقال : إن الطباطبائي يضحي بنفسه، أي إن الطباطبائي قد ضحّى بشخصيته الاجتماعية، وقد صحَّ ذلك .. إنه لعجيب أن يقضي امرؤ عمره في أهمّ جانب ديني، كتفسير القرآن، ثم يكون عرضة للكثير من المصاعب والمشاكل، في رزقه، في حياته، في شخصيته، في احترامه، وفي كل شيء آخر)[1].

والشهيد السيد محمد باقر الصدر حينما أراد أن يبدأ البحث الخارج كان مصمماً أن يبدأ في فقه العقود، وأن يبحث الموضوع بمنهج المقارنة مع القوانين الوضعية الغربية، وهذا خدمة كبيرة لفقه الاجتماع في الإسلام؛ إلا أن الضغوط توالت عليه،

(١) مرتضى مطهري. محاضرات في الدين والاجتماع، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، (بيروت: الدار الإسلامية)، ص٣٧٥.

بـأن بحثـه يجب ان يبدأ بكتاب الطهـارة كما هو المتعارف في الحوزة، فاسـتجاب لتلك الضغوط فصرف سـت عشـرة سـنة في بحث كتاب الطهارة، بدلاً من كتاب العقود، فخسـرت الساحة العلمية والفكر الإسلامي ما كان يمكن أن يشكّل إضافة علمية كبيرة، وقفزة نوعية في البحث الفقهي المقارن. تشبه إنجازه لأبحاثه المميزة (فلسفتنا) و(اقتصادنا) و(الأسس المنطقية للاستقراء) التي لم تستهلك منه أكثر من ثمان سنوات، يقول الشيخ حيدر حب الله: (التقيت بأحد أبرز تلامذة الشهيد السعيد محمد باقر الصدر «١٤٠٠هـ»، وهو من الفقهاء المعاصرين البارزين، وكان حديثٌ عن الفقه و.. فسـألته عن السـبب الذي دفع مفكّراً كبيراً كالسيد الصدر، وهو رجل المرحلـة، والعـارف بزمانه، أن لا يدرّس في حـوزة النجف آنذاك فقه الاقتصاد، أو فقه الأسرة، أو فقه العقود وأنظمة المال، أو فقه القضاء، وهي ملفّات شائكة وبالغة الأهميـة، وجميعنـا يعرف لو ولجها الصـدر بعقليته الفقهية و.. لقـدّم نماذج مهمّة تحتاجها الأمة وتنمو بها المعرفة، بل يستبدل ذلك كلّه بتدريس كتاب الطهارة، إلى مباحث الحيض، في مدّةٍ لا تقل عن ستة عشر عاماً، وما طُبع له في مباحث الطهارة على العروة الوثقى لم يكن سوى بعض تلك الدروس لا جميعها.

كان جـواب هذا الفقيه البارز أنّ بعض تلامذة الشـهيد الصدر هو من أقنعه بأن يدرّس كتاب الطهارة، مع رغبة الصدر في تدريس فقه العقود مقارناً بآخر النظريات الوضعية في الفقه الغربي، والسبب في ذلك أنّ الحوزة لن تعترف بك ـ أيّها الصدر ـ إذا درّسـت مباحـث جديدة، بـل علينا الشـروع بمباحث تقليدية حتـى يُصار إلى كسب الاعتراف، ثم الانطلاق بعد ذلك في المشروع الخاص، وهكذا شرع الصدر في مباحث الطهارة، ليدرّسها أكثر من ستة عشر عاماً.

كيـف يمكـن لنـا تصوّر حجم الخسـارة التـي مُنيت بهـا الحـوزة العلمية بهذه الخطـوة؟ لقـد صـرف الصـدر أقـلّ مـن نصف هـذا الوقـت ليكتـب «فلسـفتنا»، و«اقتصادنا»، و«الأسس المنطقية للاستقراء»، تلك المشاريع الثلاثة التي لا يحتاج

الأمر للحديث عنها، فلو صرف ستة عشر عاماً للتنظير للفقه الاجتماعي بأبعاده، ماذا كنّا وجدنا اليوم؟ كيف يمكن غفران هذا الحدث؟! ومن هو المسؤول عنه، وعن كثيرٍ من أمثاله؟!)[١].

فعالم الدين قد لا يعبر عن آرائه ولا يعمل بتوجهاته، مراعاة للمقام والاحترام في الوسط العلمي.

الأمر الثاني: المحاربة والإسقاط: في بعض الأحيان قد يخشى العالِم من إسقاط مكانته وإيذائه؛ لأن الصراع في الوسط الديني حادّ، ونحن نلحظ في التاريخ الماضي والحاضر كيف تحصل صراعات قاسية في سوء إدارة الخلاف في الرأي.

إن الصراع في الوسط العلمائي قد يتجاوز حدود النقاش والرد العلمي إلى إسقاط الشخصية والمكانة والتشكيك في الديانة والكفاءة. فحين يكون للعالم رأيٌ يُخالف المألوف قد يُخفيه خشية هذه التداعيات والمضاعفات.

وهناك نصوص دينية تشير إلى أن الوسط العلمائي كباقي شرائح المجتمع يبتلى بالأمراض، كالحديث المروي عن رسول الله ﷺ: (ستة يدخلون النار قبل الحساب بستة: قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: الأمراء بالجور، والعرب بالعصبية، والدهاقين بالكبر، والتجار بالخيانة، وأهل الرساتيق بالجهالة، والعلماء بالحسد)[٢]، ويقول الشيخ يوسف البحراني في الحدائق الناضرة: وردت جملة من الأخبار على حصول التحاسد بين العلماء خصوصاً زيادة على ما بين الناس، وينقل مضمون خبر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (خذوا بما يفتون ولا تنظروا إلى ما يقول بعضهم في بعض، فإنهم يتغايرون كما يتغاير النساء)[٣].

---

(١) مجلة الاجتهاد والتجديد. العدد الأول، حيدر حب الله ، الاجتهاد والتجديد قراءة في هموم الفقه الإسلامي المعاصر، (بيروت: مركز الدراسات الفقهية المعاصرة)، ص١١-١٢.

(٢) بحار الأنوار. ج٧٣، ص١٥٦.

(٣) يوسف البحراني. الحدائق الناضرة في العترة الطاهرة، ج١٨، الطبعة الثالثة١٤١٣هـ (بيروت: دار الأضواء)، ص١٤٥.

وكان المرجع الراحل السيد البروجردي يقول: (ليس ثمة ما يدعو للعجب، فالتقية من أصحابنا أهمّ وأعلى. أنا عن نفسي في أوائل بلوغي مرحلة المرجعية العامة كنت أظن أن عليَّ أن استنبط الأحكام وعلى الناس العمل بها، فما أفتي به يعمل به الناس، رأيت أن الأمر ليس كذلك)[1]، وحينما أفتى المرجع السيد محسن الحكيم بطهارة أهل الكتاب وجد معارضة كبيرة، والإمام الخميني حين أفتى بجواز الشطرنج من دون قمار وجد معارضة أيضاً، وكتب له بعض العلماء لماذا تعلن هذا الرأي ومعظم العلماء لا يقبلونه ولا يرضونه مما يثير الإشكالات ضدك؟

والسيد محسن الأمين العاملي حين طرح كتابه (التنزيه) حول الشعائر الحسينية حورب وأسقطت شخصيته في أوساط كثيرة.

فبعض الأجواء التي تسود الوسط العلمي تجعل العالم يتردد في طرح رأيه المخالف، أو رأيه الناقد.

والبعض يقول: على العالم أن لا يمس عقائد الناس، فذلك هو ما يثير الاعتراض عليه، وهذا الكلام مردود، فطهارة أهل الكتاب ليست مسألة عقدية، وقضية الشطرنج ليست عقدية، ثم إن القضايا العقدية أولى بالاهتمام وطرح الرأي من قبل العلماء، وأن تكون محل بحث ونقاش.

إن جوهر القضية تكمن في وجود من يريد الحفاظ على الرأي السائد عقدياً كان أو فقهيًا، ولا يكون هناك تغيير لهذه الآراء المألوفة.

الثالث: رأي وعواطف الجمهور

تحدث كثير من العلماء والمفكرين حول سيطرة العوام، أي عامة الناس، على آراء ومواقف العلماء، يقول الشهيد مرتضى مطهري: (ليس أمام مجتمعنا الديني سوى السكوت في موضع الكلام، والسكون في موضع الحركة، والنفي في

(١) الاجتهاد في الإسلام. ص٥٦.

موضـع الإثبات، لأن ذلك ينسـجم مع طبيعة العامة)[١]، وكما ينقل عن جوسـتاف لوبـون يقول: (واهمٌ من يناقش الجمهور بلغة العقل، إن الجمهور لا تعرف إلا لغة العواطف).

فالعاطفـة هي التي تسـير أكثر الناس، ولـذا يتّجه الكثير من العلماء للسـكوت عـن آرائهم التـي تُخالف ما هو سـائد ومألوف لـدى الجمهور، تفاديـاً لأي تحرّك ضدّهم، خصوصاً إذا كان في السـاحة منافسـون يُحرّكون الجمهور ضدّ أي جديد. يقول الشهيد مطهري: (لكل مجتمع آفته الخاصة به، إن الآفة التي أصابت مجتمعنا الدينـي بالشـلل وأقعدتـه عـن العمل هـي (الإصابـة بالعوام) وهي أشـد بـلاءً من الإصابة بالسـيول أو الزلازل أو لسع العقارب والحيات.. إن منظومتنا الدينية على أثـر إصابتها بهذه الآفة لا تسـتطيع أن تكون طليعة فتتحـرك أمام القافلة، وأن تهدي القافلـة بالمعنـى الصحيح، إنهـا مضطرة إلى التحـرك وراء القافلة. إن من سـمات العامة أنهم لا يفارقون القديم الذي اعتادوا عليه... ليس ثمة ما يلزم علماء الشـيعة ويجبرهـم على طاعـة الحكومـات، ولكنهم مضطـرون إلى مجـاراة أذواق العامة وعقائدها، للإبقاء على حسـن الظن بهم، وهذا منشـأ أغلب المفاسد الموجودة في السلك الديني الشيعي)[٢].

وأشـار الشـيخ الدكتور يوسـف القرضاوي إلى أن كثيراً مـن العلماء يحملون رأيهم في صدورهم ولا يبوحون به خشية الوقوع في الخلاف والاختلاف. وضرب مثلاً على ذلك بقول الشيخ محمد أبو زهرة في أحد المؤتمرات أنه عنده رأي كتمه عشرين عاماً ويريد أن يبوح به الآن. وقال: إنني كتمت بعض الفتاوى لسنين طويلة خشية أن يهاجمني المهاجمون، ثم بدأت أفصح عن هذه الفتاوى وأنشرها[٣].

(١) الاجتهاد في الإسلام ص٥٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٥.
(٣) الشرق الأوسط العدد ٨٠٩٩ بتاريخ ٥ ذو القعدة ١٤٢١ هـ الموافق ٣٠ يناير ٢٠٠١م.

وفي كثير من الأحيان يكون التنافس الداخلي بين طلبة العلوم الدينية ورأي العوام مانعاً لعالِم الدين، فلا يبوح بالرأي الذي يقتنع به، وهذا خطأ كبير، إذ يفترض في عالم الدين أن يمتلك الشجاعة مع الحكمة وتقدير الموقف، لكي يُعلن عن الرأي الذي يرى صحته.

والآراء لها بعدان:

الأول: شرعي، بمعنى موافقة الرأي للشرع أو مخالفته له.

الثاني: تشخيص الموضوع الخارجي، فإذا شخَّص هذا العالم أن المصداق الخارجي ينطبق عليه هذا الحكم، وتنطبق عليه هذه الفكرة، فعليه أن يمتلك الشجاعة ويعلن عن رأيه.

الرابع: التصنيف المذهبي

قد يكون التصنيف المذهبي عائقاً دون مجاهرة العالم برأيه، وينقل التاريخ الكثير من الحوادث لعلماء من السنة والشيعة. دفعوا ثمن جهرهم ببعض آرائهم بسبب صراعات الانتماء المذهبي. فمثلاً الحافظ النسائي صاحب الجامع المعروف بسنن النسائي، اتهم بأنه رافضي ومتشيع؛ لأنه ألّف كتاباً حول خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، بل أوذي وأصيب في جسمه أيضاً[1]. فبعض علماء السنة يخشى أن يصرّح برأيه حتى لا يتهم بالميل إلى الشيعة، وكذلك العالم الشيعي إذا كان لديه رأي فقد يكتمه؛ لأنه يخشى أن يتهم بالميل إلى السنة.

الرهان على تطور الوعي

لدينا مشكلة في الوسط الديني، وهي أن عالم الدين يرى أمامه عوائق وتحديات، تمنعه من أن يعبر عن رأيه، وفي اعتقادي أننا في عصرٍ يجب أن تقلّ فيه مثل هذه التحفظات؛ لأن الجمهور المسلم أصبح أكثر وعياً، والناس تثقفوا

(١) سير أعلام النبلاء، ج١٤، ص١٣٢-١٣٣.

وانفتحوا، وأصبحوا يشـخّصون مصالحهم، كما أن الذين يحملون الآراء التنويرية في الوسط الديني اتّسعت رقعتهم، ولذلك على عالم الدين أن يكون شجاعاً جريئاً. نعم، قد يحتاج إلى دفع الثمن حينما يتحدث برأي مخالف لما هو سائد عند الناس، وعليه أن يتحمل دفع هذا الثمن، فهذه مسؤولية شرعية.

وهنـاك اعتقاد بأن طرح الـرأي المخالف يُحدث زوبعة واختلافًا، لذلك يجب اجتنابه، لكن التسـليم بذلك يعني البقاء ضمن حالة الركود والسـكون، وهذا ليس في صالح الفكر الإسلامي، ولا في صالح المجتمعات الإسلامية، ولا يتناسب مع المسؤولية الشرعية الملقاة على عواتق العلماء والدعاة والمبلغين.

إن علينا أن نرشّـد اختلاف الرأي بين النـاس، وأن نتحمل الرأي الآخر، فليس كل رأي يخالف الرأي السـائد هو صحيح، إنه اجتهاد قد يكون صحيحاً وقد يكون خطـأ، ومـن حق صاحب الرأي أن يطرح رأيه، وعلى الناس أن يكونوا في مسـتوى الوعي والتحدي، وأن لا يسـتجيبوا لإثارة العواطف والتهييج والتحشـيد، ضد من يرى رأيا مخالفاً. بل يجب أن يكونوا في المستوى المأمول منهم، فيتأملون ويبحثون ويقبلون اختلاف الرأي، وما المانع أن يكون هناك رأي آخر واجتهاد آخر؟

فليـس لأحد الحـق في أن يمارس الوصايـة على الناس، إنمـا الوصاية للدليل والبرهان، كما هو منطق القرآن: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾[سورة البقرة، الآية: ١١١]، ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُـمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [سـورة الأنعام، الآية: ١٤٨]. فلا يجوز ممارسـة الوصاية على أفكار الناس، بل هو ظلم، وحكمٌ على الفكر والثقافة بالركود والجمود، وهو يخالـف مبـدأ الاجتهاد الـذي هو من أجل تجديـد الفقه، وتجديد الفكـر، ومواكبة تطور الزمن .

□ الإمام كاشف الغطاء نموذجاً

نتحدث عن عالم هو في طليعة النماذج لعالم الدين الشـجاع، فقد كان يطرح

رأيـه دون أي خـوف أو تردد، هذا العالم هو الإمام الشـيخ محمد حسـين كاشـف الغطاء بن الشـيخ علي بن الشـيخ محمد رضا بن الشـيخ موسـى بن الشـيخ جعفر المالكـي النجفي، وهو من مراجع الشـيعة في النجف الأشـرف، وفقيه من الفقهاء الكبـار، وإلـى جانب تبحره فـي الفقه، كان من كبار الأدباء في الشـعر والنثر، وكان فيلسـوفاً، ومن العلماء الذين جددوا علم الكلام، وتناولوا العقائد بأسـلوب وطرح عصري جديد، كما في كتابه (الدعوة الإسلامية).

ولد سنة ١٢٩٤هـ وتوفي سنة ١٣٧٣هـ عن عمر يناهز ٧٩ عاماً، من أسرة عريقة معروفة بالعلم؛ فأبوه الشـيخ علي كان معروفاً بشيخ العراقين، وجده الشيخ موسى كاشـف الغطـاء يُلقّب بمصلح الدولتين، حيث أصلح بين إيـران والعراق، في أزمة سياسية وقعت بينهما، وجده الأعلى الشيخ جعفر الكبير المعروف بكاشف الغطاء، لأنه ألف كتابا فقهياً مهماً تحت عنوان (كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء)، فعرفت الأسرة باسم الكتاب. فهي أسرة عربية عريقة من بني مالك تنحدر من مالك بن الأشتر النخعي صاحب الإمام علي عليه السلام.

يمتاز هذا العالم الفقيه بالجرأة والشجاعة في طرح الرأي واتخاذ الموقف، فقد كان تلميذاً للسـيد اليزدي صاحب (العروة الوثقى)، وساهم مع أخيه الأكبر الشيخ أحمد كاشـف الغطـاء في إعداد متـن (العروة الوثقـى) وكانا معتمدين عند السـيد اليزدي، حتى إنه عند وفاته جعلهما وصييه، وآلت المرجعية بعد السيد اليزدي إلى الشـيخ أحمد كاشـف الغطاء، وبعد وفاته أصبحت المرجعية للشيخ محمد حسين كاشـف الغطاء، فكان عالماً بطلاً شجاعاً. ولديه إنجازات في مختلف المجالات، وكان له دور سياسي بمشاركته في مقاومة الاحتلال البريطاني للعراق، وشارك في جبهة القتال، وبعد ذلك كانت مواقفه في الدفاع عن مطالب الناس أمام الحكومات المتعاقبـة في العراق، والبعض حذره من أن يتدخل في السياسـة، فقال: «إذا كانت السياسـة تعنـي الخديعة والمكر والانتهازيـة وطلب المواقع والمناصـب، فأنا أبرأ

إلـى اللـه منهـا، وإذا كانت السياسـة تعنـي الدفاع عـن مصالح النـاس والدفاع عن حقوق الناس وعن مصالح الأمة وعن مصلحة الوطن فإني غارق فيها من قرني إلى هامتي»، فكانت له مواقف سياسية كثيرة في الدفاع عن مطالب الشعب.

سـافر إلـى لبنان وأقام في سـوريا ولبنـان حوالي ثلاث سـنوات، والتقى عددًا مـن الشـخصيات والزعامات، وزار مصـر وألقى محاضرات في الأزهر، واشـترك فـي حركـة النهضة العربيـة مع الشـيخ أحمد طبارة، والشـيخ أحمد عـارف الزين، وعبدالكريم خليل، وعبدالغني العربي، ممن أعدمهم فيما بعد الوالي التركي جمال باشـا المعروف بالسـفاح. وكانت له صداقة مع الأديب المسـيحي المعروف أمين الريحاني، وحصلت بينهما مراسـلات ومطارحات في الفلسفة والأدب طبعت في كتاب (المراجعات الريحانية). وكان له تعليق على المجلة العدلية التي صدرت من قبل الدولة العثمانية لتقنين الشـريعة، وهي أول محاولة لتقنين الشـريعة الإسلامية، وتقديمهـا على شـكل تقنينات وأنظمة ضمن الفقه الحنفـي، وهو المذهب المتبنى من الدولة العثمانية، فأخذ الإمام كاشف الغطاء المجلة وعلّق عليها بآراء المذهب الجعفري، بحيث يكون تقنين الشـريعة موافقـاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام وطبعت في مجلدين تحت عنوان (تحرير المجلة).

من آراء كاشف الغطاء

ومن آرائه التي كانت مخالفة للسائد أنه كان من أوائل الداعين إلى تعليم المرأة، وإلـى الانتصـاف لحقوقها، والكثيـرون خالفوا هذا الرأي، لكنه دافع عنه، وشـجع على تعليم المرأة. ومن آرائه التي خالف بها السائد تصدّيه لبعض الممارسات التي كانت تُمارس في النجف، وفي بعض مناطق العراق، في بعض أوسـاط الشـيعة في اليـوم التاسـع من ربيـع الأول، فخطب الإمام كاشـف الغطاء في النـاس لمنع مثل هـذه الممارسـات وحاربهـا بقوة، فتلاشـت تلك الممارسـات المثيـرة، وكانت له كلمة مشـهورة ومتداولة يقول فيها: (بني الإسلام على دعامتين على كلمة التوحيد

وتوحيد الكلمة)، وشارك في المؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس سنة ١٣٥٠هـ الذي ضم أكثر من ١٥٠ من القيادات الإسلامية، وطلب منه مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني أن يخطب في المؤتمر، وفي جمهور الناس الذين أتوا إلى المسجد الأقصى آنذاك، في ليلة السابع والعشرين من شهر رجب، وهي ليلة مباركة مقدسة، وأن يصلي بالمسلمين صلاة العشاء، فتقدم وأمَّ جموع المسلمين في صلاة العشاء، ثم ألقى خطبة رائعة حول إنقاذ فلسطين، ومواجهة مخططات الصهاينة الذين يريدون احتلال فلسطين، وحول دعم أمريكا وبريطانيا للصهاينة، وكانت خطبة مؤثرة تركت صدى كبيراً، طبعت تحت عنوان (الخطبة التاريخية).

فالإمام كاشف الغطاء لديه الكثير من الآراء الجريئة التي كانت محل خلاف، وكان من آرائه جواز الزواج الدائم بالكتابية، وهو خلاف المشهور عند فقهاء الشيعة، الذي يرى جواز الزواج المنقطع لا الدائم.

وحينما صدر كتاب السيد كاظم الكفائي حول السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام، وسبّب إثارة للسنة في العراق، واعتقل السيد الكفائي، فأصدر الإمام كاشف الغطاء حكمه المشهور: «الكفائي يطلق، والكتاب يحرق»، فعاتبه بعض العلماء في حرق الكتاب، لكنه أجابهم: يحرق هذا الكتاب أفضل من أن تحترق مصلحة الوطن، وتحترق مصلحة الأمة، هكذا كان واعياً وثاقب النظر.

وقد ألف أكثر من ثمانين كتاباً، وأكثرها لم تطبع؛ وطبع منها:

١. الدين والإسلام أو الدعوة الإسلامية.
٢. أصل الشيعة وأصولها.
٣. المراجعات الريحانية.
٤. التوضيح في بيان ما هو الإنجيل ومن هو المسيح.
٥. الميثاق العربي الوطني.

٦. المثل العليا في الإسلام.

٧. محاوراته مع السفيرين البريطاني والأمريكي.

٨. تحرير المجلة.

٩. جنة المأوى.

١٠. رسالته العملية الفقهية.

ولدينا العديد من النماذج المشرقة والواعية من العلماء، الذين ما كانوا يترددون في أن يعلنوا رأيهم بشجاعة وبطولة، ويدفعون الثمن، وحين يتكلم عليهم الناس، وتقل مكانتهم عندهم، لا يهمهم ذلك، فالمهم عندهم رضا الله سبحانه وأداء الدور والمسؤولية؛ لأن العالم مسؤول أمام الله سبحانه وتعالى عن تبليغه لما هو مقتنع بأنه تعبير عن رأي الشرع، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾.

والخوف هو الذي منع الكثير من العلماء والفقهاء من أهل الكوفة أن يتعاطفوا وأن ينصروا سيد الشهداء أبا عبد الله الحسين عليه السلام، مع أن الكوفة فيها فقهاء وعلماء حضروا تحت منبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ولكن حينما كان الموقف يحتاج إلى شجاعة وتضحية، فإن الكثير منهم قد نكصوا، وسادت تلك المقولة: (إن الحسين سلطان ويزيد سلطان وما لنا والدخول بين السلاطين)، لكن أصحاب البصائر مثل زهير بن القين ومسلم بن عوسجة وحبيب بن مظهر الأسدي رضوان الله تعالى عليهم، هؤلاء استعدوا للتضحية واتخذوا الموقف المناسب.

وحبيب بن مظهر الأسدي من تلامذة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن قراء القرآن والمتهجدين بالأسحار، كان ينتظر على أحرّ من الجمر أن تتاح له الفرصة لنصرة أبي عبد الله الحسين، لذا حينما جاءه الخبر عن وصول الإمام الحسين قرب الكوفة عزم على الخروج، وحذّره بعض القريبين منه، حيث جاءه

عمه وقال له: سمعت أنك تريد الخروج إلى كربلاء؟ فطمأنه حبيب بأنه لن يخرج! ولما سمعت زوجته قالت له : ألا تذهب؟؟ يأتيك الرسول برسالة من الحسين يطلب نصرتك فلا تذهب إلى نصرته؟ كيف لا تذهب لنصرة الحسين ابن بنت رسول الله، فأراد أن يمتحنها قائلاً: أخشى أن تترملين بعدي؟ قالت: دعني آكل التراب واذهب لنصرة أبي عبد الله الحسين.

شخصية الفرد

- ☐ بين الفردية والجمعية
- ☐ استقلالية الفرد ومحورية القيم
- ☐ الفرد الأمة

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة النحل: الآية ١٢٠].

□ بين الفردية والجمعية

في المجتمعات القديمة لأوروبا كان الإنسان يعيش الذوبان في المجتمع، لا شخصية له، ولا استقلال، ولا رأي، ليس من حقّه أن يكون له فكر خارج الفكر السائد في المجتمع، ولا أن يكون له رأي مخالف للرأي السائد، فهو في الأساس ليس بحاجة لكي يستخدم عقله وفكره، فالجماعة قد فكرت عنه، وما عليه إلا أن يأخذ رأي الجماعة، وإذا ما تجرأ إنسانٌ على الخروج عن ذلك، وكان له رأي في أي شأن من الشؤون خارجاً عن الرأي السائد، فإن مصيره التنكيل، وقد يكون الإعدام، فقد أعدم آريوس(٣٣٦ - ٢٥٦ م) حينما كان له رأي مخالف للقول بألوهية المسيح.

وأيضاً الطبيب الأسباني ميخائيل سيرفيتوس١٥١١ـ ١٥٥٣م الذي رفض ألوهية المسيح بشدة اتهمته الكنيسة بالهرطقة واعتقلته ثم أعدمته حرقاً.

ونجد أن الكنيسة عقدت محاكم التفتيش ليس فقط حول الآراء الدينية بل حتى حول الآراء الطبيعية، فغاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢م) حينما قال بحركة الأرض حكموا عليه بالإعدام. وقد بلغ عدد الذين حكمت عليهم الكنيسة بسبب آرائهم العلمية والطبيعية المختلفة أكثر من ٣٠٠٠٠٠ شخص منهم ٣٢٠٠٠ شخص أعدموا بالإحراق؛ لأنهم كانوا يتجرؤون ويبدون رأياً مخالفا للرأي السائد.

ومـن الناحية السـلوكية أيضاً لم تكـن أمام الفرد خيـارات، فالجماعة هي التي تحدد سـلوكه، فليس هو الـذي يقرر الزواج، أو بمـن يتزوج، وليس هو الذي يقرر ماذا يعمل، سلوكه محكوم بالعادات والأعراف التي تسير عليها الجماعة، ولا يحق لـه أن تكون لـه غاية أو تطلع غير التطلـع العام للجماعة، فـي مختلف المجالات، ويطلـق علـى هـذه الحالة مـن التبعيـة والذوبان للفـرد حالـة القطيع، التـي يمكن تلخيصها في الآتي:

١. فكرياً لا يتمتع باستقلال ولا يخرج عن الإطار.

٢. غائياً لا يمكن أن يكون له تطلع أو هدف شخصي يصبو إليه.

٣. سلوكياً مؤطر بالعادات المفروضة.

٤. شخصياً ليست أمامه خيارات متعددة لأسلوب حياته.

هـذه الحالـة المفرطة في الـروح الجمعيـة أوجدت ردة فعل شـهدتها عصور التنويـر في أوروبـا، ومن أوائل الأمور التـي بدأت فيها انطلاقة الإنسـان الأوروبي هو رفض هذه الحالة، حتى قال أحد مفكري التنوير: «إن الروح الجمعية هي الشـر المطلق، وهي مصدر آلام الإنسـانية والإنسان، وعمل التنويريون على مقاومة هذه الروح الجمعية وإثارة النزعة الفردية في نفس الإنسان».

وهنـا بدأ يبـرز مفهـوم الفردية، ويطلقـون عليه أيضـاً الفردانيـة، ويقصدون به أولويـة الفـرد، وتعني أن الإنسـان هـو أولى من الجماعـة، يفكر في نفسـه قبل كل شـيء، وفوق كل شـيء، تكون له حريته في الرأي والتفكير والاعتقاد، وفي التعبير عن رأيه وقراراته، وفي توجهاته وسلوكياته، فله حرية مطلقة كاملة.

والقـول بالحريـة الشـخصية الفردية المطلقة فـي مختلف الأبعـاد بلا حدود، تتمثل في:

١. الإقرار بحرية الفرد وحقوقه في التفكير والرأي والاعتقاد بشكل

مطلق.

٢. حقه فيما يختار من نمط الحياة وأن يصوغ وجوده بإرادته ورغبته.

٣. استقلالية كيانه وتمتعه بميزاته.

٤. تقديم مصلحة الفرد على المجتمع.

التطرف في الفردانية

وانتشار هذا المفهوم هو الذي أطلق الإنسان في أوروبا من حالة الأسر والجمود التي كان يعيشها في المجتمعات الإقطاعية، وفي ظل سيطرة الكنيسة، وقد رافق هذه الحالة تمرد على الدين؛ لأن الدين الذي تمثله الكنيسة كان مباركاً ومؤيداً للحالة الاستبدادية السائدة، وهذه الحالة الجديدة التي تعني مقاومة الروح الجمعية وسيادة الفردية أو الفردانية، أصبح فيها مبالغة وغلو وتطرف، فبدأت تفرز سلبيات كثيرة في المجتمع الأوروبي، ومع مرور الوقت اتسعت رقعة آثارها السلبية، ومنها:

١. **ارتفاع مستوى الأنانية**: فقد أصبح الإنسان في أوروبا يعيش كثيراً من المشاكل النفسية والحياتية والاجتماعية بسبب غلبة الحالة الفردية، وتعززت حالة الأنانية عند الفرد، فلم يعد يفكر في غيره، حتى في أقرب المقربين إليه.

٢. **غلبة الروح المصلحية**: فالتفكير المصلحي أصبح حاكماً على الإنسان، والمهم هو الربح بأي طريقة وبأي وسيلة.

٣. **غياب القيم وتلاشي الروح الدينية**: فليس هناك حساب للقيم، ولا حساب للعواطف، فقد غابت المعايير الأخلاقية، والمشاعر الإنسانية التي كانت في المجتمعات التقليدية السابقة.

ومـن نتائج هذه الآثار السـلبية: حالات القلـق، والانتحـار، والكآبة، ومظاهر العنـف والإجـرام، والتفـكك العائلـي، والانحـلال الأخلاقي. هذه المآسـي التي يعاني منها الغرب بسبب التطرف في ممارسة الحالة الفردية، التي جاءت كردة فعل لحالة القطيع الجمعية السائدة في المجتمعات التقليدية السابقة.

وفي الحقيقة هناك علاقة جدلية بين الفردية وبين الجمعية، فهل يذوب الإنسان الفرد في المجتمع وينسـحق كما كان في المجتمعات التقليدية السـابقة؟ أو يعيش حالة الفردية والأنانية كما هي الحالة الآن في المجتمعات المادية في الغرب لتغيب العواطـف، وتتفكك الأواصر العائلية والاجتماعية، فلا الآباء يُفكّرون في الأولاد، ولا الأولاد يفكّرون في آبائهم، ولا الجار يفكر في جاره؟

بالطبـع كلا الحالتيـن خطأ، فـلا حالة الانسـحاق والذوبان التي كانت سـائدة في المجتمعات الإقطاعية سـليمة؛ لأنها كانت تقتل روح الإبداع، وطاقة الإنسـان وقدرته، وتصادر شـخصيته وقيمته. ولا حالـة الأنانية الموغلة في الاتجاه الفردي؛ لأنها تسلب الإنسان إنسانيته، فيعيش في مجتمع مادي استهلاكي، ليصبح شيئاً من الأشـياء حتى في المجالات التي يفترض أن تتجلى فيها الحالة الإنسـانية، كمجال الطب، والعلاقات الأسرية.

وهـذه الحالة المصلحية الربحية التي تتعامل مع الإنسـان كشـيء من الأشـياء خـارج القيم الأخلاقيـة والعواطف والمشـاعر الإنسـانية، هي البـلاء الأكبر الذي يعيشه إنسان هذا العصر؛ فما هي رؤية الإسلام؟

استقلالية الفرد ومحورية القيم

كان الإنسـان العربي قبل الإسـلام يعيش حالة تشـبه حالة الإقطاع في التاريخ الأوربي، حيث كان جزءاً من القبيلة، فشـيخ القبيلة هو الذي يفكر ويقرر ويحكم، ولم تكن للفرد العربي استقلالية داخل قبيلته، فالأمور كلها بيد شيخ القبيلة، فمثلاً

هو الذي يقرر الحرب ويأمر بالسير للقتال، ولا يحق للفرد المناقشة وإبداء الرأي. وأن يتساءل لماذا نقاتل؟ أو من نقاتل؟ وبالرغم من وجود بعض الأخلاقيات في القبائل العربية إلا أنها ضمن حدودٍ معينة، وخاضعة للروح الجمعية، التي تلغي الفرد كفرد.

ولما جاء الإسلام رفع رسول الله ﷺ لواء تحرير الإنسان من هذا الواقع الذي كان يعيشه، حيث قرر الإسلام استقلالية الفرد، وأنه يخضع للقيم التي يؤمن بها من وحي فطرته وقناعته، وهي قيم الخير والحق والعدل، المنبثقة من القيمة الأساسية، وهي العبودية لله سبحانه وتعالى.

فالإسلام حرّر الإنسان من العبودية للحالة القبلية، والحالة المجتمعية السلبية، ومن الخضوع لهيمنة الزعامات، ونلحظ ذلك في عدة مظاهر:

أولاً: تأكيد الإسلام على مسؤولية الفرد عن نفسه وعن قراراته وأعماله أمام الله يوم القيامة، فلا يُحاسب زعيم القبيلة نيابة عن قبيلته، ولا يُسأل رب العائلة بدلاً عن أفراد عائلته، وإنما كل شخص هو مسؤول مباشرة أمام الله سبحانه، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية١١١]، ويقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [سورة عبس: الآيات ٣٤-٣٧]، ويقول تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ [سورة مريم:الآية٩٥]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [سورة الأنعام: الآية٩٤]، هذه الآيات تريد أن تقول للإنسان: أنت لك شخصية، وأنت صاحب قرار، ومسؤول عن قراراتك، وعن مستقبلك، ومحاسب على أعمالك أمام الله سبحانه وتعالى.

هذا ما توحيه الآيات الكريمة، بإلفات الانسان إلى استقلاليته وكيانيته.

ثانياً: التأكيد على محورية القيم، فأنت تخضع للقيم فقط ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا

إِيَّـاهُ﴾ [سـورة يوسـف: الآيـة ٤٠]، أي لا تخضـع لأي شـيء آخـر، ولا أحد في الدنيـا لـه حق الهيمنة عليك، ولا يصح لـك أن تخضع له، ولذلك عنوان الإسـلام شـهادة التوحيد (أشـهد أن لا إله إلا الله)، وهذه الشـهادة التي يكررها الإنسـان المسـلم دائماً وأبداً، معناها ألا يقبل أي سـلطة عليه إلا الله، أو السلطة المنبثقة من أمر الله التي يقبلها الإنسان، انطلاقاً من إيمانه بضرورة النظام في المجتمع، وحينما تكون السلطة مستحقة لكي يخضع لها، هكذا يكون الإنسـان المسلم، لا يخضع إلا للقيم، وما عدا ذلك فلا طاعـة لمخلوق في معصية الخالق، أي ليـس هناك أحد يطاع ويخضع له إلا ضمن القيم والمعايير.

ثالثاً: تشريع استقلالية الإنسان، فمن الناحية التشريعية شرع الإسلام استقلالية الإنسان، حيث تؤكد القوانين الإسلامية على استقلالية الإنسان من حيث الـرأي والتفكير، يقول تعالى: ﴿لا إِكْـرَاهَ فِي الدِّينِ﴾، فلا يصح أن يفرض على الإنسان رأي أو فكر، حتى النبي المرسل من قبل الله تعالى لا يحق له أن يسـلب الإنسان حرية تفكيره، واختياره الفكري، يقول تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَسْـتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾ [سـورة الغاشـية: الآيتان ٢١ -٢٢]. أنت تؤمن بالرأس الذي تقتنع به، وتتحمل مسؤولية إيمانك ورأيك، ولا يحق لأحد أن يفرض عليك رأياً.

وحقوقك مضمونة ضمن التشـريعات الإسـلامية؛ لأنك مسـلَّط على نفسك، الناس مسـلَّطون على أموالهم وأنفسهم، كما تقول القاعدة الفقهية، ولا يحق لأحدٍ أن يكره إنساناً أو يجبره على شيء، فهذا حرام وممنوع وهو ظلم وعدوان.

المفاهيم والتقاليد الجاهلية

فالإنسـان هو من يتخذ القرارات لنفسـه، هو صاحب القرار، لا أحد يقرر نيابة

عنه. إلا أنه مع الأسف الشديد فإن المجتمع الإسلامي بعد فترة من الزمن بدأت تعود إليه بعض العادات التي كانت في الجاهلية، وذلك حينما حكمت المسلمين حكومات مستبدة، فعادت للناس الحالة الجاهلية، وأصبحوا يمارسون الأساليب الجاهلية شيئاً فشيئاً، مما أفقد الناس في المجتمعات الإسلامية حريتهم، وعاشوا في ظل استبداد سياسي وفكري وديني واجتماعي، وأصبح الإنسان في غالب فترات تاريخنا الإسلامي، وإلى اليوم يعاني من الانسحاق في شخصيته. أضف إلى ذلك سطوة الأعراف والعادات والتقاليد، فتجد نفسك محكوماً بسلطة سياسية ودينية وبعادات وتقاليد اجتماعية، ويرى الإنسان نفسه مقيداً أسيراً، لا يستطيع أن يشعر باستقلاليته أو بذاته، وهذا بسبب الانحراف عن منهج الله.

إن تعاليم الإسلام ليست كذلك، إذ إنها تؤكد على حرية الإنسان، وحقه في اتخاذ القرار الذي يراه مناسباً، وكشاهد على ذلك العلاقة بين الولد والوالدين، فعندما يكون الإنسان صغيراً، هناك ولاية للأب عليه، أو للجد من قبل الأب، وهذا موجودٌ في كل الأنظمة والقوانين الدينية والوضعية، أما إذا بلغ الإنسان وصار يتحمل مسؤوليته، فقد أصبح مكلفاً راشداً، وحينها يتخذ قراراته بنفسه، ولا يحق حتى للوالدين أن يفرضا على الولد قراراً هو لا يريده ولا يرغبه.

وهنا يشتبه البعض في هذا الأمر ويخلطه بالبر بالوالدين، والنهي عن عقوق الوالدين، وهذا ليس بالمطلق، فالفقهاء يقولون: «لم ينهض دليل على وجوب إطاعة الوالدين على سبيل الاطلاق على حد إطاعة العبد لسيده. نعم تجب المعاشرة الحسنة والمصاحبة بالمعروف على ما نطقت به الآية المباركة، فلا يجوز العداء والإيذاء، وأما الوجوب والتحريم بمجرد الأمر والنهي فضلًا عن لزوم الاستئذان في كافة الأفعال، وإن لم يترتب على تركه الايذاء خصوصًا لو صدر من غير اطلاع منهما أصلًا، فهو عار عن الدليل. أجل قد ورد في بعض النصوص أنه إن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل، ولكن أحدا لا يستريب في أن هذا حكم أخلاقي،

وليس بتكليف شرعي كما هو واضح جدًّا»[١].

فمثلاً في موضوع الزواج، يحق للولد الذكر إذا كان بالغاً راشداً أن يتخذ قرار زواجه وبمن يتزوج؟ وكيف يتزوج؟ فهذا قراره هو، جاء ابن أبي يعفور وسأل الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إني أريد أن أتزوج امرأة وإن أبوي أرادا غيرها، قال: تزوج التي هويت ودع التي يهوي أبواك »[٢].

فلا توجد سلطة من الناحية الشرعية للوالدين على الولد. وهنا قد تحصل بعض المشاكل في المجتمع، كأن يغضب أب على ابنه ويعتبره متمرداً لأنه تزوج من عائلة أو من امرأة هو لا يريدها، وهذا يدخل ضمن باب إعانة الولد على العقوق، ورد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «لعن الله والدين حملا ولدهما على عقوقهما»[٣]، وفي كلمة تنقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم»[٤].

ظلم المرأة باسم الدين

أما بالنسبة للفتاة وقرار الزواج، هناك آراء عند الفقهاء، بعض فقهائنا يرى أن البنت البالغة الرشيدة أيضًا تستقل بقرار الزواج، وهي تقرر من تتزوج، وإذا وافقت هي فلا ولاية لأبيها أو جدها عليها، وهناك رأي آخر وهو الرأي المشهور عند الفقهاء المعاصرين يقضي بضرورة موافقة ولي الفتاة سواء كان الأب أو الجد للأب، أما غيرهما فلا ولاية لهم عليها، مثل الإخوان والأعمام ـ هذا في فقه مذهب أهل البيت ـ أما جمهور أهل السنة فيرون أن عصبتها أيضاً لهم ولاية عليها. عدا

(١) السيد أبو القاسم الخوئي. مستند العروة الوثقى، كتاب الصلاة، ج٨، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ (قم: المطبعة العلمية)، ص١٠٦.

(٢) الكافي. ج٥، ص٤٠١.

(٣) من لا يحضره الفقيه، ج٤، ص٣٧٢.

(٤) ابن أبي الحديد. شرح نهج البلاغة ج ٢٠ ص ٢٦٧.

الأحناف فهم يرون استقلال المرأة البالغة العاقلة الرشيد بالولاية على نفسها في النكاح.

من جانب آخر، فإن هذه الولاية لا يصح أن تكون سبباً للعضل، وتفويت فرصة الزواج على البنت بمن ترغب من الأكفاء، ففي كثير من الأحيان، نلاحظ حالات من استغلال البعض لهذه الصلاحية الشرعية، فيعضل الأب ابنته لسبب أو لآخر، وخاصة إذا كانت هناك مشاكل عائلية بين الأب والأم فيكون الانتقام بإعضال البنت، وفي بعض الأحيان لا تقتصر المشكلة على موقف الأب بل قد يتدخل أخ من إخوانها، أو عمها، أو خالها، أو زوج أختها، ليقف حجر عثرة أمام إنجاز زواج الفتاة وتحقيق رغبتها، والحوادث في هذا الصدد كثيرة، وهذا لا يجوز شرعاً.

وفي هذا السياق نقلت جريدة اليوم السعودية القصة التالية:

(لم تكتمل فرحة عروس سجن الدمام مساء أمس بعدما كانت الفرحه تملأ أركان إدارة السجن وهم يلعبون دور العائلة وبعد أن اتجهت إلى المحكمة لعقد قرانها يصحبها آمر السجن لتحقيق حلمها لتجمع فرحتين في آن واحد: فرحة خروجها من السجن وفرحة زواجها من شاب خارج أسوار السجن قبل بها وأرادها زوجة له في غياب تام لأهلها، وعلى ذات الصعيد جهّزت إدارة السجن العام بالدمام كل الوسائل لإتمام زواجها من تجهيز سيارة العرس وأوراق الخروج التي وضعها مدير السجن أمامه لتنتهي باتصال من وفد السجن إلى المحكمة باعتراض أحد إخوتها على الزواج مما ساهم في هدم عش الزوجية المنتظر وعدم خروجها إلا بولي الأمر. وأكد العقيد عبدالرحمن العقيل آمر السجن بأن العروس انتهت من محكوميتها وننتظر الزوج كولي أمر كي يعقد عليها ويأخذها معه حيث عقد عليها مؤخرًا وننتظر اليوم بعض الإجراءات المتعلقة في المحكمة والتي تخص الطرفين ونزفهما[1]).

(١) جريدة اليوم السعودية. الصادرة بتاريخ الخميس ٢٩ ذو القعدة ١٤٢٩هـ الموافق ٢٧ نوفمبر ٢٠٠٨م، العدد ١٢٩٤٩.

هكـذا تمنع امرأة من تحقيق رغبتها في بناء حياة زوجية مسـتقرة لتبقى في السـجن بسبب اعتراض أخيها، وهو اعتراض ما كان ينبغي أن يُقبل أو يُؤخذ به.

وهنـاك بعـض الآراء الفقهيـة عنـد بعـض المذاهب الإسـلامية حـول مراعاة التكافؤ بين الزوجين نسـباً، مما يعطي مبرراً لتدخـل الأقرباء، حيث يعترض بعض أقربائها بأن هذا الخاطب الذي تريده البنت لا يكافئنا نسـباً، وقد سـبب ذلك الكثير من المشـاكل، وهو تدخل في قرار الإنسـان واستقلاليته، كما هو تكريس للتفاضل القبلي والطبقية في المجتمع.

إن الإسـلام يصون استقلال الإنسان، وعلى الآباء أن يراعوا هذا الجانب، وأن لا يتعـدوا حدودهـم، وعليهم أن ينصحوا أبناءهم حيـن يختلفون معهم في الرأي، دون أن يفرضوا عليهم القرار فيما يرتبط بشؤونهم الخاصة.

وكذلـك بين الـزوج وزوجته، ففي بعـض الأحيان يمارس الـزوج هيمنةً على زوجتـه، فيسـحق شـخصيتها، وهـذا لا يصـح، فالزوجـة إنسـان لها كامـل الحرية والشـخصية والأهليـة، وللـزوج عليها حقان: (حق الاسـتمتاع) وهو حق مشـترك بينهما، وحق آخر وهو (عدم الخروج من بيته بغير إذنه)، على تفصيل عند الفقهاء، فبعض الفقهاء يقول: إن هذا الحق، ليس مطلقاً فإذا كان خروجها يزاحم حق الزوج لا يصـح لهـا أن تخرج إلا بإذنه، أما إذا لم يكن يزاحـم حق الزوج فليس معلوماً أن عليهـا أن لا تخـرج إلا بإذنـه، وما عـدا ذلك فالمـرأة حرة، لا يصح لـك أن تلزمها برأيك وموقفك وفكرتك.

قبـل فتـرة نشـرت إحدى الصحف أن شـخصاً في مكـة طلق زوجتـه لأنها في إحـدى المباريـات تؤيـد نـادي الأهلـي، وهـو يؤيد نـادي الوحـدة فطلقهـا، وفي بنغلاديش نشروا أن ست نساء كن ضحايا الطلاق لأنهن رشحن مرشحين للبرلمان غير مرشـحي الأزواج، وهناك بعض الحالات لدينا حول التقليد، مثلاً يفرض على زوجته أن تقلد المرجع الذي يقلده، وهذه مسـألة شـرعية ليس للرجل حق الفرض

على الزوجة، فهي لها قناعتها ورأيها وفكرتها.

لا تفقد استقلاليتك

رابعاً: التحصين من الوقوع في أسر الآخرين، من ناحية أخرى فإن الإسلام يحصن الإنسان من الوقوع في أسر المجتمع خارج القيم، إذ على الإنسان ألا يقع في الأسر، وألا يصبح كأنه فرد في قطيع، ورد عن الإمام الكاظم عليه السلام: «أبلغ خيرًا وقل خيرًا ولا تكن إمعة، قلت: وما الإمعة؟ قال: لا تقل أنا مع الناس وأنا كواحدٍ من الناس»[١].

يُحكى أن الأصمعي مرّ على جماعة وهم يضربون رجلاً يقول: رأيت أحدهم وهو أشدهم ضرباً عليه، فأمسكت به، وسألته: ما جريمة هذا الرجل حتى تضربونه؟ قال: والله لا أعلم، رأيت الناس يضربونه فاشتركت معهم.

وقد تجد إنساناً لديه موقف ضد إنسان؛ لأن الناس يتكلمون عليه، من دون التأكد من الكلام، فتكون معاداته وموقفه تجاهه من غير مبرر، أنت كإنسان مطالب يوم القيامة أمام الله، ومسؤول عن موقفك ورأيك. فعليك ألا تقبل فكرة، ولا تقوم بعمل، ولا تأخذ موقفاً إلا إذا تأكدت أن ذلك منسجم مع القيم والمبادئ، ففي كلمة رائعة ينقلها الإمام الصادق عليه السلام عن النبي عيسى ابن مريم عليه السلام يقول: «كونوا نقاد كلام، خذوا الحق من أهل الباطل، ولا تأخذوا الباطل من أهل الحق»[٢]، فمجرد أن هذه الفكرة سائدة لا يعني ذلك أن تعفي نفسك من التفكير فيها، فلماذا تترك الآخرون يفكرون عنك؟ فقد أعطاك الله عقلاً، ويجب عليك أن تفكر. وقد تكون فكرة صحيحة يقولها أهل الباطل فعلينا أن نقبلها؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها، فهو أحق بها. أما إذا صدرت فكرة خطأ من جماعة من أهل

(١) الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني. تحف العقول عن آل الرسول، الطبعة الخامسة ١٣٩٤هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي)، ص٣٠٤.
(٢) بحار الأنوار ج٢ ص٩٦.

الحق، فلا يصح قبولها مع خطئها لمبرر صدروها من قوم صالحين، ورد عن علي عليه السلام: «لا يعرف الحق بالرجال»[١].

فعلى الإنسان أن يتحصن تجاه التأثيرات السلبية، حتى من الوالدين، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ «سورة لقمان: الآية ١٥»، وكذلك إذا صدر كلام عن زعامة من الزعامات، عليك ألا تقبل الكلام على علاته، فالله سبحانه وتعالى ينقل عن مثل هؤلاء الناس حديثهم يوم القيامة: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾ [سورة الأحزاب:الآية ١٦٧]. ويقول تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [سورة البقرة:الآية ١٦٦].

فعلى الإنسان أن يحصن نفسه كي لا يفقد استقلاليته، ولا يصبح فريسة للآخرين، فمن المشاكل التي نعانيها أن الإنسان يجد نفسه مسيّراً لبعض العادات والأعراف والتقاليد على حساب مصلحته، ففي بعض الأحيان قد يحمّل نفسه ديوناً باهظة استجابة لبعض الأعراف السائدة وخوفاً من حديث الناس عنه، وهذه الحالة حاضرة أكثر في الوسط النسائي رغم أن أغلبهن غير مقتنعات ببعض ما يلتزمن به من أعراف وعادات.

لماذا نحن بهذه الطريقة؟ هذه العادة السيئة في حفلات زواج النساء مثلاً، إذ يمتد الحفل إلى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد منتصف الليل، بينما تجد الرجال ينتهي حفلهم الساعة الحادية عشرة مثلاً، من الذي قال أن نخضع لهذا العرف على حساب وضع العوائل، وحساب الأمن الأخلاقي الاجتماعي، خاصة وأن الحفلات تكون في مزارع وصالات بعيدة، وفي الغالب يكون هناك سائق أجنبي للنساء.

بعض الناس يبدي عدم ارتياحه لهذه الحالة، إلا أنه يخضع لها ويُبرر ذلك بقوله: ماذا أعمل؟ لا يرضى الناس إلا بذلك، فهذا الشيء هو المتداول.

(١) بحار الأنوار ج٤٠ ص١٢٦.

لماذا لا يتحدى الواعون هذه العادات السلبية؟ ولماذا لا يتمرد الإنسان ضدها؟ لتنشأ عادات جديدة أفضل منها، وليتجاوز مجتمعنا هذه القيود والأغلال التي تضر بالفرد والمجتمع على حدٍّ سواء.

□ الفرد الأمة

النبي إبراهيم الخليل عليه السلام أبو الأنبياء، يحكي القرآن عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، بمعنى أن هناك فرداً يكون منسحقاً في المجتمع، وهناك فرد يكون هو المجتمع، فشخصيته كشخصية أمة. عندنا الكثير من النصوص التي تقدم بعض الأفراد باعتبارهم يمثلون الأمة، أو باعتبارهم يوازون حجم المجتمع كله، ونجد هنا ما قاله نبينا محمد صلى الله عليه وآله في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في واقعة الخندق حين خرج عمرو بن عبد ود وهو مقنع بالحديد فنادى: من يبارز؟ فقام علي بن أبي طالب فقال: أنا لها يا نبي الله. فقال إنه عمرو، اجلس. ثم نادى عمرو: ألا رجل يبرز؟ فجعل يؤنبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها أفلا تبرزون إليَّ رجلاً؟ فقام علي فقال: أنا يا رسول الله؟ فقال: اجلس. ثم نادى الثالثة، فقام علي فقال: يا رسول الله أنا. فقال: إنه عمرو، فقال: وإن كان عمراً[١]، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله كلمته العظيمة الخالدة: «برز الإيمان كلُّه إلى الشرك كلِّه»[٢]، فعلي عليه السلام يُمثّل الإيمان كله، وأكثر من ذلك، فحينما انتصر الإمام علي عليه السلام وقتل عمرواً، قال النبي صلى الله عليه وآله: «لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ود يوم الخندق أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة»[٣]، وقال صلى الله عليه وآله لعمار بن ياسر: «إن رأيت عليًّا قد سلك وادياً وسلك الناس وادياً غيره فاسلك مع علي ودع الناس»[٤].

---

(١) البداية والنهاية. ج٤، ص١٢١.
(٢) بحار الأنوار. ج٢٠ ص٢١٥
(٣) المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص٣٤، حديث٤٣٢٧.
(٤) كنز العمال. ج١١، ص٦١٣، وأيضاً ينابيع المودة للقندوزي ج١ ص ٣٨٤.

وعندنا في الشعر العربي، حديث عن بعض الأشخاص الذين كأنهم يمثلون المجتمع كله بما يمتلكون من صفات متميزة، يقول أحد الشعراء:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

ويمتدح شاعر أحد العظماء فيقول:

لو زرته لرأيت الناس في رجل والدهر في ساعة والأرض في دار

فبعض الأشخاص يمثلون أمة ومجتمعاً بكامله، والسؤال: متى يكون الفرد أمة؟

هناك حالات يتجسّد فيها هذا المصداق، منها:

من يفجِّر طاقته وكفاءته

كل إنسان عنده كفاءات وطاقات، فإذا فجرَّ كفاءته وطاقته يستطيع أن يحدث تأثيراً كبيراً، يرجح على تأثير الملايين من الناس، فيكون أمة بتأثيره وتفجيره لطاقته وكفاءته.

فهذا أديسون (١٨٤٧ـ ١٩٣١م) مخترع المصباح الكهربائي تغير العالم من بعده، يعني أن العالم بعد أديسون غير العالم قبله، مئات الاختراعات قدمها، وقد كان إنساناً فاشلاً في دراسته، دخل المدرسة لثلاثة أشهر فقط، ولم يستمر في الدراسة، وكان يعاني من إعاقة في السمع، لكنه غيّر وطوّر العالم عبر مخترعاته.

بإمكان الفرد أن يكون كذلك حينما يفجر كفاءاته في أي مجال من المجالات.

من يتحلى بروح المبادرة

حين يبادر الإنسان ويعمل عملاً مميزاً، فيكون أمة بمبادرته، وكم من الأشخاص بمبادراتهم غيروا وجه التاريخ.

فهذه المرأة التي يحكى عنها في أمريكا (روزا باركيس ١٩١٣ – ٢٠٠٥م) التي

كانت تعيش ضمن واقع التمييز العنصري الذي يفصل البيض عن السود، حتى في وسائل المواصلات، وكان على الأسود أن يجلس في مقاعد خاصة في الخلف فإذا جاء أحد البيض فعليه أن يترك مقعده له، فالأولوية للأبيض، كحالة من التمييز العنصري. هذه المرأة وهي خياطة بسيطة كانت في أحد الأيام عائدة من المحل إلى منزلها ، وهي جالسة على مقعدها في الباص صعد رجل أبيض، انتظروا منها أن تقوم فلم تقم، خاطبوها أن تقوم، فقالت: لماذا أقوم؟ هذا كرسيي وأنا سبقت إلى الجلوس عليه! قالوا لها: أنت سوداء وقد جاء أبيض والأولوية له، قالت: ومن قال ذلك، هذا ظلم وعدوان؟ لم تقبل أن تقوم فاتجه قائد السيارة إلى مركز الشرطة، وألقوا القبض عليها وسجنوها لأنها خالفت القانون، واستمرت محاكمتها في أمريكا ٣٨١ يوماً، لكن هذا الموقف والمبادرة كانت الشرارة التي أنهت التمييز العنصري في أمريكا، وكانت الحادثة في سنة ١٩٥٥م، وتوالت بعدها الأحداث، إلى أن استطاعت أمريكا رسمياً أن تتجاوز التمييز العنصري، وأخيراً في هذا العام ٢٠٠٩م رأينا كيف أن رجلاً من أصلٍ أفريقي، هو باراك حسين أوباما يفوز برئاسة الولايات المتحدة الأمريكية، وكتبَ كثير من الصحفيين والمحللين أن فوز أوباما مدين لتلك المبادرة التي عملتها (روزا باركيس).

فبإمكان المبادرة أن تجعل من الفرد أمة، حين يقوم بعمل إيجابي، يؤثر ويغير مسار التاريخ.

من يقود مجتمعه إلى أهدافه السامية

المجتمعات في كثير من الأحيان يقودها فرد، ويبدأ الحراك فيها، فيغير واقع أمته ومجتمعه، فغاندي (١٨٦٩ – ١٩٤٨م) محرر الهند كان رجلاً فقيراً بسيطاً، وكان محامياً غير ناجح في مكتب المحاماة الذي يعمل فيه، لكن هذا الرجل الفقير هو الذي قاد الأمة المتنوعة الأعراق واللغات والقوميات والأديان، واستطاع أن يحرر الهند كلها.

فالأشخاص الذين يقودون مجتمعاتهم نحو التغيير، يصدق عليهم الفرد الأمة.

وهناك أشخاص كان لهم هذا الدور البالغ التأثير في تاريخنا الإسلامي، ويأتي في طليعتهم الإمام الحسين عليه السلام الذي غير مسار التاريخ بنهضته المباركة، فكان وضع الأمة الإسلامية بعد ثورته المجيدة، يختلف عن وضعها قبل شهادته.

وإنما نحتفي كل عام بسيد الشهداء أبي عبد الله الحسين عليه السلام لأن نهضته تعتبر منعطفاً في حياة الأمة، إذ كيف سيكون وضع الإسلام لو لم يتحرك الإمام الحسين؟ وماذا سيكون وضع الأمة الإسلامية لو لم يتحرك الإمام الحسين؟ إن حركة الإمام الحسين عليه السلام هي التي أنقذت الإسلام، وأنقذت الأمة الإسلامية، ولذلك استحق هذا الخلود، واستحق هذا التمجيد، ومن كانوا معه في كربلاء من بني هاشم وأصحابه تجد فيهم من كان في شخصيته يمثل أمة بالقيم التي كان يلتزم بها، وبالتكامل في شخصيته، وبمبادراته، صحيح أن كل أنصار الإمام الحسين عليه السلام كانوا في مستوى رفيع من المعرفة والتقوى، إلا أن ذلك لا يمنع من تميّز أحدهم على الآخر، كما كان ذلك جليّاً في تميّز أبي الفضل العباس عليه السلام على الجميع.

فقد ورد عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام أنه قال: «إن للعباس عند الله تبارك وتعالى منزلة يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة»[١].

(١) الشيخ الصدوق. الخصال، ص٦٨.

نقد الحالة الدينية

- ☐ بين الدين والحالة الدينية
- ☐ النقد الذاتي في الحالة الدينية
- ☐ كيف نتعامل مع النقد؟

﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة المجادلة: الآية ١]

بين الدين والحالة الدينية

لا يصح لمسلم أن ينتقد أو يعترض على شيءٍ من الدين الموحى به من قبل الله سبحانه وتعالى، وهو النص الشرعي القطعي الصدور والقطعي الدلالة، وكذلك أصول الدين الثابتة بالفطرة والعقل المتمثلة في توحيد الله سبحانه وتعالى، والإقرار بنبوة النبي محمد ﷺ، والاعتقاد بالمعاد في يوم القيامة، وغيرها من الضرورات المتفق عليها بين المسلمين التي تمثل الدين، لا يمكن لمسلم أن يعترض عليها أو ينتقدها، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾ [سورة الأحزاب: الآية٣٦]. وفي آية أخرى: ﴿ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [سورة النساء: الآية٦٥].

والمسلمون يؤمنون بأن هذا القرآن هو من عند الله، دون زيادة ولا نقصان، فهو نصٌّ قطعي الصدور من قبل الله تعالى، بينما الأحاديث النبوية الشريفة لا يطلق عليها أنها قطعية الصدور، بل ظنية الصدور، وهنا مجال للنقاش؛ فهل ورد هذا الحديث أم لم يرد؟ وهل ثبت عن رسول الله ﷺ أو هو غير ثابت؟ وبالنسبة للدلالة في النص القرآني أو الحديث الثابت الصدور فإن كانت دلالته على المعنى واضحة صريحة لا تقبل احتمالاً آخر، وجب الأخذ بذلك المعنى على كل مسلم، وإن كان

يقبل اختلاف التفسير يكون مجالاً للاجتهاد واختلاف الرأي، وكلٌّ ملزم بنتائج اجتهاده ضمن الضوابط المقررة.

ما هي الحالة الدينية؟

الحالة الدينية تتجلى في ثلاثة مظاهر:

الأول: الخطاب الديني السائد في المجتمع بما يشتمل عليه من أفكار وآراء عقدية وفقهية. هذا الخطاب الديني، ليس بالضرورة أن تكون كل تفاصيله قطعية، بل هي اجتهاد، ولذلك يقول العلماء إن المسائل الشرعية الضرورية القطعية التي لا اختلاف فيها بالنسبة للأحكام الشرعية تمثل ٥-٦٪ فقط من الأحكام و ٩٤٪ من الأحكام فيها مجال للنظر والاجتهاد بين العلماء.

الثاني: الجهات الدينية من مؤسسات وشخصيات، ولا يمكن أن نعتبر هذه المؤسسة، أو هذا الشخص، أو هذا الرمز الديني هو الدين، إلا المعصوم، و من عداه فهو بشر قد يصيب وقد يخطئ.

الثالث: المواقف والممارسات السياسية والاجتماعية.

فالدين الموحى به من قبل الله تعالى لا مجال لنقده والاعتراض عليه، أما الحالة الدينية وهي: الخطاب الديني، والجهة الدينية، والمواقف والممارسات، يمكن أن يكون هناك نقد واعتراض عليها، وذلك لعدة أسباب:

السبب الأول: لخلل يستوجب النقد، إذ ما دامت الحالة الدينية جهداً بشرياً فإنها تحتمل الصواب والخطأ، سواء كان ذلك في الرأي أو الممارسة أو الموقف.

السبب الثاني: لضعف استيعاب المتلقي، فقد يسمع الإنسان خطاباً دينياً فلا يستوعبه، أو تشكل عليه بعض أبعاده وجوانبه، فينتقد

ويعترض؛ لا لوجود خلل في الخطاب بل لأنه لم يستوعب الفكرة والموقف؛ فهنا يكون الاعتراض والانتقاد وارداً، وقد لا يتفهم الإنسان موقفاً أو ممارسة لجهة دينية فيعارضها.

السبب الثالث: وجود خلل في نفس المتلقي، فالناس بشر بطبيعة الحال، وقد تحصل حالات من التعصب، والنزاعات والمصالح الشخصية، فينتقد شيئاً من الحالة الدينية انطلاقاً من ذلك.

□ النقد الذاتي في الحالة الدينية

تواجه الحالة الدينية في هذا العصر كثيراً من النقد، أكثر من كل العصور والأزمنة السالفة، وهذا أمر طبيعي ومتوقع؛ وذلك لأسباب متعددة:

أولاً: نمو وتقدم الحالة الدينية، وما دامت في تقدم فهناك مخالفون ومتضررون من تقدمها، وهم لن يقفوا مكتوفي الأيدي، بل سينتقدون ويعترضون ويناوئون، للنيل من الحالة الدينية وتحجيمها وعرقلة مسيرتها.

ثانياً: اتساع حرية التعبير عن الرأي، وارتفاع مستوى وعي الناس، وازدياد ثقتهم بأنفسهم، مما أوجد شعوراً لدى الإنسان بالثقة بنفسه، وبحقه في التعبير عن رأيه، لذلك نجد الآن نقداً لكل شيء، بعكس ما كان عليه الوضع في الماضي، فقد كانت هناك صعوبة في الاعتراض على الحكومات ونقد سياساتها، بسبب القمع الذي كانت تُمارسه تلك الحكومات، لكن الأمر الآن أصبح طبيعياً، بل لا تستطيع أي حكومة أن تمنع النقد تجاهها، والاعتراض عليها، ولو أرادت ذلك، فوسائل التعبير عن الرأي متوفرة، من قنوات فضائية، وإذاعات، ومواقع إلكترونية، وتقنيات حديثة، وصحافة.

وكذلك بالنسبة للحالة الدينية، فقد ارتفع مستوى تفكير الناس وثقافتهم، وأصبح لديهم شعور بالثقة بذواتهم، وأصبحوا يتمكنون من التعبير عن آرائهم،

وقديماً لم تكن لديهم هذه الثقة، بل كانت تسود عند الناس ثقافة تمنعهم من أن ينتقدوا الحالة الدينية، بينما لم يعد الأمر كذلك.

وباعتبار أن الحالة الدينية تمثل واجهة المجتمع، فطبيعي أن يكون لها احتكاك بمصالح الناس وقضاياهم، وهي جهد بشري يقع منها الخطأ، وبالتالي اتسعت رقعة النقد. ولا يمكن منع الناس أن ينتقدوا.

من هنا، فإن على أي جهة من الجهات الدينية أن تبادر هي لنقد ذاتها، حتى تقلل من نقد الآخرين لها، وهذا ما يأمر به الدين، يقول الله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [سورة القيامة، الآيتان:١-٢]، فلوم الإنسان لنفسه نقد، وورد في الحديث المروي عن رسول الله ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»[1] و محاسبة النفس حالة من النقد الذاتي الداخلي، وهي مطلوبة في داخل الحالة الدينية.

نقد الذات

ينقسم العلماء والمهتمون بالحالة الدينية إلى فريقين، فريق يقول: لا ينبغي أن ننتقد، حتى إن وجدنا موضعاً للنقد، لا ينبغي أن ننشر غسيلنا أمام الآخرين، ولا ينبغي أن ندل الآخرين على نقاط ضعفنا، ولا نتحدث عن مشاكلنا الداخلية، ولا نتكلم ولا ننتقد وضعنا الداخلي، حتى لا تنعدم وتقل هيبة المتدينين، وحتى لا يتجرأ الناس على نقد المتدينين، فإذا وجدت خطأً في الحالة الدينية لا تخبر الآخرين بأن هناك خطأً إنما تسكت وتستر على ما واجهت.

أما الفريق الآخر فيقول: إن التستر على السلبيات خطأ، بل ينبغي أن نبادر إلى نقد أنفسنا، للأسباب التالية:

أولاً: حتى لا يتعمق الخطأ ويترسخ.

(١) كنز العمال ج١٦، ص١٥٩ حديث٤٤٢٠٣.

ثانياً: حتى ندفع الشبهة عن الدين وعن الحالة الدينية، وحتى يعلم الآخرون أن ما حصل خطأ، ولا يحمّلون الدين مسؤولية الخطأ.

ثالثاً: واهـمٌ مـن يتصور أننـا إذا تسـترنا ولـم ننتقد، سـيظل الخطأ غير مكشـوف للآخريـن، فكل شـيء فـي هـذا العصر أصبـح مكشـوفاً للغيـر، فأوضاع المجتمعات والأفكار اختلفت، وكل شـيء أصبح متاحـاً وفي أيدي عامة النـاس، كتـب الطوائـف والمذاهـب وأخبارها موجـودة علـى الإنترنت، وبضغطـة زر يمكـن للآخريـن الاطلاع علـى تفاصيل أوضاعـك الفكرية والعملية.

وبالتالـي ينبغـي أن يكـون هنـاك نقد ذاتي مـن داخـل الحالة الدينيـة. نعم، قد تختلـف الآراء، وهـو ليس أمراً سـيئاً، فقد يـرى هذا العالم أن هـذا الرأي صحيح، وآخر يراه خطأ، أو أن هذه الممارسة خطأ، وهناك من يدافع عنها ويقبلها، فلا مانع مـن ذلك، فلتختلـف الآراء، وليعلم الآخرون والعالـم، وأي جهة من الجهات، أن في هذا المذهب وهذا الدين أكثر من رأي، فلا يحاسبون الجميع برأي واحد.

وهـذا ما قام بـه العلماء المتنورون الواعون في الأمـة من كل المذاهب، فهناك علماء من السـنة كانـت لهم جهود نقدية داخـل مذاهبهم، وعلماء من الشـيعة لهم جهـود نقديـة داخل مذهبهـم، وهذا أفضل من النقـد المذهبي المتقابل، واشـتغال المذاهب ببعضها بعضاً.

المشـكلة أن بعـض علماء السـنة يـرون ما هي الأخطـاء التي عند الشـيعة، في تراثهـم وكتبهـم وأوضاعهـم، فينشـغلون بها، وبعض الشـيعة كذلك قد ينشـغلون بالأخطاء التي يرونها عند السـنة، فننشـغل ببعضنا بعضًا، وننسـى عيوبنا الداخلية، بينما الشـرع يوجه كل إنسان للنظر في عيوبه، ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام: (من نظر في عيب نفسه، اشتغل عن عيب غيره)[1].

(١) بحار الأنوار ج٧٢، ص٤٨.

ونجد في علماء السنة في هذا العصر علماء أفاضل، قدموا جهوداً نقدية للحالة الدينيـة لديهـم، وفي طليعتهم الشـيخ محمد الغزالـي، ومن يقرأ كتاباتـه يرى نقده لمناهج التعليم في الأزهر، ونقده للكثير من الفتاوى والآراء والمواقف، ومدرسته مدرسـة واعية نقدية، وكذلك الدكتور الشـيخ يوسف القرضاوي لديه مجموعة من الكتب في نقد الحالة داخل المذاهب السـنية، وأيضاً الشيخ حسن فرحان المالكي له كتابات نقدية رائعة ومن أبرزها كتابه (قراءة في كتب العقائد.. المذهب الحنبلي نموذجاً)، وهو دراسة جميلة وجيدة، يتحدث فيها كيف أن الحنابلة ـ وهي المدرسة التي نشـأ فيها ـ يتحدثون عما في كتب الآخرين من خرافات، وأسـاطير وغلو، فقام بعمل قراءة لبعض كتب العقائد التي يأخذ بها علماء المدرسـة السـلفية والمذهب الحنبلي، واسـتخرج أشـياء كثيرة تتطلب التوقف والمناقشـة من التطرف والتكفير والغلو والخرافات، وهذا جهد بطولي.

وهنـاك علماء من الشـيعة لهم جهود نقدية رائعـة لبعض ما في داخل منهجهم وطائفتهم، ومن أبرزهم السـيد محسـن الأمين العاملي، له كتاب في نقد الشـعائر الحسـينية (رسـالةالتنزيه)، وله كتاب في نقد المنبر الحسـيني وترشيده (المجالس الحسـينية)، والشيخ حسـين النوري عنده كتاب (اللؤلؤ والمرجان) مخصص لنقد المنبر، وأسـاليب الخطبـاء، وما يطرحه الخطبـاء على المنبر الحسـيني، ومن أبرز العلماء الشـيعة الناقدين الشـهيد الشـيخ مرتضى مطهري من يقرأ كتبه مثل (كتاب الاجتهاد في الإسـلام) وكتابه (إحياء الفكر الديني)، وكتاب (الملحمة الحسـينية) وكتـب كثيـرة عنده في هذا المجـال، يرى فيها نقداً لكثير مـن الجهات والأبعاد في الحالة الدينية. ومن العلماء الذين يجب ألّا ننساهم الشيخ محمد جواد مغنية «رحمه اللـه»، هـذا الرجـل العالم الواعي المنفتح، حينما يقرأ الإنسـان تفسـيره ـ التفسـير الكاشـف ـ أو يقـرأ فقهـه ـ فقه الإمـام جعفر الصـادق عليه السلام ـ أو يقرأ سـائر كتبه يجد فيها الكثير من النقد لكثير من المظاهر والممارسـات والآراء السـائدة في أوسـاط الشـيعة، هذه نمـاذج وأمثلة للنقد الذاتي داخل الحالة الدينيـة وهو أمر جيد، ينبغي

أن يتطـور، ويواكب المتغيرات والمسـتجدات، وهو مفاد حركـة الاجتهاد، فلماذا الاجتهاد إذا كنا سنتمسك بما هو قائم ومتوارث؟

□ كيف نتعامل مع النقد؟

كيـف نتعامـل مع النقد إذا كان من خارج الحالة الدينية؟ سـواء كان من خارج المسـلمين، أو مـن داخـل المسـلمين؛ لأن هناك شـباباً ومثقفيـن وأصحاب رأي، لديهـم نقد للحالة الدينية، وفي داخل كل مذهب مـن المذاهب هناك حالات نقد، هذا ما نراه ونسمعه، بيانات تصدر من هنا وهناك، كتابات في الصحف، كتابات في الانترنت وعلى مواقع التواصل الاجتماعي.

أعتقـد أن علـى قيـادات الحالـة الدينيـة والمهتميـن أن يضعوا نصـب أعينهم الحقائق التالية:

أولاً: توقع النقد وتقبله

بعـض النـاس لا يتوقعون النقـد ولا يتقبلونه، وبالتالي يرفضـون أي حالة نقد، ويعتبرونهـا خروجـاً عـن الديـن، وأنهـا ضـد الديـن، وهذا خطـأ كبير. فـلا بدّ من توقـع النقـد، بل وتقبله؛ لأن النقـد لا يكون إلا لخلل يسـتلزم النقد، أو لضعف في الاسـتيعاب، أو لخطأ في الممارسـة، أو لسـوء فهم عند الطرف الآخر، كما ذكرنا، وكل ذلك أمر وارد يحصل في كل الديانات والجماعات.

لذلـك يجب أن نتوقـع النقد؛ لأن القمع له أضراره، فـكل رأي يُقمع لا يموت بل ينتشـر، من غير أن نعرف، ويلقي بتأثيره على الناس، بينما إتاحة الفرصة لظهور النقد تمكّن من معالجته والرد عليه، بكشف نقاط ضعفه.

لدينـا بعـض الجهـات الدينية ترفـض النقد، فمثـلاً أحد العلماء فـي المملكة، طالب باتخاذ إجراءات رادعة ضد من يكتب في الصحافة أو يتحدث ضد المشايخ

والعلماء، إما بسجنهم، أو بفصلهم من أعمالهم، أو بجلدهم وتأديبهم[١].

البعض ليس لديهم تقبل، تجاه نقد العلماء، وقد طالب البعض أن تكون هناك هيئة للدفاع عن العلماء، حتى لا يتجرأ أحد لنقد العلماء، وهذا نوع من التكريس للاستبداد الديني، ويوجد ردة فعل تجاه الدين. وما يجري في الساحات الأخرى، يجب أن نتوقعه في ساحاتنا.

ثانياً: الرد العلمي والمنطقي للنقد

لأن الرأي يواجه بالرأي، ولا يصح أن نترك الآراء التي نعتقد أنها خطأ تنتشر بين الناس، ولا نوعي الناس حولها، فواجبنا الشرعي ومسؤولية كل إنسان عنده قدرة أن يرد ويواجه ويبين، وذلك بالمنطق والعلم، وليس بالتجريح والسب والشتم، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾[سورة الأنعام: الآية١٤٨]، وفي آية أخرى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾[سورة البقرة: الآية١١١].

وعلى العلماء والمفكرين والمثقفين حينما تثار شبهة ضد موضوع ديني، أو مذهبي، أن يتصدوا لردّ تلك الشبهة ومراجعتها وتبيين نقاط الخلل والخطأ فيها.

ثالثاً: الاعتراف بالخطأ وعدم المكابرة

بعض الناس يعترض على حالة النقد وكأنه يعتقد بعصمة نفسه، وعصمة جهته، وهذا خطأ كبير، إذ يجب ألا نكابر، فحينما يكون هناك خطأ ينبغي الاعتراف به، فلا تكون هناك حالة مكابرة لدرجة الدفاع عن الخطأ وتبريره، وكما قيل (الاعتراف بالخطأ فضيلة).

رابعاً: التعامل باتزان تجاه حالات النقد

بعض الناس تتملكهم حالات ذعر وهلع، إذا كان هناك نقد لشيء يرتبط بالدين، أو المذهب، كأن الدين قد انهار، وكأنه جاءت نهاية المذهب، كلّا. فالدين

(١) جريدة الاتحاد الإماراتية. أبو ظبي ١٩ سبتمبر ٢٠٠٨م.

قوي بمضمونه، والمذهب قوي ببراهينه، والإنسان المؤمن الواثق من دينه، ينبغي أن يتسامى على هذه الحالة السلبية، إن القرآن الكريم يتحدث عن حالة الهلع عند المنافقين فيقول: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [سورة المنافقون: الآية٤].

فالهلع والاضطراب إنما هو تعبير عن عدم الثقة، وهنا نستحضر كلمة جميلة للشهيد مطهري «رحمه الله» في كتابه نظام حقوق المرأة في الإسلام يقول: (أنا بعكس الكثيرين لا يغضبني إثارة الشكوك والشبهات على الإسلام، ومع حبي لديني إلا أنني ومن خلال التجربة واثق بقوة هذا الدين وأنه لا يزداد على الشكوك والشبهات إلا جلاءً وظهوراً وقوة)[1].

فأي شبهة تأتي يتصدى لها العلماء، من هنا يتجلى الفكر والدين، ولذلك فإن الإنسان الواعي العارف لا يتشنج، ولا يصيبه القلق والهلع، ويتعامل باتزان وأخلاق؛ لأن التعامل الانفعالي ينفّر الآخرين ويحقق غرض أعداء الدين.

ولنفترض أن إنساناً مبتعداً عن الدين بمقدار بسيط، إذا أسأنا التعامل معه فإنه سيبتعد بمقدار أكبر، وسنخسره في النهاية، بينما لو تعاملنا معه التعامل الموضوعي الهادئ، سنستقطبه من جديد، وسيدرك خطأه، ويكتشف نقطة الضعف عنده، ولنا في رسول الله أسوة حسنة، فرسول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام وكذلك كبار العلماء، كانوا يتعاملون مع النقد بدون انزعاج وانفعال ونفور من الطرف الآخر، فلماذا نرفض النقد مع أن المعصوم يستقبل النقد.

إمرأة تجادل الرسول

إن القرآن الكريم يخلّد موقف نقد واعتراض لامرأة على رسول الله ﷺ في سورة كاملة يعنونها بـ (المجادلة) يقول تعالى في مطلع السورة: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ

(١) مرتضى مطهري. نظام المرأة في الإسلام، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ، (طهران: معاونية العلاقات العامة في منظمة المؤتمر الإسلامي).

الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة المجادلة، الاية:١] وهذه السورة نزلت في خولة العوفية، حول قضية الظهار التي كانت متداولة في الجاهلية، حين يقول الرجل للمرأة: أنت عليَّ حرام كظهر أمي. فتحرم عليه، وتبين منه، فتخرج إلى منزل أهلها، زوج خولة هو أوس بن الصامت، قال لها هذه الكلمة في المدينة المنورة.

« روي أن خولة بنت ثعلبة امرأة أوس بن الصامت رآها زوجها وهي تصلي، وكانت حسنة الجسم، وكان بالرجل لمم، فلما سلمت راودها، فأبت، فغضب، وكان به خفة فظاهر منها، فأتت رسول الله ﷺ وقالت: إن أوسًا تزوجني وأنا شابة مرغوب فيّ، فلما خلا سني وكثر ولدي جعلني كأمه، وإن لي صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليَّ جاعوا، قال لها ﷺ: ما عندي في أمرك شيء، وروي أنه ﷺ قال لها: «حرمت عليه»، فقالت: يا رسول الله، ما ذكر طلاقاً، وإنما هو أبو ولدي وأحب الناس إليَّ، فقال ﷺ: «حرمت عليه»، فقالت: أشكو إلى الله فاقتي ووجدي، وكلما قال رسول الله ﷺ : «حرمت عليه» هتفت وشكت إلى الله، فبينما هي كذلك إذ تربّد وجه رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[سورة المجادلة، الاية:٢]»[١].

تعامل الرسول ﷺ مع المعترضين

وأكثر من ذلك لو قرأنا في السيرة النبوية لرأينا كيف كانت هناك اعتراضات عنيفة من بعض الصحابة على رسول الله ﷺ، فكان يستقبلها بصدر رحب، والمجال لا يتسع لشواهد عديدة، ونشير هنا إلى شاهد واحد وهو ما حصل في توزيع الغنائم في معركة حنين بعد فتح مكة سنة ٨ هـ، حيث جمعت قبيلة هوازن عشرين ألف

(١) الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي. تفسير الرازي، ج٢٩، الطبعة الثالثة، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ص٢٤٩.

مقاتـل، وكانـت من أكبـر وأخطر القبائل بعـد قريش، من أجـل أن تزحف إلى مكة وتقاتل الإسلام والمسلمين، فزحف رسول الله ﷺ إليهم بجيشه لمواجهتهم وكان معه اثنا عشـر ألف مقاتل، وكان فيهم من دخلوا الإسـلام مـن أهل مكة بعد الفتح، وطلـب زعيم قبيلة هوازن من كل مقاتـل فيهم أن يخرج بعياله وأمواله، حتى يكون أشدّ حماساً للقتال، فخرجوا وعندهم ثروات كثيرة.

فـي البدايـة صارت نكسـة على المسـلمين بسـبب الكمائن التـي وضعها لهم الأعداء، بعد ذلك تحقق النصر للمسـلمين، وصـارت كل الغنائم بأيديهم، وكانت غنائم كبيرة جداً، من الإبل ٢٤٠٠٠ بعيراً، من الشياه ٤٠٠٠٠ شاةٍ، وكمية كبيرة من الذهب والفضة، وقسـم رسـول ﷺ الغنائم على المقاتلين، للرجل سهم وللفارس ثلاثة سهام، وللرسول ﷺ خمس الغنيمة، وخمس الغنيمة لم يكن شيئًا بسيطاً، بقية المقاتليـن وكانـوا ١٢٠٠٠ وزّع الرسـول ﷺ الغنيمة فيهم فكان لـكل راجل ٤ من الإبل، ولكل فارس ١٢ من الإبل.

لكـن زعماء قريش الذين التحقوا مع المسـلمين بعد فتح مكة رأوا الغنائم عند رسـول اللـه ﷺ فجاؤوا يطلبون منه المزيد، فجاءه أبو سـفيان بـن حرب وبين يديه الفضة، فقال: يا رسـول الله، أصبحت أكثر قريشاً مالاً، فتبسم رسول الله ﷺ، فقال أبو سـفيان: أعطني من هذا المال يا رسـول الله، فقال ﷺ: يا بلال، زِنْ لأبي سفيان أربعين أوقية وأعطوه مئة من الإبل.

قال أبو سـفيان: ابني يزيد أعطه، فقال ﷺ: زنوا ليزيد أربعين أوقية وأعطوه مئة من الإبل.

قال أبو سـفيان: ابني معاوية يا رسـول الله، قال ﷺ: زن له يا بلال أربعين أوقية وأعطوه مئة من الإبل.

قال أبو سفيان: إنك لكريم فداك أبي وأمي، والله لقد حاربتك، فنعم المحارب

كنت، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيراً[١].

ودخل حكيم بن حزام على رسول الله ﷺ فقال: فداك أبي وأمي يا رسول الله، ما أكثر ما أعطاك الله من المال! أريد ١٠٠ من الإبل يا رسول الله، قال ﷺ: أعطوه ١٠٠ من الإبل، قال: يا رسول الله، زدني، قال ﷺ: أعطوه مئة ثانية، قال: يا رسول الله زدني، قال ﷺ: أعطوه مئة ثالثة.

هؤلاء وأمثالهم أخذوا الكثير من الغنائم، بينما الأنصار من أهل المدينة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ وكانوا حاضرين، كان أكثر نصيب لأحد منهم من الغنائم ١٢ من الأبل، فجاء سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إن قومي وجدوا في أنفسهم جِدَة، قال ﷺ: خيراً، قال: رأوا تقسيمك للغنائم على قومك من قريش، وإنهم يقولون كذا وكذا، ونقل له ما يدور في أوساطهم.

فالتفت النبي ﷺ وقال له:هذا قول قومك، وما قولك أنت؟ قال: يا رسول الله، وأنا واحد من هذا الحي، أنا منهم، فلم يغضب رسول الله ﷺ ولم ينفعل، مع أنه مارس صلاحيته الشرعية، ضمن الخمس الذي له حق التصرف فيه، بل جمع الأنصار في خيمة، قال: يا معشر الأنصار! ما مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها في أنفسكم ، ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى.

قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار، أما والله ! لو شئتم لقلتم فصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فواسيناك، أوجدتم في أنفسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ فو الذي نفس محمد بيده! لولا الهجرة لكنت امرئ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت

(١) ابن عساكر. تاريخ دمشق ج٢٣ ص٤٣٢.

شعب الأنصار»[١].

ثم قال: «أيها الأنصار، ألا ترضون أن يرجع الناس بالبعير والشاه وتعودون إلى رحالكم برسول الله؟

ألا يرضيكم أن يعود الناس بالدنيا وتعودون إلى دياركم برسول الله، ورسول الله معكم؟ إني ما أعطيتهم إلا لكي أتألفهم إلى الإسلام»[٢]. وصار يتحدث عن فضل الأنصار ثم ختم كلامه بقوله: «اللهم اغفر للأنصار، اللهم اغفر لأبناء الأنصار، اللهم اغفر لأبناء أبناء الأنصار، ولا زال يدعو لهم حتى دمعت عيونهم وبكوا وقالوا: رضينا يا رسول الله».

وقد جاء في مصادر الحديث والسيرة أن رجلاً من بني تميم يقال له ذو الخويصرة، وقف أمام رسول الله ﷺ بعد توزيع بعض الغنائم، وقال: يا محمد، أعدل، فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟ لقد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل، فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق! فقال ﷺ: «معاذ الله أن يتحدث الناس إني أقتل أصحابي»[٣].

فإذا كان رسول الله ﷺ النبي المعصوم يتقبل النقد، ويتحمله ويتعامل معه بهذه الطريقة، فإن للعلماء والواعين في رسول الله أسوة حسنة.

علي في مواجهة الاعتراض

وكما كان رسول الله ﷺ، فإن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام سار على ذات النهج، فقد كان يستثير الناس ويطلب منهم أن ينتقدوا وأن يعترضوا، وفي أوائل خطبه في الكوفة حينما تولى الحكم وبويع بالخلافة قال عليه السلام: «فَلا تُكَلِّمُونِي

(١) عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني. ابن الأثير: الكامل في التاريخ. ج٢، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي)، ص٢٧١.
(٢) كنز العمال. ج١٢، ص٧.
(٣) صحيح مسلم، ص٥٣١، حديث ١٠٦٣.

بِمَـا تُكَلِّـمُ بِهِ الْجَبَابِرَةُ ولا تَتَحَفَّظُـوا مِنِّي بِمَا يُتَحَفَّظُ بِهِ عِنْدَ أَهْـلِ الْبَادِرَةِ ـ يعني عند أهل الغضب ـ ولا تَظُنُّوا بِي اسْتِثْقَالاً فِي حَقٍّ قِيلَ لِي ولا الْتِمَاسَ إِعْظَامٍ لِنَفْسِي فَإِنَّهُ مَنِ اسْتَثْقَلَ الْحَقَّ أَنْ يُقَالَ لَهُ أَوِ الْعَدْلَ أَنْ يُعْرَضَ عَلَيْهِ كَانَ الْعَمَلُ بِهِمَا أَثْقَلَ عَلَيْهِ فَلا تَكُفُّوا عَنْ مَقَالَةٍ بِحَقٍّ أَوْ مَشُورَةٍ بِعَدْلٍ».

والتاريـخ يذكـر لنا عن أحد قـادة الخوارج ـ الخريت بن راشـد ـ أنه جاء لأمير المؤمنيـن علي بـن أبي طالب عليه السلام ومعه ثلاثـون من أصحابه قـال: لا والله لا أطيع أمـرك ولا أصلي خلفك وإني غداً لمفـارق لك ، فقال عليه السلام: «ثكلتك أمك إذا تنقض عهـدك وتعصـي ربك ولا تضـر إلا نفسـك، أخبرني لمـا تفعل ذلك؟ قـال: لأنك حكمـت فـي الكتاب، وضعفـت عن الحق إذ جـد الجد، وركنت إلـى القوم الذين ظلموا أنفسـهم، فأنـا عليك راد، وعليهم ناقم، ولكم جميعـاً مباين، فقال علي عليه السلام: «ويحك هلمّ أدارسك وأناظرك في السنن. فقال الخريت: فأنا غادٍ عليك غداً»[1].

وحينمـا صـرخ الخوارج في أنحـاء متفرقة من المسـجد: لا حكم إلا لله، قال أميـر المؤمنين عليه السلام: «كلمة حق أريد بها باطل، أما إن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا: أن لا نمنعكـم مسـاجد اللـه أن تذكروا فيها اسـم اللـه، ولا نمنع عنكـم الفيء، ولا نقاتلكم ما لم تبدؤوا بفتنة[2].

ويذكر الشيخ الصدوق في كتاب التوحيد حادثة عجيبة، يقول: أن رجلاً أتى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين، إني قد شـككت في كتاب الله المنزل، قال له عليه السلام: ثكلتك أمك! وكيف شككت في كتاب الله المنزل؟! قال: لأنـي وجدت الكتاب يكذب بعضه بعضاً فكيف لا أشـك فيـه. فقال عليه السلام: إن كتاب اللـه ليصـدق بعضه بعضاً ولا يكذب بعضه بعضاً، ولكنـك لم ترزق عقلًا تنتفع به،

(١) بحار الأنوار ج ٣٣ ص٤٠٦.

(٢) محمد بن جرير الطبري. تاريخ الطبري ج٤، الطبعة الخامسة ١٤٠٩هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٥٣.

فهاتِ ما شـككت فيه من كتاب الله عز وجل، فردّ على جميع إشكالاته وتوهّماته، فقال: فرّجت عني فرّج الله عنك يا أمير المؤمنين ونفع الله المسلمين بك[١].

وهذا الإمام الحسن بن علي عليه السلام بعد أن صالح معاوية، ألم يعترض عليه خُلَّص أصحابـه؟ بعضهم يدخـل عليه قائلاً: السـلام عليك يا مذل المؤمنيـن [٢]. والإمام الحسـن عليه السلام لـم يكن يغضب ولـم ينفعل، بـل كان يجلس معهم، ويشـرح لهم رأيه وموقفـه، ويبين لهـم دوافعه في الصلح، وهـذا هو ديدن الأنبيـاء والأئمة والعلماء الواعين.

إذن التعامـل مع النقد ينبغـي أن يكون بالرأي وبالمنطـق، ولا ينبغي أن نصاب بالهلع والانفعال والتشـنج، ولا أن نتعامل بأخلاق سـيئة مع الطرف الناقد، فنبعده أكثر عن الدين، وإن كان مخطئاً في نقده، وإنما نتأسـى برسول الله صلى الله عليه وآله وبالأئمة عليهم السلام وبالصالحين.

وحينما يقرأ الإنسـان سـيرة المعصوميـن عليهم السلام في تعاملهم مع مـن حولهم يجد التطبيـق العملـي لقوله تعالـى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَـنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سـورة الشعراء:الآية ٢١٥].

في ليلة العاشـر من المحرم والجيش الأموي يحيط بمخيم الإمام الحسين عليه السلام ويتوعـد بالهجوم في كل لحظة، يجمع الحسـين عليه السلام أهـل بيته وأصحابه، ويتحدث معهـم بشـفافية ووضوح قائـلاً: أما بعد، فإنـي لا أعلم أصحاباً أوفـى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً، ألا وإنـي أظـن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً، ألا وإني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً فـي حلّ، ليس عليكم مني ذمام! هذا الليل غشـيكم فاتخـذوه جملاً، ثم ليأخذ كل رجـل منكـم بيد رجل مـن أهل بيتي، ثم تفرقـوا في سـوادكم ومدائنكم حتى يفرج

(١) الشيخ الصدوق. التوحيد. (بيروت: دار المعرفة)، ص٢٥٥.
(٢) بحار الأنوار ج ٤٤ ص٥٩

الله، فإن القوم إنما يطلبونني، ولو أصابوني لما طلبوا غيري.

فأجابوه جميعاً: لمَ نفعل؟ لنبقى بعدك؟ لا أرانا الله ذلك أبداً.

فقال لهم: يا قوم، إني غداً أقتل وتقتلون كلكم معي ولا يبق منكم أحد.

ويروى أن القاسم بن الحسن عليه السلام وكان غلاماً في مقتبل العمر سأل عمه الحسين عليه السلام: وأنا فيمن يقتل؟

فأشفق عليه وقال له: يا بني، كيف الموت عندك؟

قال: يا عم، أحلى من العسل.

الرحمة تصنع السعادة

- ☐ الرحمة صفة ونعمة إلهية
- ☐ الحضارة المادية تنشر العنف
- ☐ العنف شقاء المجتمع

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾[سورة البلد: الآية١٧]

□ الرّحمة صفة ونعمة إلهية

لله سبحانه وتعالى صفات كثيرة، فهو الخالق، والرازق، والمهيمن، والقادر، والجبار والمتعال، إلى آخر صفاته جلّ وعلا، وقد اختار سبحانه صفة الرّحمة لذاته بشكل خاص، ولذلك فإن بداية كل سورة من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

فالله هو الخالق، إلا أنه تعالى لم يشأ أن يجعل هذه الصفة هي التي تلحق بلفظ الجلالة، فلم يقل سبحانه: بسم الله الخالق، وليس بسم الله الرازق، مع أن ذلك صحيح، بل نجده جلّ وعلا اختار هذه الصفة من بين صفاته وكرّرها في كتابه العزيز (١١٤) مرّة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، إضافة إلى أكثر من ثلاث مئة آية في القرآن الكريم غير البسملة، تصف الله تعالى بالرحيم، وأنه أرحم الراحمين، وتتحدث عن رحمته بالخلق.

واختلف العلماء في معنى ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فبعضهم قال: الرحمن يعني: الرحمة العامة لكل الخلق، والرحيم تعني: الرحمة الخاصة بالمؤمنين، أو أن الرحمن للدنيا، والرحيم للآخرة، وإن كان هناك بعض النصوص يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

والسؤال هنا: لماذا التأكيد على هذه الصفة أكثر من سائر الصفات الإلهية، وجعلها لاحقة للفظ الجلالة في كلّ بسملة؟ لعل ذلك لأمرين:

الأول: التأكيد على هذه الصفة وأهميتها ومحوريتها في الوجود لدفع الإنسان للتخلّق بها.

الأمر الثاني: إلفات نظر الإنسان إلى هذه الرحمة الإلهية العامة، التي تغمره في حياته ليكون أقرب إلى ربه وأوثق برحمته.

فحينما يتأمل الإنسان يرى كيف أن رحمة الله تعالى تتسع لكل شيء ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأعراف، الآية: ١٥٦]، وفي دعاء كميل: «اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء». وإذا تأمّل الإنسان في نفسه يرأى كيف أن رحمة الله تحوطه وتغمره في كل لحظة، وفي كل آنٍ وحال، فمجيئك إلى الحياة برحمة الله، وبقاؤك فيها برحمته، وكل حركة وسكون هي برحمة الله.

من جهةٍ أخرى، كم من المكاره والأخطار ينجو منها الإنسان، سواءً تلك التي يلحظها، أو التي لا يلحظها والله تعالى مطّلعٌ عليها، فيحفظ الإنسان برحمته؛ الإنسان في كل لحظة معرّض لمختلف الأخطار والله تعالى ينجّيه، وفي لحظات الشدائد يدرك أن لا ملجأ إليه إلا الله.

ولو أن ذرة من ذرات الطعام، أو قطرة من قطرات الشراب، ضلت طريقها في بلعوم الإنسان إلى مجرى التنفس والهواء، فإنها يمكن أن تنهي حياة الإنسان، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام «مِسْكِينٌ ابْنُ آدَمَ مَكْتُومُ الأَجَلِ، مَكْنُونُ الْعِلَلِ، مَحْفُوظُ الْعَمَلِ، تُؤْلِمُهُ الْبَقَّةُ، وتَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ، وتُنْتِنُهُ الْعَرْقَةُ»[1].

فأنت لا تدري ما هو مكنون لك، وما هو مخبوء لك، تنام ولا تدري كيف تصبح، وتصبح لا تدري كيف تمسي. لا تدري كيف هو وضعك في الساعة القادمة، ولا تعرف ما هو مصيرك في اللحظة القادمة، وهل يستطيع أحد أن يشك في ذلك.

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم، حكمة ٤١٩.

فمن الذي يرعاك ويُنعم عليك؟ ومن الذي يقيك الأخطار والمكاره؟ أليس هو الله سبحانه وتعالى؟

الإنسان يعيش الغفلة عن رحمة ربه، وعن نعمه التي تحيط به، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى يبعث الأنبياء لكي يذكروا الإنسان بنعمه، وقد أوحى الله إلى داوود «أحبني وأحب من يحبني وحببني إلى عبادي، قال: يا رب ! إنك لتعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال، ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي»[1].

ولهذا ينبغي للإنسان في كل حركة، وأمام كل نعمة، أن يذكر اسم الله، فإذا أراد أن يأكل أو يشرب يسمي بسم الله، وإذا أنهى طعامه شرابه يقول الحمد لله، لماذا؟ حتى يتذكر نعم الله وآلاءه عليه.

نعمة التراحم بين الناس

ومن نعم الله على الإنسان أن قذف الرحمة في نفوس الناس باتجاه بعضهم بعضاً، وكذلك كل المخلوقات، فمن الذي يجعل هذا الطير أو هذه الدابة تعطف على صغارها، ولو تأملت منظر حمامة أو عصفورة أو أي طير من الطيور كيف يحتضن فراخه ويدافع عنهم، ويوفر لهم الغذاء! من الذي قذف هذا العطف في قلوب هذه الطيور وهذه الحيوانات؟ أليس هو الله سبحانه؟

وكذلك الإنسان، ففي بداية مراحل عمره، لا يستطيع أن يجلب لنفسه نفعاً، ولا يدفع عنها ضراً؛ لأنه ضعيف، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾[سورة الروم، الآية ٥٤]، ﴿وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [سورة النساء، الآية ٢٨]، فالطفل الصغير حينما يأتي لا يستطيع أن يصنع لنفسه شيئاً، ولا أن يدفع عن نفسه شيئاً، بل إن أوضاعه مزعجة، فيبكي؛ لأنه يحتاج إلى غذاء، أو إلى تنظيف ورعاية وعناية. والأم الحنون تتحمل إزعاجه،

(١) كنز العمال. ج١٥، ص٨٧٢.

بـل وتحنو على الطفل وترضعه، وتسـهر الليل من أجله، وتفديه بنفسـها وروحها، فجـزى الله الأمهات كل خير، حقيقةً لا يسـتطيع الإنسـان أن يخـرج من جزاء أمه، ذلـك الرجـل كان فـي الطواف حامـلاً أمه، يطوف بها، فسـأل رسـول الله ﷺ: هل أديت حقها؟ فأجابه ﷺ: «لا ولا بزفرة واحدة»[١]، وشكى رجل إلى رسول الله ﷺ سـوء خلق أمه، فقال له ﷺ: «إنها لم تكن سـيئة الخلق حين حملتك تسـعة أشـهر، وحيـن أرضعتك حولين، وحين سـهرت لك ليلها وأظمـأت نهارها، فقال الرجل: إنـي جازيتها وحججـت بها على عاتقي، فقال ﷺ: «ما جازيتهـا ولا طلقة»[٢]، هذه الأم وما تتحمل تجاه الولد، من الذي جعل الرحمة في قلبها؟ أليس هو الله تعالى؟ ولذلـك نقرأ في دعاء عرفة: «وَعَطَفْـتَ عَلَيَّ قُلُوبَ الْحَواضِـنِ، وَكَفَّلْتَنِي الأُمَّهاتِ الرَّواحِمَ، وَكَلأْتَنى مِنْ طَوارِقِ الْجآنِّ، وَسَـلَّمْتَني مِنَ الزِّيادَةِ وَالنُّقْصانِ، فَتَعالَيْتَ يا رَحيمُ يا رَحْمنُ»[٣].

في الآخرة رحمة الله أعظم

فالله تعالـى يرحم الإنسـان في حياتـه، وهو يقـذف الرحمة له فـي قلوب من حولـه، وعليك أن تعلـم أن كل هذه الرحمة الإلهية التي تحوطك في هذه الحياة ما هي إلا شـيء قليل، وهناك ما هو أعظم من هذه الرحمة، وما هو أوسـع، وذلك في الآخـرة، فرحمة الله بالإنسـان في الآخرة أعظم منها فـي الدنيا بأضعاف مضاعفة، روى سـلمان الفارسـي عن رسـول الله ﷺ أنه قـال: (إن الله تعالـى خلق يوم خلق السـماوات والأرض مائة رحمة، كل رحمة طباق ما بين السـماء والأرض، وجعل منهـا فـي الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدهـا، والوحش والطير بعضها

(١) إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي. تفسير ابن كثير. ج٣، طبعة ١٤٠٠هـ، (حلب: مكتب التراث الإسلامي)، ص٣٨.

(٢) أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري. تفسير الكشاف. ج٢، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٦٥٩.

(٣) السيد ابن طاووس. إقبال الأعمال، تحقيق جواد القيومي الأصفهاني، الطبعة الأولى١٤١٤هـ، (قم المقدسة: مكتب الإعلام الإسلامي)، ج ٢، ص٧٥.

على بعض وأخّر تسعاً وتسعين، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة)[١].

ففي يوم القيامة تسع وتسعون رحمة مدّخرة لك أيها الإنسان، وما تراه في هذه الدنيا من نعم الله ومن رحمة الله، هو جزء من مئة جزء من رحمة الله تعالى. عن عمر قال: قدم على النبي ﷺ سبي، فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبياً في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي ﷺ: أترون هذه طارحة ولدها في النار؟ قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: الله أرحم بعباده من هذه بولدها)[٢].

فعلى الإنسان أن يقدّر هذه الرحمة ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[سورة الزمر، الآية: ٥٣].

فكما أن الله يحبك، عليك أن تحب الله، وكما أن الله يرحمك، عليك أن تطيع الله، وترحم عباده، قال ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»[٣] لأن الله عز وجلّ يقول كما جاء في حديث قدسي: «إن كنتم ترجون رحمتي فارحموا خلقي»[٤]، وروى أبو موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا، قالوا: بلى يا رسول الله، كلنا رحيم، قال: إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكن رحمة العامة»[٥].

وجسّد رسول الله ﷺ تلك الرحمة على الناس، في قوله: «إني لأقوم إلى الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق

(١) كنز العمال. ج٤،ص٢٧٣، حديث ١٠٤٦٤.
(٢) صحيح البخاري. ج٤، ص٨٧، حديث٥٩٩٩.
(٣) كنز العمال. ج٣، ص ١٦٧، حديث٥٩٩٠.
(٤) كنز العمال. ج٣، ص ١٦٧، حديث٥٩٩١.
(٥) علي بن أبي بكر الهيثمي. مجمع الزوائد. ج٨، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٣٠.

على أمه»[١].

ومشكلة الإنسان أنّه يغفل وينسى، فيتعامل مع ربه بجفاء وجفاف، ففي دعاء الافتتاح: «فَلَمْ اَرَ مَوْلاً كَريماً اَصْبَرَ عَلى عَبْد لَئيم مِنْكَ عَلَيَّ يا رَبِّ، اِنَّكَ تَدْعُوني فَاُوَلّي عَنْكَ، وَتَتَحَبَّبُ اِلَيَّ فَاَتَبَغَّضُ اِلَيْكَ، وَتَتَوَدَّدُ اِلَيَّ فَلا اَقْبَلُ مِنْكَ، كَاَنَّ لِيَ التَّطَوُّلَ عَلَيْكَ، فَلَمْ يَمْنَعْكَ ذلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ لي، وَالاِْحْسانِ اِلَيَّ، وَالتَّفَضُّلِ عَلَيَّ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ، فَارْحَمْ عَبْدَكَ الْجاهِلَ وَجُدْ عَلَيْهِ بِفَضْلِ اِحْسانِكَ اِنَّكَ جَوادٌ كَريمٌ»[٢].

إن الله تعالى خلق الناس من أجل أن يرحمهم، يقول تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[سورة هود: الآية١١٩]، وقد جاء في حديث قدسي: «خلقتكم لتربحوا عليَّ لا لأربح عليكم»[٣].

ويُفترض في الإنسان أنه إذا تذكر نعم الله ورحمته، أن يدفعه ذلك لكي يطيع ربه، إلا أن الواقع ليس كذلك، يقول تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[سورة الحج، الآية: ٧٤]. فكيف تتعامل أنت مع الرب الذي أعطاك كل شيء، وأنعم عليك بكل شيء، وإليه مصيرك ومآبك، وأنت في حاجة إلى رحمته بعد هذه الحياة أكثر من حاجتك في هذه الحياة؟

فعلى الإنسان أن يتأمل ويتبصر، إن النصوص والروايات حول عذاب الله للإنسان يوم القيامة، هي من أجل تهذيب سلوك الإنسان، وإرشاده، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يصيب العبد أدنى أذى، ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى برحمته يتوب ويعفو عن الإنسان إن أناب لربه، مهما كانت ذنوبه وجرائمه، ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إن آخر عبد يؤمر به إلى النار يلتفت، فيقول الله عز وجل:

(١) صحيح البخاري. ج١، ص ١٧٣.

(٢) الشيخ الطوسي. مصباح المتهجد، الطبعة الأولى١٤١١هـ ـ١٩٩١م، (بيروت: مؤسسة فقه الشيعة)، ص٥٦٤.

(٣) تفسير الرازي. ج١، ص٢٣٠.

أعجلـوه، فإذا أتي بـه قال له: يا عبدي، لم التفت؟ فيقول: يـا ربّ، ما كان ظني بك هذا، فيقول الله جل جلاله: عبدي وما كان ظنك بي؟ فيقول: يا ربّ، كان ظني بك أن تغفـر لي خطيئتي وتسـكنني (وتدخلني) جنتك، فيقـول الله: ملائكتي! وعزتي وآلائي وبلائي وارتفاع مكاني ما ظن بي هذا ساعة من حياته خيراً قط، ولو ظن بي ساعة من حياته خيراً ما روعته بالنار، أجيزوا له كذبه وأدخلوه الجنة».[١]

واللـه تعالى يطمئن الناس: ﴿قُـلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، أيها الإنسـان لا تقنط لأن الله يحبك، وقد ورد في حديث قدسـي: «يا داود، اسـمع مني ما أقول، والحق أقـول: من أتاني وهو يحبني أدخلته الجنة. يا داود، اسـمع منى ما أقول، والحق أقول: من أتاني وهو مسـتحي من المعاصي التي عصاني بها، غفرتها له وأنسـيتها حافظيه. يا داود، اسمع مني ما أقول والحق أقول: مـن أتاني بحسـنة واحـدة أدخلته الجنة . قـال داود: يا رب، ما هذه الحسـنة؟ قال: من فرج عن عبد مسـلم. فقال داود عليه السلام: إلهـي كذلك لا ينبغي لمن عرفك أن يقطع رجاءه منك»[٢].

أوسع من أفق المتدينين

ولذلـك على الإنسـان أن يُقبـل على التوبة إلـى الله سـبحانه وتعالى، فأمامك متسـع وفرصة، ورحمة الله تعالى واسـعة، وهي في يوم القيامة أوسع، والنصوص والروايات تكشـف لنا ذلك، ففي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إذا كان يوم القيامة نشر الله تبارك وتعالى رحمته حتى يطمع إبليس في رحمته»[٣].

الإنسـان الواعي العارف يعطي الناس الأمل في رحمة الله تعالى، ولا يعطيهم

(١) بحار الأنوار. ج ٧، ص٢٨٧.
(٢) أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي. الأمالي، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية – (قم المقدسة: مؤسسة البعثة)، ص ١٠٧.
(٣) بحار الأنوار. ج ٧، ص٢٨٧.

الرجاء المطلق الذي يجعلهم يأمنون من عذاب الله تعالى، قال الإمام علي عليه السلام: «الْفَقِيهُ كُلُّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقَنِّطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَ لَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَ لَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ»[١]، فلا بدّ من التوازن. ولهذا جاءت آيات تتحدث عن الرحمة وأخرى عن العذاب.

والله تعالى خلق الناس ليرحمهم، بالتالي لن يخلد في النار إلا الجاحد المعاند، ففي دعاء كميل: «فَبِالْيَقِينِ اَقْطَعُ لَوْ لا ما حَكَمْتَ بِهِ مِنْ تَعْذيبِ جاحِديكَ، وَقَضَيْتَ بِهِ مِنْ اِخْلادِ مُعانِدِيكَ لَجَعَلْتَ النّارَ كُلَّها بَرْداً وَسَلاماً وَما كانَت لِاَحَد فيها مَقَرّاً وَلا مُقاماً»[٢]. وأما البقية كلهم ينجون من النار ويدخلون الجنة.

ومشكلة بعض الناس في وسط المتدينين، أنهم يفكرون أن الجنة وكأنها بوابة مصممة على ضيق أفقهم، لا يدخلها أحد إلا بالمواصفات التي يرونها هم، بينما الجنة بيد الله، والله رحيم بعباده، وحينما قالت بعض الطوائف في الماضي أن الجنة ستكون حكراً عليهم، ردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[سورة البقرة، الآيتان: ١١١-١١٢]، ومعنى قوله: أَسْلَمَ وَجْهَهُ، أي أسلم قصده خالصاً لله، فإذا اشتبه في الطريق ولم يعرف الحق لشبهة، أو لبيئة كان يعيش فيها، أو لوضع كان يحيط به، وأسلم وجهه لله، فهذا لا يكون في النار، إنما يدخل الجنة إن كان محسناً، وحتى أصحاب الديانات الأخرى الذين لم تتضح أمامهم الحقيقة وكانت قلوبهم ونفوسهم طاهرة، بحيث لو اتضح لهم الحق لاتبعوه، فإنهم بعفو الله ينجون يوم القيامة.

وينقل الشيخ المطهري رحمه الله عن الفيلسوف الفرنسي المعروف ديكارت قوله: «إني لا أدّعي أنّ المسيحية قطعاً أفضل دين في الأرض، ولكني أقول إنّ المسيحية

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم، حكمة ٩٤.
(٢) مصباح المتهجد، ص ٨٤٨.

هي الأفضل بالقياس إلى الأديان التي أعرفها، وقد تناولتها بالبحث والتحقيق، وليس لي أي عداء مع الحقيقة، فقد يكون هناك في أماكن أخرى من الدنيا دين يرجح على المسيحية، إنّه لا علم لي فلعل ديناً ومذهباً يوجد في إيران مثلاً هو أفضل وأحسن من المسيحية»، ويعلق الشيخ المطهري قائلاً: «لو كان ديكارت صادقاً في حديثه ومستسلماً للحقيقة بالمقدار الذي يدّعيه لنفسه، وقد بحث واستقصى بكل جهوده ولم يصل إلى أكثر مما وصل إليه فهو يُعَدُّ حينئذٍ مسلماً بالفطرة»[١] هو مخلص، إلا أنه لم تصله الحجة، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[سورة الإسراء، الآية: ١٥]، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ﴾[سورة الأنفال، الآية: ٤٢].

فالله تعالى لم يخلق الناس حتى يعذبهم، خلقهم لكي يرحمهم، وإذا كان ديكارت صادقاً في ما ينقل عنه فإنه يدخل الجنة بعفو الله ورحمته.

وقبل مدة نشرت بعض الصحف استبيانًا عن الأمريكيين يوضّح أن ثلثي الأمريكيين ممن شملهم الاستبيان يعتقدون بوجود جنة وآخرة، وأن الأكثرية فيهم أيضاً يعتقدون بأنهم سيدخلون الجنة.

لهذا نجد أن الشيخ يوسف الصانعي يرى أن ليس كل من هو غير مسلم فهو كافر، فالكافر من الكُفر، والكُفر هو الحجب والستر، كما يقول القرآن الكريم ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾، الكفّار هنا يعني الزرّاع؛ لأن الزارع يلقي البذور ثم يسترها في الأرض، فأطلق عليه بأنه كافر بهذا المعنى.

فالشيخ الصانعي يقول: (وأما غير المعاندين وهم عامة الكفّار فالأظهر عدم نجاستهم، بل أن عامة الكفّار حتى الحربي منهم إذا لم يحارب المسلمين عناداً للإسلام، وإنما يقاتلهم لأسباب أخرى، لا يُعدّ معانداً ولا يحكم بنجاسته)[٢]،

(١) مرتضى مطهري. العدل الإلهي. طبعة ١٤٠١هـ (قم المقدسة: الدار الإسلامية للنشر)، ص٣٢٥.
(٢) الشيخ يوسف الصانعي. مصباح المقلدين، الطبعة الثانية١٤٢٥هـ، (قم المقدسة: منشورات ميثم التمّار)، ص٢٣

وعنده أدلة استعرضها في مجال بحثه، وهذا رأيه كفقيه.

الطوائف واحتكار الجنة

والأمر الخطير أنه في داخل المسلمين تجد أن كل طائفة ترى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان معهم، وبقية الناس كلهم في النار، وهذا الحديث المتداول الذي تحدث العلماء كثيراً حول مدى صحة سنده، واختلاف ألفاظه، وتحدثوا حول مدى صحة مدلوله، وهو الحديث الذي ينسب إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «لتفترقن هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا فرقة واحدة»[١]، فبناءً عليه تكون اثنتان وسبعون فرقة في النار، وفرقة واحدة لجنة عرضها السماوات والأرض!!

وروي أنه قام رسول الله ﷺ في صلاة مع أصحابه، «فقال إعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، فلما سلّم النبي ﷺ قال للإعرابي: لقد حجرت واسعاً ـ يريد رحمة الله ـ»[٢].

وهناك نصوص كثيرة تدلّ على أن كل من نطق الشهادتين، يدخلون الجنة، وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ قال: «رضى جدي ألا يبقى موحّد في نار جهنم»[٣]، ويقول زرارة: سألت الإمام الصادق عليه السلام قلت له: أصلحك الله، أرأيت من صام وصلى واجتنب المحارم وحسن ورعه ممن لا يعرف ولا ينصب؟ فقال: إن الله يدخل أولئك الجنة برحمته»[٤]، ورواية أخرى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام يقول: «إن للجنة ثمانية أبواب: باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون،

(١) بحار الأنوار. ج٥٤، ص٣١٨.
(٢) صحيح البخاري. ج٤، ص٨٩، حديث٦٠١٠.
(٣) الشيخ عبدعلي بن جمعة العروسي الحويزي. تفسير نور الثقلين. ج٥، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ، (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي)، ص٥٩٥.
(٤) بحار الأنوار. ج٢٧، ص١٨٣.

وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت»[١].

فإذا لم ينصب الإنسان العداء لأهل البيت فإنه مشمول بعفو الله ورحمته، فقد تكون الحقيقة غير واضحة أمامه؛ لأنه يعيش في بيئة معينة، ولو اتضحت له الحقيقة لقبلها، فهذا أيضاً يدخل الجنة.

إذاً رحمة الله سبحانه وتعالى واسعة، وعلى الإنسان أن يكون له أمل في رحمة الله سبحانه وتعالى. وهذا أمير المؤمنين عليه السلام يخاطب أهل العراق: «يا أهل العراق، تزعمون أن أرجى آية في كتاب الله ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ وإنا أهل البيت نقول إن أرجى آية في كتاب الله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى﴾ وهي والله الشفاعة ليعطيها أهل لا إله إلا الله حتى تقول: ربّ رضيت»[٢].

□ الحضارة المادية تنشر العنف

البشر في حياتهم يحتاجون إلى التراحم فيما بينهم، فهم يعيشون مع بعضهم بعضًا، وحالات الضعف تجاه بعضهم بعضًا واضحة، لذا يحتاجون إلى أن يتراحموا، وأن يبذلوا الرحمة إلى بعضهم بعضًا، يقول تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾[سورة البلد، الآية: ١٧]؛ لأن الناس إذا لم يتراحموا فيما بينهم؛ وسادت الشدة والغلظة والقسوة في تعاملهم، فإنه يعيشون الشقاء، ويفقدون السعادة والأمن.

الإنسان حينما يرحم الآخرين يشعر بالسعادة ويرضى ضميره، ومن معه يشعرون بالسعادة؛ لأنهم يأمنون عدوانه، ويجدون إحسانه. فالناس بحاجة إلى

(١) بحار الأنوار. ج٨، ص١٢٢.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. ج٢٠، ص٢٥٤.

التراحـم فيمـا بينهـم، إلا أن النزعة الذاتية عند الإنسـان، والأهواء والشـهوات، قد تنحرف بفطرة الإنسان، وتخنق صوت الضمير في أعماقه، بسبب الإفراط والمبالغة في حالة الأنانية، وبالتالي تنشـأ حالة القسـوة والعنف بين الناس، وإنما جاء الأنبياء والرسـالات من أجل هداية الناس، ونشر ثقافة الرحمة والتراحم فيما بينهم، ليقوم الناس بالقسـط، فـإذا ابتعد الناس عن القيم الدينية سـادتهم حالة العنف والشـقاء، وهذا ما تعاني منه البشرية الآن.

الحضـارة المادية تشـيع روح المصلحة والربـح، وتحرّض حالـة الأنانية عند الإنسـان، لذلك انتشرت حالة العنف والقسوة بين أبناء البشر في هذا العصر، إذ لم يمرّ على البشرية عصر من العصور كانت فيه القسوة والعنف والجريمة أكثر انتشاراً مـن هذا العصر، والإحصائيات تقول: في القرن العشـرين قتل ١٦٧ مليون إنسـان بسـبب الحـروب والنزاعـات، وهنـاك أكثر من ٤٩٠ ألف شـخص يموتون سـنوياً بسبب العنف والجريمة.

وتُعدّ الآن تجارة العنف أو تجارة الأسلحة أضخم التجارات في العالم، فهناك تسـابق على إنتاج السـلاح، وهذه المصانع حينما تصنع أسـلحة، تبحث عن سوق لتصريف هذه الأسـلحة، ولا يكون ذلك إلا بخلق الحروب والنزاعات في العالم، ولذلـك هم مسـؤولون عـن خلق الحـروب والنزاعات مـن أجل تحريـك مصانع الأسـلحة لديهـم. وما عليك سـوى أن تنظر فـي ميزانيـات وزارات الدفاع عند أي دولـة مـن الـدول، لترى كم يُصرف على السـلاح، ولـو أن ما تصرفه البشـرية على السـلاح يصرف علـى التعليم والصحة وعلى الشـعوب الفقيـرة المحرومة في كل مكان، لكان وضع البشرية غير هذا الوضع، وهذا الحال.

فبعد الاتفاق بين أمريكا وروسيا على خفض نسبة الرؤوس النووية من البلدين، أصبح الآن لكل منهما ثلاث آلاف وخمسـمائة رأس نووي، وهذا يعني أن كل فرد على وجه الأرض حصته ٢٠٠ كغم من المتفجرات.

وهناك مشكلة الألغام الأرضية التي تنتجها المصانع. حيث لا تزال بعض الدول المستكبرة، ترفض التوقيع على اتفاقية عدم إنتاج الألغام الأرضية، إذ يوجد الآن في أرجاء المعمورة ١١٩ مليون لغم، وإنتاج اللغم الواحد يكلف خمس دولارات، وإزالته تكلف ٥٠٠ دولار، وفي كل سنة يموت ٢٦ ألف إنسان بسبب تفجّر ألغام. ففي حرب تحرير الكويت تم استخدام خمسة ملايين لغم، كما استخدمت العديد من الأسلحة الفتاكة التي لا تزال آثارها إلى الآن، ويذكر الباحثون والخبراء أن أحد أسباب ارتفاع إصابات السرطان في منطقة الخليج هي الأسلحة والمواد التي استخدمت في تلك الحرب المجنونة الفتاكة، فالغرب جعل من منطقتنا منطقة تجارب للسلاح، والشرق الأوسط يستورد ٤٠٪ من صادرات السلاح في العالم، ولهذا لا تريد الدول المستكبرة وخاصة أمريكا أن يسود السلام والوئام بين دول المنطقة، بل تريد كل دولة تعيش القلق من الدول الأخرى، حتى تشتري كل دولة أسلحة في مقابل الدولة الأخرى، فهم يؤججون المخاوف فيما بين دول المنطقة وشعوبها، حتى يبيعوا أسلحتهم، ويهيمنوا على المنطقة.

هذه هي الحضارة المادية، حضارة عنف ودمار. فيها تقدم علمي وتكنولوجي، وهذا لا يُمكن إنكاره، إلا أنه مع الأسف الشديد هناك أيضاً ارتفاع في مستوى العنف والجريمة في العالم، بسبب هذه الحضارة المادية، ويكفي أن تسمع الأخبار يومياً لتعرف ما يجري في العالم بصورة دائمة من دمار بسبب هذه الحضارة، وبلاد المسلمين هي الضحية الكبرى.

□ العنف شقاء المجتمع

بدأ العنف ينتشر في داخل مجتمعاتنا بعكس ما كانت عليه في الماضي، حيث كانت تعيش الأمن والاستقرار الداخلي. والمجتمع هو حصن الإنسان، وملجأه يعيش فيه مثل بيته، يأمنه ويستقر فيه ويطمئن له، ومع الأسف الشديد فإن حالة الاستقرار والأمن الاجتماعي التي كنا نعيشها بدأت تتلاشى، فقد بدأت حالات من

الرعب والعنف والإجرام تتسلل إلى مجتمعاتنا، وإحصائيات الأمن العام السعودي لعام ٢٠٠٦م تكشف بعض هذا الأمر، تقول الإحصائية: في كل يوم في بلادنا هناك ٤٣ جريمة قتل أو محاولة قتل، وفي كل يوم ١١٠ جريمة سرقة[١].

وبعيداً عن الإحصائيات كنّا نفخر بمجتمعنا المتجانس الذي يعيش حالة الاستقرار والأمن الاجتماعي، وكيف أن كل شاب، وكل واحد من أبناء المجتمع، كان يرى نفسه أميناً على كل أعراض مجتمعه، وعلى كل أمواله، وكان يعتبر نفسه جزءاً من عائلة المجتمع الكبيرة، ومع الأسف الشديد أصبحنا نجد في هذه السنوات حالات من الإجرام، ومن أناس لم يأتوا من كوكب آخر ولا من مجتمع آخر، إنهم من هذا المجتمع، هناك نسبة كبيرة من الجرائم من قبل الوافدين من خارج البلد، لكن نسبة ليست قليلة هي من أبناء المجتمع نفسه. فكيف يرتاح الإنسان وهو يجد أن شباباً من أبناء مجتمعه يمارسون العنف فيما بينهم، ويمارسون العنف على الآخرين، ويسطون لسرقة بيوت بعضهم بعضاً، وخاصة في مثل أيام المناسبات، هناك عصابات تعرف أن منطقة خالية من أهلها لأنهم في مناسبة أو مأتم، فيسطون على البيوت، ويسرقونها، وأكثر من ذلك حصل أكثر من مرة أن امرأة تمشي في الطريق يسحبون الحقيبة من يدها حتى تسقط على الأرض، وينهبون الهاتف الجوّال من يد إنسان يتكلم به.

وعند التأمل فيما يجري نجد أن لهذه الظاهرة أسبابًا، وعلينا جميعا أن نهتم بمواجهة هذه الحالة، ففي كل دول العالم والمجتمعات هناك برامج يطلق عليها برامج الوقاية من العنف، ونحن نحتاج إلى مثلها، هذه البرامج تبدأ من التربية؛ لأن ثقافة العنف قد يرتضعها الإنسان وهو طفل، فمثلاً أفلام الكارتون في غالبها أفلام عنف، فالطفل وهو صغير يرى العنف، ووسائل الإعلام دائماً تنقل أمامه مناظر العنف، فيتربى على ذلك. بعكس الماضي، كان الإنسان إذا رأى حالة قتل

(١) صحيفة الوطن السعودية. الصادرة بتاريخ ٢٦/ ٨/ ٢٠٠٦م.

يرعـب ويخـاف ويرتعد، أمـا الآن فقد اصبحـت مناظر الدمـاء والقتـل عادية أمام الإنسـان؛ لأن وسـائل الإعلام طبّعت هـذه المناظر، بنقلها للأحـداث التي تجري في العالم، فأصبح الإنسـان يسـتخدم السـلاح على أقل خلاف وأتفه قضية. وقبل أيام نشـرت جريدة الرياض أن نساءً في القطيف تشاجرن في محل لبيع (الشاورما) بسـبب تقديم طلب زبونة على أخرى، وبدأ الشـجار بالملاسنة ثم تطور إلى صراع بالأيدي، ورشق متبادل بالحقائب وما كان متوفراً من أشياء[١].

ماذا حلّ بنفوسنا؟ هناك حالة تشنج، أعصابنا مشدودة على بعضنا بعضاً، وهناك تسـاهل أمام تسـلل السلاح وتجارته واستخدامه، ونحن نأمل أن أجهزة الأمن تزيد من نشاطها ودورها، ولا يترك الموضوع هكذا، والناس يجب أن يكون لهم دور.

علينـا جميعـاً أن نتحمل المسـؤولية، حمايةً لأنفسـنا ولأعراضنـا، وأن نعالج الأسـباب، وهنا أتحدث عن واحدٍ من أهم الأسباب التي تقف وراء انتشار حالات العنف في مجتمعنا.

العنف الأسري

أهم شـيء داخل الأسـرة هي علاقة المحبة، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [سورة الروم: الآية ٢١]، فيجب أن تسود الحياة العائلية المودة والرحمة، وليست هناك علاقة أوثق للإنسان مـن علاقتـه بعائلته، ومـن علاقة الزوج بزوجتـه، والقرآن الكريم يعبـر عنها بقوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ فكما أن اللباس ملتصق بجسـد الإنسان، وساترٌ وزينـة له، فإن العلاقة الزوجية تخلق هذه الحالة بين الرجل والمرأة، ولذلك ينبغي أن تكون العلاقة داخل العائلة، بين الزوجين ومع الأولاد علاقة مودة ورحمة.

والسـؤال: هـل تُحقـق العلاقـة الزوجيـة اليـوم هـذا المسـتوى مـن المـودة

(١) جريدة الرياض. الصادرة بتاريخ الاثنين ٢٤ ذي الحجة ١٤٢٩هـ ـ ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٨م ـ العدد ١٤٧٩١.

والرحمة؟

في الحقيقة أصبحنا نسمع ونرى حالات من العنف الأسري، تُهدد الحالة العائلية بالتفكك والانهيار، فما يصنعه بعض الأزواج بزوجاتهم، وما تصنعه بعض الزوجات بالأولاد والأطفال، أو بتصرفاتها السيئة تجاه الزوج، يُنذر بخطرٍ كبير. وهذا يجعلنا في حاجة ماسّة إلى الحديث حول هذا الأمر، وتكوين اللجان والمراكز والمؤسسات، وبث الوعي، وإصدار التشريعات والتقنينات التي تردع مثل هذه الممارسات، فالزوجة أمانة ولا يصح أن يُمارس تجاهها العنف، فقد ورد عن رسول الله ﷺ: «فأي رجل لطم امرأته لطمة، أمر الله عز وجل مالك خازن النيران فيلطمه على حرّ وجهه سبعين لطمة في نار جهنم»[١]. فلا يجوز للرجل أن يتعامل بالسوء مع زوجته، فإن الله يحاسبه على ذلك، وحتى لو صدر خطأ من الزوجة فعلى الزوج أن يستوعب الخطأ ويحتويه، وله في ذلك ثواب عظيم، ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من صبر على سوء خلق امرأته واحتسبه، أعطاه الله بكل مرة يصبر عليها من الثواب مثل ما أعطى أيوب على بلائه»[٢].

وما افتخر رسول الله ﷺ بأنه خير الناس في شيء إلا بالرحمة لأهله حيث قال ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[٣].

فلا يصحّ للإنسان أن يؤذي زوجته، لا بالضرب، ولا بالزجر، ولا يجوز له أن يسبها، فكل ذلك حرام ، وعلى الزوجة ألّا تغضب زوجها، ولا تسيء إليه فإنها تكون مأثومة، وكما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كان له امرأة تؤذيه لم يقبل الله صلاتها ولا حسنة من عملها حتى تعينه وترضيه وإن صامت الدهر وقامت وأعتقت الرقاب، وأنفقت الأموال في سبيل الله وكانت أول من يرد النار،

(١) مستدرك الوسائل. ج١٤، ص٢٥٠.
(٢) وسائل الشيعة. ج٢٠، ص١٦٤.
(٣) وسائل الشيعة. ج ٢٠، ص١٧١.

ثـم قال رسـول اللـه ﷺ: وعلى الرجـل مثل ذلك الـوزر العـذاب إذا كان لها مؤذيًا ظالمًا»[١]. وعن إسـحاق بن عمار قال: قلت لأبـي عبد الله عليه السلام: ما حق المرأة على زوجهـا الـذي إذا فعله كان محسـنًا؟ قال: يشـبعها ويكسـوها وإن جهلت غفر لها، وقال أبو عبد الله عليه السلام: كانت امرأة عند أبي عليه السلام تؤذيه فيغفر لها)[٢].

نحن بحاجة إلى نشر هذه الثقافة، في مقابل ثقافة التحدي التي تسود في بعض الأحيـان بين الزوجين، خلافاً لأمر الله، يقول تعالى: ﴿فَإِمْسَـاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾[سورة البقرة: الآية٢٢٩]، ومع الأسـف الشـديد بدأت تظهر مثل هذه الظواهر والحالات، وعلى الإنسـان أن يعرف الحدود ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا﴾[سورة البقـرة، الآيـة:٢٢٩]، لا تتعـدَّ حـدود اللـه، وقد تكرّرت فـي العلاقة الزوجيـة هذه الآية أكثر من مرة، وبعض الأزواج يرى نفسـه وكأنه مسـلّط على زوجته، وعلى أموالها، وبعض النسـاء تتعـب وتتحمّل عمل البيـت وتربية الأبناء، قد تكـون موظفة أيضاً، ومع ذلك تجد الزوج لا يقدِّر هذا الدور لزوجته، ولا أريد أن أنحاز للمرأة، فبعض النساء تسيء لزوجها، ولا تقوم بالواجب تجاهه.

نحن بحاجة إلى المودة والرحمة ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾، والأسرة يجب أن تسودها حالة الألفة والمحبة بين الأب وأولاده، بين الزوج وزوجته، وإذا تربـى الولد فـي بيت كله حب وعطف وحنان سـيكون أقرب إلى الاسـتقامة، بينما من يتربى في بيت تعصف به الخلافات والشـقاق والعنف والقسوة، فإن الولد ينشأ وكأنه مشروع إجرام، يصبح مهيأ لممارسة الإجرام.

ومـن الأشـياء الهامة التي يجب أن نتأملها في سـيرة نبينا محمد ﷺ مع أسـرته وعائلته، حالة المحبة التي تسود تلك الأسرة، ونتعلم منها، وكذلك كان أهل البيت فـي علاقاتهـم مع أسـرهم وأبنائهم، كانوا يحبـون أبناءهم، ويحترمـون زوجاتهم،

(١) بحار الأنوار. ج ٧٣، ص٣٦٣.
(٢) الكافي. ج٥، ص٥١١.

وخاصة حينما يكون الابن في مستوى عالٍ من الأخلاق والالتزام.

وتحدثنا السيرة الحسينية عن أروع صور المحبة التي كانت تتجلى في حبّ الحسين لولده علي الأكبر، وفي تفاني علي الأكبر في حب أبيه الحسين، حيث كان من أشد المواقف ألماً وحزناً على قلب الحسين استئذان ولده علي الأكبر للخروج إلى المعركة، تقول الروايات: إنه أرخى عينيه بالدموع ورفع طرف إلى السماء قائلًا: اللهم اشهد فقد برز إليهم غلام أشبه الناس خَلقاً وخُلقاً ومنطقاً برسولك ﷺ وكنا إذا اشتقنا إلى نبيك نظرنا إليه.

وحين وقف الحسين على مصرع ولده علي الأكبر تحدث من أعماق قلبه قائلاً: قتل الله قومًا قتلوك، يا بني! ما أجرأهم على الله، وعلى انتهاك حرمة رسول الله، على الدنيا بعدك العفا.

رسالة عاشوراء

- ☐ فلسفة الشهادة
- ☐ لماذا قتل الحسين؟
- ☐ في مواجهة خطر الطائفية

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية:١٦٩]

فلسفة الشهادة

أعـزّ ما على الإنسـان في هذه الحياة، روحه التي بيـن جنبيه، لذلك فهو يحافظ على حياته، ويبعد أي أذى عن نفسه. والإنسان المؤمن أشدّ حفظاً، وحمايةً لحياته وروحـه مـن غيـر المؤمن؛ ذلـك لأن إيمانـه يحمّله مسـؤولية الحفاظ علـى حياته وروحه، فهي أمانة عنده، ولا يجوز له شـرعاً أن يفـرط في هذه الأمانة، ولهذا حُرّم الانتحار، وإلقاء النفس في التهلكة. كما أن الحياة لها حرمتها، وقدسيتها، ومكانتها في الإسـلام، وحالات الاسـتهتار بالحياة، إنما تحصل عند من لا يعي، ولا يتعقل روح الإسـلام، ولا يفهمـه فهماً صحيحـاً. في حين يفترض في المسـلم أن يحافظ علـى حياته، ويسـلك مختلف الطرق من أجل تحقيق ذلـك، فواجب عليه حمايتها شرعاً، ولا يصح له أن يقصّر في وسائل حماية حياته، وحفظ روحه.

أمـا إذا كانت هناك غاية أهمّ وهدف أسـمى وهي خدمـة القيم، والحفاظ على المبـادئ المقدسـة السـامية، فهنا تكون المعادلـة مختلفة، وهذا يطلـق عليه عنوان (في سـبيل الله). فحينما تكون المسـألة (في سبيل الله)، وتكون قيم الحق معرّضة للخطر، وتحتاج إلى الدفاع، والفداء والتضحية، فإن المعادلة تنقلب عند الإنسـان المؤمن، فبعد أن كان يحافظ على حياته ويحمي نفسه، تراه مندفعاً، ومبادراً للدفاع عن هذه المبادئ والقيم، وإذا ما أصيب في معركته من أجل المبادئ والقيم، يطلق عليه الدين مصطلحاً عظيماً هو مصطلح (شهيد).

والشـهادة من الشـهود، ويعني: الحضور، فهو حاضر وليس غائبًا، وهو شاهد على ساحته، وعلى مجتمعه وعصره. وقد ورد في فضل الشهادة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فوق كل برٍّ برّ حتى يُقتل الرجل في سـبيل الله، فإذا قُتل في سـبيل الله عز وجل فليس فوقه بر»[١].

وربما يتصور الناس أن الذي يُقتل في سـبيل الله خسـر الحياة، وانتهت حياته، إلا أن الآية الكريمة تطرح مفهوماً آخر، وهو أن الشهيد بشهادته بدأ حياته الحقيقية، فهو قد كسـب الحياة ولم يخسـرها، ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، إنهم أحياء عند الله في الحياة البرزخية، فرحين بما آتاهم اللـه من فضله، وهم أحياء في ضمائر النـاس، وفي ذاكرة التاريخ، لأنهم قد ضحوا من أجل القيم، فيصبحون خالدين بخلود تلك القيم، التي ضحوا من أجلها.

وحيث إن الشهداء يتفاوتون في المكانة والمقام بتفاوت شخصياتهم، ومواقف التضحية التي وقفوها، لذلك فإن أبا عبد الله الحسين عليه السلام سبط رسول الله ﷺ، وسيد شـباب أهل الجنة، هو في الطليعة من الشـهداء، وكما أطلق عليه الأديب المصري المعروف عباس محمود العقاد: عنوان (أبو الشهداء).

الشهادة الخالدة

وقضية الإمام الحسين عليه السلام نموذج بارز لخلود الشهداء في سبيل الله، فمع مرور العصور والأجيال والأزمنة، إلا أن قضيّة الحسين عليه السلام تتجدد دائماً وأبداً.

لماذا الاهتمام بقضية الإمام الحسين عليه السلام؟

وربمـا يكـون هنـاك تسـاؤل: لماذا هـذا الاهتمـام المميّـز بعاشـوراء وبقضية الإمـام الحسـين عليه السلام؟ رغم أن هناك حـوادث كثيرة حصلت في التاريخ الإسـلامي والإنسـاني؟ وكثيرون قد استشهدوا في سبيل الله، فهذا أبوه أمير المؤمنين علي بن

(١) وسائل الشيعة. ج١٥ ص١٧.

أبي طالب عليه السلام كان شهيداً في سبيل الله وفي محراب صلاته فلماذا هذا التميّز في قضية أبي عبد الله الحسين عليه السلام؟

نريد أن نسلط الأضواء على سرّ هذا الخلود، وسرّ هذا الاهتمام:

أولاً: العناية الإلهية

يمكننا أن نقول بكل ثقة إن هناك عناية إلهية خاصة بقضية أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وهذا ليس تحليلًا أو ادّعاءً، إنما هذا ما نلمسه من سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنها الحادثة الوحيدة التي اهتم بها رسول الله صلى الله عليه وآله، وأبدى التألم والتفجع لها قبل وقوعها بنصف قرن، ولو تأمل كل مسلم في الأحاديث الواردة عن اهتمام رسول الله صلى الله عليه وآله بقضية شهادة سبطه أبي عبد الله الحسين عليه السلام، لأدرك هذه الحقيقة.

وهذه الأحاديث موجودة في مصادر المسلمين، فينبغي أن نقف عندها وقفة تأمل، فرسول الله صلى الله عليه وآله ليس إنساناً عادياً ينطلق من عاطفةٍ محضة، وبهذه الطريقة التي لا يقوم بها الأشخاص العاديون من البشر، فالأشخاص العاديون يتألمون حينما يصاب وليد لهم وقت إصابته، أما قبل إصابته بخمسين سنة، هذا لم يحدث لأي إنسان من البشر، إلا أنه حصل من رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهي أحاديث أكدّ العلماء صحتها سنداً، ومنها ما أورده الحاكم النيسابوري في كتابه المستدرك على الصحيحين بسنده: «عن أم الفضل بنت الحارث: أنها دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله، رأيت الليلة حلمًا منكرًا، قال: «ما هو؟» قالت: إنه شديد، قال: «ما هو؟» قالت: رأيت كأن قطعة من جسدك قطعت ووضعت في حجري؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رأيت خيراً، تلد فاطمة غلاماً فيكون في حجرك». فولدت فاطمة عليها السلام الحسين عليه السلام وكان في حجري كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله، فدخلت يوماً إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فوضعته في حجره، ثم حانت مني التفاتة فإذا عينا رسول الله صلى الله عليه وآله تهريقان من الدموع، قالت: فقلت: يا نبي الله بأبي أنت وأمي، ما لك؟! قال: «أتاني جبرئيل عليه السلام فأخبرني أن أمتي ستقتل ابني هذا، فقلت:

هذا! فقال: نعم، وأتاني بتربة من تربته حمراء»[١].

قال الحاكم النسيابوري: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ونقل هذا الحديث وصححه أيضاً الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، وقال هذا سنده صحيح، وله شواهد عديدة، ثم ذكر من الشواهد، بسنده عن أم المؤمنين أم سلمة وعن أم المؤمنين عائشة قال دخل رسول الله ﷺ على أحدهما وقال لها: «لقد دخل عليَّ البيت ملك لم يدخل عليَّ فيها فقال لي: إن ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها، قال: فأخرج تربة حمراء»[٢]. وذكر الألباني شواهد أخرى أيضًا تؤكد صحة هذا الحديث.

وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن عبد الله بن نجي وكان صاحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «أنه سار مع علي عليه السلام وكان صاحب مطهرته فلما حاذى نينوى وهو منطلق إلى صفين فنادى علي عليه السلام: اصبر أبا عبد الله، اصبر أبا عبد الله بشط الفرات. قلت: وماذا؟ قال: دخلت علي النبي ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان، قلت: يا نبي الله، أغضبك أحد، ما شأن عينيك تفيضان؟ قال: بل قام من عندي جبريل قبل، فحدثني أن الحسين يقتل بشط الفرات، قال: فقال هل لك إلى أن أشمك من تربته؟ قال: قلت: نعم، فمدّ يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها فلم أملك عيني أن فاضتا»[٣]، هذا ما ينقله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن رسول الله ﷺ.

وهناك عدد وفير من الروايات في مختلف كتب الحديث والتاريخ تنقل مثل هذا

(١) المستدرك على الصحيحين. ج٣، ص١٩٤، حديث ٤٨١٨.

(٢) محمد ناصر الدين الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة. ج٢، الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ، (بيروت: المكتب الإسلامي)، ص٤٨٥، حديث٨٢٢.

(٣) أحمد بن حنبل. مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج١، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، (بيروت: عالم الكتب)، ص٢٦٤، حديث ٦٤٨.

المشـهد عن رسـول الله ﷺ، أنه يتحدث عمّا سيجري على سبطه الحسين، ويبدي حزنه وتألمه لما سيقع عليه بعد أكثر من نصف قرن، حيث كانت ولادة الحسين في السـنة الرابعة للهجرة أو الثالثة، وشـهادته مطلع سنة إحدى وستين، حتى أصبحت القضية مشـهورة معروفة في أوسـاط البيت النبوي، ومن حوله من الأصحاب، كما أورد الحاكم النيسابوري في المستدرك بسنده عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: ما كنا نشك وأهل البيت متوافرون أن الحسين بن علي يقتل بالطف[1].

إن أكثر أمهات المؤمنين لاحظن هذا المشهد من رسول الله ﷺ، وكذلك عدد من الأصحاب، يقول الشـوكاني في (دّر السحابة في مناقب القرابة والصحابة) بعد أن نقـل بعض الأحاديـث في الموضوع: (وأخرج نحو هـذه الأحاديث (الطبراني) من حديث أم سـلمة، وابن سـعد من حديث عائشـة، و(الطبراني) في (الكبير) من حديث زينـب بنت جحش و(أحمد) و(أبو يعلى)، و(ابن سـعد)، و(الطبراني) في (الكبيـر) من حديث علـي، و(الطبراني) فـي (الكبير) أيضاً من حديـث أبي أمامة، و(الطبرانـي) فـي (الكبيـر) من حديث أنـس، و(الطبرانـي) في (الكبيـر) أيضاً من حديث أم سـلمة وأبي سـعد، و(الطبراني) فـي (الكبير) من حديث عائشـة، و(ابن عسـاكر) من حديث زينب أم المؤمنين، و(ابن عسـاكر) من حديث أم الفضل بنت الحارث، زوج العباس. فكانت القضية معروفة وواضحة، فما هو تفسير بكاء رسول اللـه ﷺ وتحدثـه عن هذا الأمر أمام زوجاته وأصحابه، لحادثة لم تقع بعد، ثم ينقل لنا الاهتمام الإلهي بها؟ هذا دليل على أن المسألة ليست مسألة عادية، ودليل على أن رسـول الله ﷺ يريد أن يلفت الأمة إلـى أهمية هذه الحادثة، وأن لا يتعامل معها كأي حادثة أخرى.

وإذا أضفنـا إلى ذلك مـا ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من الاهتمام بهذه الحادثة بعـد وقوعها، وهم أئمـة عظام، يبجّلهم كل المسـلمين، ونحن الشـيعة لنا معتقدنا

(١) المستدرك على الصحيحين. ج٣، ص١٩٧، حديث ٤٨٢٦.

الخاص فيهم كأئمة، فماذا نفعل إذا وجدنا هؤلاء الأئمة كلهم في حياتهم يتذكرون ما حصل للإمام الحسين عليه السلام؟ ويأمرون الناس أن يهتموا لهذه الحادثة، وألّا يمروا عليها مرورًا سريعًا؟ إن هذا سبب مهم من أسباب تخليد هذه الحادثة، والاهتمام بها.

ثانياً: عظمة شخصية الحسين

شخصية الإمام الحسين عليه السلام لم تكن شخصية عادية، ولا أحد من المسلمين ينكر مكانته، ومحبة رسول الله صلى الله عليه وآله البالغة له ولأخيه الإمام الحسن عليه السلام، وهناك أحاديث صحيحة وثابتة ترويها كتب المسلمين عامة، فقد ورد عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[1]، والأحاديث الواردة في فضل الإمام الحسين عليه السلام موجودة في كتب الفضائل من كتب الحديث من الصحاح والمسانيد، ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «حسين مني وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسينًا، حسين سبط من الأسباط»[2].

والأحاديث كثيرة ومتكررة وبصيغ مختلفة وفي مختلف المصادر الإسلامية، ولذلك كان الصحابة يجلّون الإمام الحسين. وورد أن الخليفة عمر بن الخطاب كان يخطب على المنبر فدخل الإمام الحسين عليه السلام المسجد وكان صغيراً في السن حتى وصل إلى المنبر وصعد وخاطب الخليفة عمر قائلاً: انزل عن منبر أبي واصعد منبر أبيك، فقال: إن أبي لم يكن له منبر، قال الحسين عليه السلام: فأقعدني معه، فلما نزل ذهب بي إلى منزله فقال: أي بني، من علمك هذا؟ قلت: ما علمنيه أحد، فقال: أي بني! لو جعلت تأتينا وتغشانا، قال: فجئت يومًا وهو خالٍ بمعاوية وابن عمر بالباب لم يؤذن له، فرجعت، فلقيني بعد فقال: يا بني! لم أرك أتيتنا؟ قلت: جئت وأنت خالٍ بمعاوية فرأيت ابن عمر رجع فرجعت، فقال: أنت أحق بالإذن من عبد الله بن

(١) المستدرك على الصحيحين. ج٣، ص١٨٢، حديث٤٧٧٩.
(٢) المستدرك على الصحيحين، ج٣، ص١٩٤، حديث٤٨٢٠.

عمر! إنما أنبت في رؤوسنا ما ترى الله ثم أنتم ووضع يده على رأسه»[١].

وهكـذا بقيـة الصحابة، فعبد الله بن عباس ـ حبر الأمة ـ كان إذا خرج الحسـن أو الحسـين يسوي لهما الركاب ويقدم لهما الدابة، قيل له: أنت أسنّ منهما تمسك لهما بالركاب؟ فقال: يا لُكَعْ! وما تدري من هذان؟ هذان ابنا رسول الله ﷺ أوَليس مما أنعم الله عليَّ به أن أمسك لهما وأسوي عليهما»[٢]. والصحابي أبو هريرة كان يشـارك في تشـييع جنازة امرأة فجـئ بجنازة رجـل فجعله بينه وبيـن المرأة فصلى عليهمـا، وأعيا الحسـين عليه السلام فقعد فـي الطريق، فجعل أبو هريـرة ينفض التراب عن قدميـه بطـرف ثوبه، فقال الحسـين عليه السلام: أتفعل هـذا؟! قال أبو هريـرة: دعني منك، فوالله لو علم الناس منك ما أعلم لحملوك على رقابهم»[٣].

فالحسـين عليه السلام ليس شخصية عادية، وحينما يتخذ موقفاً، لا بدّ وأن يكون محل اهتمام من كل المسلمين، ومن جميع الأجيال.

ثالثاً: أهداف الحركة الحسينية

ما هو الهدف في حركة الإمام الحسين عليه السلام؟ أما كان في وسعه أن يسالم ويهادن ويبايع يزيد بن معاوية، حتى لا تحصل هذه الحادثة؟

أجاب العلماء والمحققون عن هذا السؤال: بأنه لم يكن بوسع الإمام الحسين عليه السلام أن يفعل ذلك؛ لأن مسـالمة يزيد ومبايعته كانت تعني الموافقة على انحراف خطير قـد حصل في واقع الأمة، فكان لا بدّ وأن يسـجل الحسـين الاعتـراض، وأن يأخذ موقفـاً، حتـى تعرف الأمـة أن ما حدث يعتبـر انحرافاً خطيراً، وممـن كتب عن هذا الانحراف الخطير، الشـيخ أبو الأعلى المودودي، العالم الإسلامي الكبير مؤسس الجماعـة الإسـلامية في باكسـتان، لـه كتب كثيرة منهـا كتيب صغير طبـع في مصر

(١) كنز العمال ج١٣ ص٦٥٤، حديث ٣٧٦٦٢.
(٢) بحار الأنوار. ج٤٣، ص٣١٩.
(٣) ابن عساكر. ترجمة الإمام الحسين بن علي. ص١٤٩، حديث١٩١..

عنوانه (لماذا استشـهد الإمام الحسـين؟) في هـذا الكتيب يقـرر أن انحرافاً خطيراً قد حصل في واقع الأمة، فالخلافة الراشـدة التـي انتهت بمقتل أمير المؤمنين علي بـن أبي طالب عليه السلام، بدأ بعدها الملك العضـود، ومع مجيء يزيد بن معاوية كان هذا التحول الخطير قد أخذ مداه، فقد بدا وكأنه يترسّخ في واقع الأمة، بأن يأتي شخص ويحكم المسلمين دون رضاً منهم، ودون موافقة، وإنما عبر التوريث الذي لم يكن عند الخلفاء السابقين، وليس مقبولاً عند الأمة، ثم تفرض سلطته على الناس بالنار والحديد، وبعد ذلك فهو يتعامل في الأمة تعاملاً جائراً، ولا يلتزم بتعاليم الإسـلام فـي العدل والتشـاور وحريـة الرأي واحتـرام قيم الأمة ومقدسـاتها، هـذا انحراف خطيـر، لا يصح السـكوت عنه، بل لا بدّ من تسـجيل موقف تجـاه هذا الانحراف، ومـن أولى بأبي عبد الله الحسـين عليه السلام مـن اتخاذ هذا الموقف، كمـا قال عليه السلام: « أيها الناس، إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من رأى سلطانًا جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسـنة رسـول الله صلى الله عليه وآله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعـل ولا قـول كان حقاً على الله أن يدخله مدخلـه» ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفيء، أحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله وأنا أحقّ من غيّر»[1].

وقد وطّن الإمام الحسـين عليه السلام نفسه على أن يضحي بها في سبيل الله، من أجل أن يسجّل هذا الموقف الاعتراضي.

بالطبع فإن الإمام الحسين عليه السلام لم يتحرك من أجل الحرب والقتال، وقد تحدث مـع الجيش الأمـوي أكثر من مرة قائـلاً: «إني لـم آتكم حتى أتتنـي كتبكم، وقدمت علـى رسـلكم، أن أقدم علينا فإنه ليـس لنا إمام، لعل الله يجمعنـا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم، فإن تعطوني ما أطمئن إليه من عهودكم ومواثيقكم أقـدم مصركم، وإن لـم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفـت عنكم إلى المكان

(١) تحف العقول، ص٥٠٥.

الـذي أقبلت منه إليكـم»[١]. ولكنهم أصـرّوا عليه، بأن لا مجال، إمـا أن تنزل على حكـم يزيـد بن معاوية، وتبايعه، أو نناجزك القتال، فهنا لم يجد الإمام الحسـين عليه السلام بـدًّا من أن يعانق الشـهادة، ويضحي بنفسـه في سـبيل قيمه، وفي سـبيل أن يوضح للأمة وللأجيال القادمة، إن هذا الانحراف الخطير ليس مقبولاً، ولا يصح السكوت عنه.

رابعاً: وحشية الجيش الأموي

إن أحد أسـباب خلود هذه الحادثة هي الطريقة المأسـاوية التي قُتل بها الإمام الحسـين عليه السلام، فهي لم تكن مجرد معركة يقتل فيها رجال من الطرفين، وإنما مارس جيـش يزيـد أفظـع الأسـاليب للتمثيـل والتنكيـل والإيذاء بعتـرة رسـول الله صلى الله عليه وآله، والخطاب الذي جاء من ابن زياد لابن سعد دليلٌ على ذلك حيث كتب إليه آمراً له: « فازحـف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فإنهم لذلك مسـتحقون، فإن قتل حسـين فأوطِ الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم»[٢].

فالمسـألة لم تكن مجرد قتل عادي. وبعد المعركة ما فُعل بأسـرة الحسـين عليه السلام وعائلتـه مـن فظائع ومصائب، بحيث لا يمكن لمسـلم أن يقرأ مـا حصل على أهل البيت عليهم السلام في كربلاء، وأن يطّلع على تلك المأسـاة فلا يرق قلبه، ولا تنهمر دموعه، ولا يتألم ويتحسـر ويبكي. ولذلك فإن البكاء على الإمام الحسـين عليه السلام حينما تذكر حادثته أمر عفوي، وطبيعة وجدانية، لا يملك الإنسـان سـبيلاً لدفعه، إضافة إلى أن البكاء عليه كما ورد في روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام يعني الإسهام في تخليد هذه الحادثة، كي لا تُنسى، ولا يعتّم عليها، ولا تُهمل في التاريخ، كسائر الحوادث.

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص٣٠٣.
(٢) المصدر نفسه. ص٣١٤.

□ لماذا قُتل الحسين؟

والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا حصل للإمام الحسين عليه السلام ما حصل؟ هل كان قدر الإمام الحسين عليه السلام مجهولاً عند الناس؟

إن السبب الوحيد هو الخذلان، فجميع من كتبوا للإمام الحسين عليه السلام سواءً من أهل العراق أو من الكوفة كلّهم قد خذلوه، ولذلك صار يعاتبهم، «أفهؤلاء تعضدون؟ وعنا تتخاذلون؟»[1].

ويبدو أن حالة الخذلان في الأمة باتت مستمّرة إلى زماننا هذا، فهذا الجرح النازف لإخواننا الفلسطينيين شاهد قائم، إذ كيف استطاع الصهاينة أن يقوموا بعدوانهم السافر على غزة لولا التخاذل والانقسام الذي حصل في الساحة الفلسطينية وساحة الأمة؟ هذا التخاذل هو الذي مكّن الصهاينة من أن يفعلوا ما فعلوا مما يندى له جبين كل مسلم. هؤلاء الذين يُقتلون من الفلسطينيين في غزة، أليسوا بشرًا ومسلمين وعربًا؟ أليسوا مظلومين؟ هذه وسائل الإعلام تنقل لنا الصور المؤلمة المفجعة، أمهات ثُكلن بأبنائهن، وعوائل كاملة تفنى بسبب القصف على منازلهم، عائلة من ثلاثين شخصًا في منزل واحد هدم على رؤسهم. فأين المسلمون؟ أين العرب؟ أين الغيرة والشهامة؟ لماذا يرضى المسلمون أن يحلّ بجزءٍ منهم وبإخوة لهم يدافعون عن وجودهم وأرضهم ما حلّ من فظائع ومآسٍ؟

المشكلة تكمن في الانقسام والتخاذل، وهذا أهم خطر يواجه الأمة في هذا العصر، ويستفيد منه أعداء الأمة، فالانقسام والخلافات والتمزق الذي يحصل في الأمة، هو الذي يصنع الأرضية لهيمنة العدو.

كما أن حالة الانقسام والتخاذل في ساحة الأمة هو الذي مكّن الأمريكيين أن يغزو العراق ويحتلوها، وأن يفعلوا ما فعلوا في العراق، فالحكم الجائر السابق

---

(١) بحار الأنوار ج٤٥ ص٨٣.

في العراق صنع انقسامًا في وسط الشعب العراقي، بين الأكراد والعرب، وبين السنة والشيعة، وقد استغلّ الأعداء ذلك لتحقيق مآربهم، وهم يريدون أن يستغلّوا أي خلاف، وأي تفرقة وانقسام في أي بلد من بلدان المسلمين، ولذلك فإن على الواعين في كل بلد ووطن، أن يحموا ويحفظوا وحدتهم، وألّا يسمحوا للانقسام وللصراعات أن تنتشر وتتفشى فيما بينهم، حتى لا يستغلّها الأعداء، فهم يعزفون على وتر الطائفية، وإثارة الخلاف بين السنة والشيعة، حتى يشغلوا المسلمين عمّا يفعل الصهاينة، وعما تفعل الإدارة الأمريكية السيئة ضد الإسلام والمسلمين، يريدون أن يشغلونا بخلافات داخلية، يريدون أن يقنعوا السنة بأن العدو الرئيس لهم هم الشيعة، وأن يقنعوا الشيعة بأن الخطر الأكبر عليهم هم السنة، وأن يقنعوا العرب بأن إيران هي الخطر عليهم، وأن يوحوا إلى الإيرانيين بأن العرب هم التحدي أمامهم؛ لأن الأعداء لا يريدون لهذه الأمة أن تتماسك وتتوحّد، من هنا علينا ألّا نعين الأعداء على أنفسنا.

□ في مواجهة خطر الطائفية

إن الموضوع الطائفي هو أكبر خطر تواجهه الأمة، ولذلك نجد في هذه السنوات بين وقت وآخر تهبّ عاصفة من العواصف الطائفية، عبر بيان يصدر هنا، وبيان يصدر هناك، وموقف من هنا، وموقف من هناك، وإثارة في هذا البلد، وإثارة في تلك البلد، كل ذلك من أجل أن تُوقد نار الفتنة علينا، ولذا ينبغي أن نكون يقظين واعين.

إن خطر الطائفية يتجلى في مظهرين، وينبغي إذا أردنا أن نواجه هذا الخطر أن نقف أمام هذين المظهرين:

المظهر الأول: التمييز الطائفي

في أي بلد يتنوع فيه المواطنون بين سنة وشيعة، لا يصح ولا يجوز أبدًا أن

يكـون هناك تمييز بين المواطنين، بسـبب انتماءاتهم المذهبيـة، بل ينبغي أن يعيش الناس المساواة ضمن حقوق المواطنة، وضمن تعاليم الشرع الشريف، أما إذا كان هنـاك تمييز، وهناك عدم تكافؤ في الفرص، بـأن تكون لجماعة مواقع ومناصب لا تتاح لجماعة أخرى، فهذا من التمييز الطائفي.

وكذلـك إذا كانـت هنـاك ضغـوط ومضايقـات علـى الشـعائر والممارسـات العبادية، فهذا من التمييز الطائفي؛ لأن من حق كل مسلم أن يتعبّد الله حسب قناعته ومذهبه.

وحينما يكون هناك تمييز فإن العدو ينفذ من خلال هذه الثغرة، وعلى الأمة في مختلف الأوطان، أن ترصد هذه الحالة وتواجهها.

وكما أننا على المستوى الوطني حينما لاحظنا حالات الفقر بدأنا نتحدث حول الفقر، وأن تكون هناك برامج ومشـاريع لمعالجة حالات الفقر، وحينما لاحظنا أن هناك انتهاكات لحقوق الإنسان، بدأت تتكون هيئات ومؤسسات للدفاع عن حقوق الإنسـان. وحينما لاحظنا أن هناك تشددًا وغلوًا وتطرفًا، بدأ العمل والتحرك ضده. كذلك ينبغي ألّا نسـكت على التمييز الطائفي، وأن نرفض حالات التمييز الطائفي، وأن نبـادر إلـى معالجتها، والوقوف أمامهـا، أما إذا تنكرنا لها وتجاهلناها وسـكتنا عنها، فإنها تمثل أرضية الانقسام والفتنة، وهي التي تمكّن الأعداء من النفوذ.

المظهر الثاني: التعبئة الطائفية

بـأن يقوم الخطباء والدعاة في كل مذهب بالتعبئة ضد الطرف الآخر، وإصدار البيانات والفتاوى ضدّ بعضهم بعضًا. ومع الأسف الشديد، نلحظ وكأن هناك سوقًا رائجـة لمثل هذه الخطابات والفتـاوى التي تؤلب وتؤجج في مختلف المجالات، وهذا يضرّ الوحدة الإسـلامية، والوحدة الوطنية، ولا بدّ من الوقوف أمام مثل هذه الآراء وهذه الفتاوى، ولا يصح السـكوت عنها، سـواء صدرت من طرف سني، أو من طرف شيعي.

نجد أن قيادات الشيعة في مختلف مناطقهم يعلنون موقفاً واضحاً ضد الإثارات والتعبئة الطائفية، فهذا أكبر مرجع للشيعة وهو السيد السيستاني، قد أصدر العديد من البيانات والخطابات التي تُعالج هذه القضية، وآخر حديث له أكد فيه على «حرمة دم كل مسلم سنيًا كان أو شيعيًا وحرمة عرضه وماله والتبرؤ من كل من يسفك دمًا حرامًا أيًّا كان صاحبه»(١).

وفي إيران، أعلى موقع هو قائد الثورة الإسلامية السيد الخامنئي له تصريح مهم نشر في جريدة الرياض في الصفحة الأولى يقول فيه: «لو خيل للذين يتهمون إخوانهم السنة ويسيئون إليهم بأنهم يخدمون طائفتهم من خلال ذلك فإنهم مخطئون لأن ما يقومون به سيشعل نار العداوة والبغضاء وأن ذلك لا يعتبر دفاعًا عن الشيعة بل عن الولايات المتحدة وإسرائيل»(٢).

وقيادات الشيعة في لبنان، كالعلامة المرجع السيد فضل الله، والسيد حسن نصر الله، خطاباتهم وبياناتهم تدين أي إساءة، وأي تفرقة بين السنة والشيعة.

كما أن علماء من السنة لهم كلام إيجابي وحدوي، ولا يرضون بهذه الفتنة، ولكن هناك من لا يزال يؤلب، ويؤجج الفتنة. وعلينا جميعًا أن نقف أمام هذه الحالات؛ لأنها تضرنا جميعًا.

فالتخاذل والانقسام هو الذي يقف وراء مآسينا في التاريخ السابق والواقع المعاصر. فحينما يتخاذل المسلمون عن بعضهم بعضاً، ولا يقومون بواجب النصرة، وينشغلون بخلافاتهم الداخلية، فإن النتائج لن تكون أفضل مما هي عليه اليوم.

من كان يتصور أن يحصل في كربلاء لأبي عبد الله الحسين عليه السلام ما حصل وجرى رغم عظمة الهدف الذي تحرك من أجله الإمام الحسين عليه السلام؟

(١) موقع السيد السيستاني www.sistani.org .

(٢) جريدة الرياض الصادرة بتاريخ ٢١ ذو الحجة ١٤٢٩هـ العدد ١٤٧٨٨.

وعلينا جميعاً أن نضع هذا الهدف نصب أعيننا في كل عام حينما نحيي هذه الذكرى العظيمة، يقول الإمام الحسين عليه السلام: «إني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا مفسدًا ولا ظالمًا وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر»[1].

علينا أن نتحمل مسئوليتنا تجاه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يصح لنا أن نسكت عن المنكرات وهي تتفشى في مجتمعاتنا، وهي تفترس أبناءنا وشبابنا، نحن الآن نواجه المنكرات الفادحة مثل المخدرات، التي بدأت تتسلل وتنتشر من أجل قتل شبابنا، وإفسادهم، فعلينا أن نتعاون للوقوف أمامها، فالمخدرات ليست مجرد معصية، وإنما هي شقاء وإنهاء لحياة الإنسان حينما يتورط فيها، الذين ابتلوا وأصبحوا مدمني مخدرات، يجب التعامل معهم كمرضى، يتعاون الجميع من أجل علاجهم وإنقاذهم، فلا ينبغي لنا أن نغفل عن هذه المسألة، فالأب عليه أن لا يغفل عن أبنائه، والمؤسسات الاجتماعية ينبغي أن تهتم بهذا الموضوع.

وكذلك الحال فيما يرتبط بالأمور المنكرة الأخرى، كانت هناك مبادرة طيبة من ثلة من الشباب المؤمنين في القطيف، مع بعض العلماء والدعاة، ذهبوا إلى بعض الأسواق التي كانت تباع فيها سيديات وأشياء إباحية، واستطاعوا أن يضعوا لها حد، وهذا ما يجب أن يكون دائمًا وأبدًا، فلا يصح أن نسمح بأن تتداول هذه السموم بين أبنائنا، علينا أن نهبّ ضد المنكر، وأن ننشر المعروف، فهذا هدف أبي عبد الله الحسين عليه السلام الذي لم يتحرك من أجل مصلحةٍ شخصية، ولا من أجل الحصول على سلطةٍ ومنصب، وخطاباته يوم عاشوراء دليل واضح على ذلك.

وإذ تحضرون هذه المجالس لإحياء هذه المناسبة، عليكم جميعاً أن تتمثّلوا هذا الهدف العظيم في حياتكم، نسأل الله أن يوفقنا وإياكم لإحيائها عامًا بعد عام، في أمن وأمان، وأن يجعلنا من المستفيدين من هذه المناسبة بما ينعكس على إيماننا

(١) بحار الأنوار ج٤٤ ص٣٢٩.

ودينا وسلوكنا ووحدتنا.

ولا بدّ لنا في هذه المجالس أن نستحضر مواقف الصمود والثبات التي وقفها أبو عبدالله الحسين عليه السلام، غير عابئ بحشود الجيش الأموي، ولا متردد في تقديم الضحايا والقرابين من أصحابه وأهل بيته، وقد عبّر عن موقفه العظيم بقوله: «ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين: بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة! يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبية من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإني زاحف بهذه الأسرة مع قلة العدد وخذلة الناصر»[1].

(١) السيد ابن طاووس. اللهوف في قتلى الطفوف، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، (قم: أنوار الهدى)، ص٥٩.

الجماعات الشبابية والدور المطلوب

- ☐ دور الأصدقاء في حياة الإنسان
- ☐ اختيار ثلة الأقران
- ☐ الانفتاح على الجماعات الشبابية

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[سورة الزمر: الآية٧٣]

□ دور الأصدقاء في حياة الإنسان

تتعدد أنواع ارتباط الإنسان مع من حوله، فهناك ارتباطٌ عفوي طبيعي كارتباطه بعائلته وأسرته، وجيرانه، وبزملائه في العمل.

وهناك ارتباط مصلحي؛ فالإنسان له مصالح في حياته العملية فيرتبط بأناس في تجارته، وعمله، ونشاطه، وإدارة حياته.

وهناك ارتباط عاطفي، وهو ما يعبر عنه بالأصدقاء، وهم الذين ينجذب إليهم الإنسان ويرتاح للعلاقة معهم، وقد تكون علاقته مع أصدقائه أكثر قربًا لنفسه من علاقته مع أسرته وأقربائه. وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «الصديق أقرب الأقارب»[1]، فالارتباط النفسي العاطفي يختلف عن الارتباط الأسري والمصلحي وقد يحصل تداخل بين هذه الدوائر، فيكون الأصدقاء من الأقرباء أو ممن يتداخل معهم مصلحياً في مجال عمله ونشاطه المعيشي.

وعلماء النفس والاجتماع يتحدثون أن الأصدقاء لهم دور إيجابي كبير في حياة الإنسان، وأن من الضروري أن يكون للإنسان أصدقاء ينشدّ إليهم نفسيًّا وعاطفيًّا،

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ج١ ص٣٦ حكمة ٧٢٥.

ويذكرون عدة فوائد:

الفائدة الأولى: في الإطار النفسي

فالأصدقاء وقاية من المشاعر السلبية، ودعم للمشاعر الإيجابية في النفس، والإنسان الذي يعيش الوحدة والعزلة تنمو لديه في الغالب مشاعر سلبية، وحالة كآبة وقلق وسأم، وما أشبه من العقد والتوجهات غير السويّة، بينما إذا كان عنده أصدقاء فهم يدعمون المشاعر الإيجابية في نفسه. ويذكر علماء النفس أن من أسباب ذلك إفصاح الإنسان عن ذاته، فالإنسان في داخل نفسه هموم ومشاكل وانطباعات، وإذا بقيت مكتومة في داخله تصبح عبئًا عليه، لذلك يحتاج إلى أن يتحدث عنها، ويفصح عن ذاته، وأن تكون هناك جماعة يعرفون مشاعره، ويعرضها عليهم، وقد لا تكون الأسرة والعائلة دائمًا مجالًا مناسبًا للإفصاح عن الذات، بل على العكس، فالكثير من الأولاد ذكوراً وإناثًا، لا يفصحون عمَّا في نفوسهم لأهاليهم، في حين أن الأفضل أن تكون العلاقة بين الولد وأسرته علاقة شفافة، ومنفتحة، بحيث يتحدث لوالديه عن كل شيء، إلا أن هذه الحالة المطلوبة لا تحصل غالباً، وقد يكون فارق السن بين الوالدين والأولاد سبباً لذلك.

ولهذا فإن مؤيدي الزواج المبكر يقولون إن من أهم فوائده ألا يكون هناك فارق سن كبير بين الإنسان وبين أبنائه؛ لأن فارق السن في بعض الأحيان يصبح حاجزًا وحاجبًا عن الانفتاح، وتكون هناك هيبة كبيرة، أو فروق واسعة في نمط التفكير بسبب سعة الفاصل الزمني، مما يوجد مانعاً من أن ينفتح الأبناء على الوالدين، وكلما كان الحاجز أكبر أصبح سببًا لمشاكل تربوية كثيرة عند الأبناء، فكثير منهم يواجهون في حياتهم مشاكل ويريدون حلًا ومعالجة لها، فلا يجدون مجالاً للانفتاح مع أهاليهم، لحياءٍ، أو خشية من ردود الفعل، يستحي الابن من أبيه، أو يخاف من ردود فعله إن أخبره بما حصل له، وكذلك الفتاة تخشى أن تشرح لأمها أو أهلها ما قد يحصل لها، وهذا من القضايا الخطيرة في مجال التربية والعلاقة مع الأولاد.

ولأن الإنسان من الناحية النفسية يحتاج إلى أن يفصح عن ذاته، وقد لا يجد مثل هذه الفرصة مع أهله، فتكون متاحة له مع أصدقائه، لذلك فإن أكثر أسرار الإنسان تجدها عند أصدقائه، يعرفون عنه كيف يفكر؟ وكيف يعيش؟ وكيف يفصح عن ذاته؟

الفائدة الثانية: تنمية المهارات

الإنسان عبر أصدقائه ينمي مهارات العلاقة مع الآخرين، والتعامل معهم، وبطبيعة الحال قد تحصل له مشاكل، فيتعلم من خلالها، تنمو عنده مهاراته الاجتماعية من خلال ذلك، وقد تنمو هواياته وميوله الفكرية والاجتماعية من خلال الأصدقاء، فكم من إنسان تذوق الشعر والأدب لمجالسته وصداقته مع أدباء، وكم من إنسان انخرط في نشاط استثماري اقتصادي بتأثير أجواء صداقاته، وهكذا سائر مجالات الخبرة والاهتمام.

الفائدة الثالثة: المساندة الاجتماعية

فالأصدقاء يساندون الإنسان اجتماعيًّا في أزماته ومشاكله واحتياجاته، ويدعمونه نفسيًّا ويقفون إلى جانبه عمليًّا، وهذا من فوائد محيط الأصدقاء حول الإنسان.

إن وجود الأصدقاء أمر مطلوب ومرغوب، وخاصة في مرحلة الشباب، فالشاب والشابة في حاجة إلى أن يكون لهم أصدقاء، إذ إن حالة العزلة والوحدة، حالة ضارة وغير سويّة. ولهذا وردت النصوص الدينية التي تشجع الإنسان على أن يكون له أصدقاء، فعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام «من لا صديق له لا ذخر له»[1]، وورد عنه عليه السلام: «أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم»[2]، وجاء في وصية لقمان لابنه: اتخذ ألف صديق وألف

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ج٢، ص٢١٢، حكمة ١١٠٦.
(٢) نهج البلاغة . ص٤٧٠، حكمة ١٢.

قليل، ولا تتخذ عدواً واحدًا والواحد كثير»[١].

بعض العوائل والأسر قد ينزعجون حينما يرون لولدهم أصدقاء، أو لابنتهم صديقات، وهذا خطأ، فوجود الأصدقاء مع الأبناء والبنات أمر إيجابي ومحبّذ.

□ اختيار ثلة الأقران

الأصدقاء يؤثرون على الإنسان وقد يتأثر بهم، أكثر مما يتأثر بعائلته، وخاصة في مرحلة الشباب، والبحوث الاجتماعية تشير إلى أن غالب توجهات الشباب تكون من وحي ثلة الأقران التي يكونون فيها، أو حسب تعبيرنا الشعبي (الشلة)، ورد عن النبي ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[٢].

يتأثر الإنسان بالأصدقاء من حوله في سلوكه وأفكاره وتوجهاته، وفي بعض الأحيان ينساق الإنسان ليرى نفسه وسط ثلة معينة، لم يفكر جيداً في اختيارها، وسبب ذلك وجود مجاميع تريد أن تجتذب أفرادًا وتستقطبهم، فيشتغلون على الشاب حتى يستقطبونه إلى ثلتهم.

إن على الإنسان أن يختار الثلة التي ينتمي إليها، وإذا كان في وسط ثلة رآها غير صالحة فعليه أن يقرر ترك هذه الثلة، فهذا هو الأفضل لمستقبله وحياته؛ لأن الإنسان إذا كان في ثلة سيئة وفاسدة، فمسار حياته سيكون فاسدًا، وهذا ما حذرت منه النصوص الدينية، ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «الوحدة خير من قرين السوء»[٣]، ويتحدث القرآن الكريم عن ندم بعض الناس في يوم القيامة الذين يكون مصيرهم أسودَ، بسبب قرناء السوء، يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ

(١) وسائل الشيعة ج١٢ ص١٧.
(٢) مستدرك الوسائل ج٨ ص٣٢٧.
(٣) بحار الأنوار ج٧١ ص١٩٩.

الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ [سورة الفرقان، الآيات: ٢٧-٢٩]. وفي آية أخرى يتمنى الإنسان لو أنه كان بعيدًا كل البعد عمَّن كان قريباً منهم من أصدقاء السوء، يقول تعالى: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾[سورة الزخرف: الآية٣٨]، فإذا تورط الإنسان في ثلة فاسدة يكون مصيره ومستقبله إلى الشقاء في الدنيا والآخرة، ونجد كيف أن بعض الشباب وبعض الفتيات يكون مصيرهم سيئاً بواسطة الثلة الفاسدة، كم من إنسان كان صالحاً وجيداً، ولكنّه ارتبط بمجموعة فاسدة، وشيئًا فشيئًا فقد صلاحه، وسار في خط الفساد. وفي بعض الأحيان يمنِّي الإنسان نفسه، بأنه لن يتأثر بهم، ولكنه ما يلبث أن يكون جزءًا منهم ومتأثراً بهم. فعلى الإنسان أن يبتعد عن الشلل الفاسدة.

وهناك ثلة حتى لو لم تكن فاسدة إلا أنها تضيّع أوقات الإنسان، كبعض جلساء الديوانيات، فهؤلاء ليسوا سيئين بل يقضون أوقاتهم في المرح والأكل والمزاح، وهذا وإن كان أفضل من الثلة الفاسدة، لكنه مضيعة للوقت والجهد، ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من لم تنتفع بدينه أو دنياه فلا خير لك في مجالسته»[1].

وهناك الثلة الصالحة التي يستفيد الإنسان من الانتماء إليها، وتُكسبه فوائد في دنياه أو دينه، وهذا هو المطلوب. ولا يعني ذلك ألّا يكون هناك مجال للترفيه، فالترفيه عن النفس أمر مطلوب، وما نقصده التوجه العام للثلة أو للمجموعة، أن يكون توجهاً صالحاً ومفيداً. وعلى الإنسان أن يفتش عن مثل هذه الثلة، وينتمي إليها، وخاصة بالنسبة إلى الشباب والشابات، يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾[سورة التوبة:الآية١١٩]. فكونك مع الصادقين والأشخاص الصالحين يُتيح لك فرصة الاستفادة منهم، ورد في الحديث عن رسول الله ﷺأنه

(١) وسائل الشيعة ج١٢ ص٤٩.

قال: «أسعد الناس من خالط كرام الناس»[١]، وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «خير إخوانك من سارع إلى الخير وجذبك إليه وأمرك بالبر وأعانك عليه»[٢].

وهنا نشير إلى أنه في بعض الأحيان تكون الثلة التي ينتمي إليها الإنسان، حتى وإن لم تكن فاسدة، لكن طريقة تعامل وبرنامج هذه الثلة يكون على حساب مصلحة الإنسان، كالسهر إلى وقت متأخر من الليل على حساب الدراسة والعمل والأسرة، فينبغي توخي الإستفادة الإيجابية وتجنب السلبي منها. وهذا لا يتحقق إلا بامتلاك الشاب والشابة لوعيٍ يؤهلهما لذلك.

ومن اللافت للانتباه أن بعض الشباب ينساق وراء برامج الثلة التي ينتمي إليها دون أن يحسب حساباً لدوره الأسري، فتعيش زوجته وأولاده فراغاً كبيراً في غيابه، ليكونوا فريسة للتلفزيون والإنترنت وللشعور بالفراغ والجوع العاطفي، وتشكو بعض الزوجات من انشغال زوجها إلى وقت متأخر من الليل بالجلوس مع أصدقائه دون أن يحسب حساباً لحق زوجته، والاهتمام بأبنائه، وهذا خطأٌ كبير، إن رسول الله صلى الله عليه وآله يؤكد أحقيّة الأسرة، بقوله: «وإن لأهلك عليك حقًا»[٣] وروي عنه صلى الله عليه وآله: «جلوس المرء عند عياله أحبّ إلى الله تعالى من اعتكاف في مسجدي هذا»[٤].

وعلى الزوجة أن تجتذب زوجها لها بحسن معاشرتها له، ليرى الزوج في جلوسه مع أسرته متعة لنفسه وراحة لقلبه مع أدائه للواجب الشرعي المسؤول عنه.

---

(١) بحار الأنوار ج٧١ ص١٨٥.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم ص٣٢٥ حكمة ٧٣.

(٣) سنن أبي داؤد ج١ ص٧٣٩ حديث٢٤٣٢.

(٤) الحسيني، ورام بن فراس المالكي الأشتر. تنبيه الخواطر ونزهة المناظر، طبعة طهران ١٣٠٩هـ، ج٢، ص ١٢٢.

□ الانفتاح على جماعات الشباب

أكثر الشباب في هذا العصر يرتبطون بمجاميع، وبعضها تصدر منها تصرفات خاطئة وطائشة، بحيث أصبحت عندنا عصابات يبثون برامج سلبية ضارة، لهم ولمجتمعهم، تضرهم في دينهم ودنياهم، هذه الجماعات المنحرفة تشكّل مصدر إزعاج وقلق على أمن المجتمع، فانتشار المخدرات وشياع حالات العنف والسرقة، ووجود تصرفات طائشة، وانتشار بعض الهوايات الضارة، يكشف عن وجود من يغذيها، ومن يقف خلفها، فهي ليست أعمالاً فردية.

حدثني بعض الشباب ممن كانوا مبتلين بالمخدرات وإدمانها وعافاهم الله منها، كيف أن هذه المجاميع تتحرك وبشكل كبير في أوساط المجتمع، وأن لها برامج وأساليب للاستقطاب والاستغلال.

وهناك قسم كبير من الشباب يعيشون بلا انتماء أو في انتماءات عفوية طبيعية، من هنا فإنه يتوجب علينا أن نتحمل مسئوليتنا تجاه هذا الواقع.

أولاً: الدور العائلي

فعلى العائلة أن تنظر في علاقات أبنائها وبناتها، وأن تضع هذا الجانب في أهم أولوياتها، ويبادر الأب والأم لتوجيه الأولاد وإرشادهم والحديث معهم لفهمهم. فإن طريق الانحراف يبدأ بسبب انشغال العائلة عن أولادها، وعدم الاهتمام بتفاصيل حياتهم.

ثانياً: دور المجتمع

كما أن على المجتمع أن يهتم بالمجاميع الشبابية، وأن تكون لدينا مؤسسات مهتمة باستقطاب الشباب. وأن نشجع تكوين الجماعات الشبابية في الاتجاه الإيجابي، لما نلمسه من وجود عراقيل وعوائق في مجال إنشاء تجمعات إيجابية، فالحكومات لا تفتح مجالًا لتكوين مؤسسات المجتمع المدني.

يجب أن تتاح للشباب فرصة إنشاء مؤسسات إيجابية، لكي لا يكونوا فريسة وطعماً للتوجهات السيئة الفاسدة.

وأعتقد أننا نعاني من هذه المشكلة في منطقتنا؛ لأن القنوات الإيجابية ليست منسابة ومفتوحة أمام الشباب، أما الذين يتجهون الاتجاه الآخر فهم لا ينتظرون رخصة ولا إذنًا، فيسيرون في اتجاهاتهم، لكن الاتجاهات الإيجابية تجد نفسها معنية بملاحظة الأنظمة والقوانين، ولذلك تُعاق حركتها.

على المجتمع أن يشجع الشباب على تكوين مثل هذه التجمعات، فالحالة الدينية في مجتمعنا ـ والحمد لله ـ أفضل من السابق، ففي الماضي كان الشباب المتدينون والصالحون يجدون عراقيل كثيرة أمام نشاطهم، وحين تكون الأبواب مؤصدة أمامهم فقد يتّجهون باتجاه الفساد، الذي تكون أبوابه مفتوحة في الغالب.

فلنشجع الشباب أن ينشؤوا مختلف اللجان والهيئات والتجمعات الإيجابية، التي يخدمون بها دينهم ومجتمعهم، وينمّون من خلالها مواهبهم وطاقاتهم، وكلما فتحنا المجال للتوجهات الإيجابية، قلّصنا مساحة التوجهات السلبية، وهذا من معاني قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾، علينا أن ندعم الشباب في توجهاتهم الإيجابية في مختلف المجالات، وننفق على مشاريعهم من الحقوق الشرعية، والأوقاف والتبرعات، فكلما دعمناهم وشجعناهم؛ استقطبنا الشباب بالاتجاه الصالح، وهذا هو المطلوب من المجتمع.

ومن النماذج المشرقة في تاريخنا المعاصر المرجع الراحل السيد محمد الشيرازي ﷺ الذي كان من ميزاته أنه يشجع الشباب على عمل اللجان والهيئات. وحين يزوره شاب يسأله: ماذا تدرس؟ ماذا تعمل؟ هل أنت عضو في لجنة؟ ثم يوجهه: لماذا لا تعمل لجنة أو موكبًا؟ لماذا لا تؤسس هيئة لطباعة الكتب، أو لنشر المعارف، أو للتبليغ والإرشاد، أو لحماية البيئة؟ فلا يخرج الشاب من عنده إلا وهو متحفّز لنشاطٍ إيجابي يخدم به نفسه ومجتمعه.

مهم جداً أن نشـجع الشباب على أن تكون لهم تجمعات إيجابية؛ لأن الشباب لديهـم طاقـة فائضة، وينبغـي أن نفتح لهم القنـوات التي من خلالهـا يُصرّفون هذه الطاقة.

بالأمـس زرت موكبـاً حسـينياً في مدينة سـيهات، ورأيت نشـاطاً ضخماً جداً، حيث كان الشـباب يعملون لمدة شـهرين أو ثلاثة أشـهر، في مختلف المجالات، فـي النحت والخـط والتصوير والمسـرح، وفي المجالات المختلفـة، فلو لم يكن لهم هذا الأفق الذي يصرفون فيه طاقاتهم في الاتجاه الإيجابي، فإما أن تتجمد هذه الطاقات التي عندهم، أو لا سمح الله تذهب في الاتجاه السلبي.

فلماذا لا نشجع الشباب ذكورًا وإناثًا، ونفتح أمامهم الآفاق.

وقـد دعيت من قِبل بعض الأخـوات لافتتاح معرض للفن التشـكيلي، فرأيت نشاطاً جيداً، فتيات يرسمن ويكتبن ولديهن خيال خصب، ومستوى فني جيد، فعلينا أن نشجعهن وندفعهن بهذا الاتجاه، حتى يفجّرن طاقاتهن في الاتجاه الإيجابي.

نظرة الاحترام والإصلاح للشباب

كما أن علينا أن نرصد الجماعات والشـلل التي قد تكون لنا ملاحظات عليها، إمـا سـيئة أو أنها في طريقها إلى أن تكون سـيئة، علينا أن لا ننظـر إليها نظرة انتقام، فهـذا خطأ كبير، بل علينا أن ننظر لهم نظرة عطف وشـفقة، وفـي هذا المجال ينقل عـن معروف الكرخـي أنه كان على الشـاطئ وقد كان زاهداً عابـداً فرأى مجموعة من الشـباب على قـارب صغير يغنـون ويرقصون، فرفـع يديه بالدعاء إلى السـماء قائلاً: «اللهم اجعل أنسـهم في الآخرة أعظم من أنسـهم في الدنيا»، قالوا له: كيف تدعو لهم بهذا الدعاء؟ قال: وما يزعجكم من دعائي؟ فهو يسـتبطن أنهم يصبحون صالحين، ويؤنسهم الله تعالى برحمته.

علينا ألا ننظر إلى هذه الجماعات من الشـباب منذ البداية نظرة ازدراء وانتقام،

قبل أن نؤدي واجبنا نحوهم، فنحن مسؤولون عنهم، إذ حينما نرى شباباً فاسدين منحرفين، علينا أن نراجع أنفسنا، فنحن قد قصرنا تجاههم وتركناهم لينحرفوا ولم نقم بواجبنا تجاههم، ولذا انساقوا إلى هذا الطريق، ولو أننا قمنا بواجبنا وأدينا ما علينا لما انحرف هؤلاء الأبناء والشباب، فكل واحد منا عليه أن يسأل نفسه: هل قمت بالواجب تجاه هذه المجاميع الشبابية؟

إن مجتمعنا مجتمع شاب، فأكثر من ٦٠٪ من أبناء المجتمع من الشباب، وما عليك سوى أن تقف أمام المدارس الثانوية عند انتهاء وقت الدراسة، لكي ترى هذه الجموع الغفيرة التي تخرج من مدارسها، فإلى أين يذهب هؤلاء؟ ومن يفكر فيهم ويحتضنهم؟ ومن يرعاهم ويوجههم؟

نحن نلومهم فقط وننظر إليهم نظرة شزراء، وهذا لا يحل المشكلة، علينا أن نتحمل الواجب تجاههم، وأن نفكر في الانفتاح عليهم، فبعض هذه المجاميع لديهم شهامة، يريدون أن يخدموا ويثبتوا وجودهم، إلّا أنه لم يلتفت إليهم أحد.

وهنا أورد قصة جاءت في سيرة الإمام جعفر الصادق عليه السلام حول أحد أصحابه وهو المفضل بن عمر وكان في الكوفة، وقد كتب عدة من أهل الكوفة، ومنهم زرارة، وعبدالله بن بكير، ومحمد بن مسلم، وأبو بصير، وحجر بن زائدة، رسالة إلى الإمام الصادق عليه السلام يذكرون فيها أن المفضل بن عمر يجالس الشطار وأصحاب الحمام، وقوماً يشربون الشراب، فينبغي أن تكتب إليه وتأمره ألا يجالسهم. فكتب إلى المفضل كتاباً وختمه ودفعه إليهم، وأمرهم أن يدفعوا الكتاب من أيديهم إلى يد المفضل، فجاءوا بالكتاب إلى المفضل ففكه وقرأه، فإذا بالإمام يقول: «بسم الله الرحمن الرحيم، اشتر كذا وكذا، واشتر كذا» ولم يذكر فيه قليلاً ولا كثيراً مما قالوا فيه، فلما قرأ الكتاب دفعه إلى زرارة، حتى دار الكتاب على الكل، فقال المفضل: ما تقولون؟ قالوا: هذا مال عظيم، حتى ننظر ونجمع ونحمل إليك ثم لم ندرك ألا نزال بعد نظر ذلك، وأرادوا الانصراف. فقال المفضل: تغدوا عندي،

فأجلسهم لغدائه، ووجه المفضل إلى أصحابه من الشباب الذين سعوا بهم من الشطّار وأصحاب الحمام، فجاؤوا وقرأ عليهم كتاب أبي عبدالله عليه السلام فرجعوا من عنده وجلس هؤلاء ليتغدوا، فرجع الفتيان، وحمل كل واحد منهم على قدر قوته ألفا وألفين وأقل وأكثر، فحضروا وأحضروا ألفي دينار وعشرة آلاف درهم قبل أن يفرغ هؤلاء من الغداء، فقال لهم المفضل: أتأمروني أن أطرد هؤلاء من عندي، تظنون أن الله تعالى محتاج إلى صلاتكم وصومكم»[1].

فالمسألة ليست مسألة صلاة وصوم فقط، إن المجتمع يحتاج إلى أناس لديهم روحية عمل، وهمة وإقدام وجرأة وشجاعة، ومجاميع الشباب رغم تصرفاتهم السلبية إلا أن أكثرهم لديه همة وأريحية وشهامة، ويمكن أن نستقطبهم ونصلحهم ونستفيد منهم لمصلحة الدين والمجتمع، علينا أن نتجه إليهم، نحن نادرًا ما نستقبل من يأتي إلينا في مساجدنا وحسينياتنا ومجالسنا، ومناسبة عاشوراء فرصة سانحة للانفتاح على الشباب؛ فعلينا أن ندفعهم للمشاركة في المجالس والمواكب، لكي يستثمروا طاقتهم في الطريق السليم.

ومن علمائنا الذين كان لهم دور في استقطاب الشباب السيد عبد الحسين شرف الدين، فحينما بدأ عمله في لبنان، اهتمّ بالشباب الرياضيين في الأندية والمقاهي، فقيل له: هذا لا يليق بمقامك! فقال كلمته المشهورة: «لا ينتشر الهدى إلا من حيث انتشر الضلال».

وينقل عن نبي الله عيسى بن مريم «على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام» أنه كان مع حواريه باتجاه فلسطين وكانت هناك قرية ليست من الصالحين، بينما منطقة الناصرة في فلسطين هي التي كانت المجتمع المتدين الصالح من أتباعه، وإذا بالنبي عيسى يسير باتجاه طريق القرية الفاسدة، قالوا له: يا رسول الله، هنا

(١) محمد بن عمر بن عبدالعزيز الكشي. رجال الكشي (كربلاء: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص ٢٧٦.

أتباعك، هنا الصالحون، قال: أولئك خلصنا منهم، هؤلاء أحوج إلينا من أولئك.

ومع الأسف، فالشباب المتدين يعاني كثيراً من الانغلاق، وعدم الانفتاح، واستقطاب عناصر جديدة، فتجد مساجدنا ومجالس العلماء في الغالب ترتادها نفس الوجوه، وهذا يدل على ضعف القدرة على الاستقطاب والجذب، بل في بعض الأحيان إذا كان أحدهم بعيداً عن الأجواء الدينية وجاء للمسجد أو الحسينية فإن العيون تلتهمه من الاستغراب،

وخلاصة الحديث، أن وجود الأصدقاء للإنسان مسألة مهمة، وينبغي أن نهتم بها على مستوى أبنائنا، وعلى المستوى الاجتماعي العام، والقرآن الكريم يخصص سورة في القرآن الكريم باسم سورة الزمر، والزمر تعني المجموعات ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾[سورة الزمر: الآية٧١]، ثم يتحدث عن المؤمنين ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾ أي مجاميع وجماعات ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾، وهذا دليل على أن الإنسان كما في الحياة الدنيا عنده ثلة وأقران، فإنهم قرناؤه في الآخرة أيضاً، وبعد الحساب، تواجه المجاميع مصيرها المشترك.

وسيأتي الحسين يوم القيامة وحوله أصحابه الذين نالوا شرف نصرته يوم كربلاء، إنهم كانوا خير أهل الأرض في عصرهم، ووقفوا مع أبي عبدالله الحسين تلك الوقفة البطولية الصادقة، لم يرعبهم القتل، ولم يكترثوا لضخامة حشود الجيش الأموي، بل تسابقوا إلى الشهادة بشغف وشوق، عن قناعة منهم بمآل السعادة الذي ينتظرهم.

المبتعثون للدراسة .. طموح التنمية والتقدم

- ☐ الهجرة للعلم ظاهرة إنسانية عالمية
- ☐ بالكفاءات تبنى الأوطان
- ☐ إنجاح برنامج الابتعاث

> ورد فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم»[1].

□ الهجرة للعلم ظاهرة إنسانية عالمية

الإنسان حين يدرك أهمية العلم وقيمته فإنه يفتش عنه في كل مكان، على المستوى الفردي، وعلى مستوى الأمم والمجتمعات، وقد شاءت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يكون العلم مبثوثًا في مختلف المجتمعات، والشرائح الإنسانية؛ لأن العلم منتج للعقل والإدراك، وقد منح الله تعالى الإنسان هذه القدرة في مختلف أعراقه وقومياته ومجتمعاته وأوطانه، لذا قد يكون هناك علم في بلد لا يتوفر في بلد آخر، أو يكون في مستوى أعمق وأرفع.

كذلك فإن دورة الحضارة في التاريخ البشري تتنقل من مكان إلى آخر، تكون الحضارة عند أمة من الأمم في مستوى متقدم، لكن أمة أخرى قد تتفوق عليها فيما بعد، وهذه طبيعة الحياة وسنتها، يقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٤٠].

هناك حضارات كانت سائدة لكنها بادت أو تراجعت بعد تقدمها، وبرزت حضارات جديدة في تاريخ البشر، من هنا فإن أبناء البشر يستفيدون من بعضهم بعضًا، حينما يتجهون إلى قيمة العلم والمعرفة، لذا نجد أن رسول الله ﷺ يوجّه

(١) كنز العمال ج١٠، ص١٣٨، حديث٢٨٦٩٧.

المسلمين في ذلك الوقت قائلاً: «اطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم».

الصين وهي المكان البعيد جدًّا عن الجزيرة العربية، يأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يطلبوا العلم ولو بالهجرة إليه، وواضح أن المقصود ليس العلم الديني؛ لأن العلم الديني مصدره ومنبعه في المدينة عند رسول الله ﷺ، ولكنه العلم بمعناه الشامل الواسع، فإن «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وهذا هو ما يفتي به علماء المسلمين، أن كل علم يحتاجه المسلمون في حياتهم فطلبه أيضًا واجب على الأمة، كما أن طلب العلوم الشرعية والسعي للاجتهاد فيها، واجب على المجتمع والأمة، كذلك العلوم الأخرى التي تحتاج إليها الأمة، وتحتاج إليها المجتمعات الإسلامية، بنفس الدرجة أيضًا هي واجب كفائي، إذا قام به البعض سقط عن الكل، وإلا فالجميع مطالبون بذلك كما يقرر الفقهاء.

بعثات الغربيين إلى الشرق

وقد كان أبناء الغربيين والمجتمعات الأخرى يأتون لطلب العلم في بلاد المسلمين، يوم كان لواء الحضارة بيد المسلمين، كانوا يأتون للدراسة في قرطبة في جامعة القيروان، وفي بغداد ودمشق والكوفة والبصرة، من مختلف أنحاء العالم يدرسون في بلاد المسلمين، كما هو مسجّل في كتب التاريخ عن فضل الحضارة العربية الإسلامية، على تقدم العلوم في الغرب، حيث أشار باحثون ومستشرقون غربيون إلى أنهم كانوا يفخرون بالدراسة في بلاد العرب والمسلمين، كما نفخر الآن بالدراسة في بلادهم، فهذا تخرج في جامعة هارفارد في أمريكا، وذلك في جامعة أكسفورد في بريطانيا.

كان التحاق أبناء علية القوم في أوروبا بالمعاهد العربية الإسلامية أمراً مألوفاً في تلك العصور، وممن تلقوا العلوم في هذه المعاهد الملك الفونسو السادس، وفريد ريك الثاني الذي أصبح إمبراطوراً لروما سنة ١٢١٥م.

وجاء في ترجمة سلفستر الثاني (٩٤٠ - ١٠٠٣م) البابا الذي تم انتخابه عام ٩٩٩م، حيث اعتبر أول بابا فرنسي في تاريخ الكنيسة، واشتهر بذكاء غير عادي في حياته، وكان من أبرز فلاسفة وعلماء الرياضيات في عصره. هذا الرجل رحل إلى إسبانيا وهو في السابعة والعشرين من عمره ودرس في المعاهد العربية في قرطبة وقطلونيا، وشغف بالعلوم العربية الإسلامية المزدهرة آنذاك، ويعود إليه الفضل في نقل الأرقام العربية إلى أوروبا التي كانت في ذلك الوقت من بين أهم الإنجازات والمقدمات الرئيسة للعلم في القرون الوسطى الأوربية.

كما تنسب إليه بعض المصادر أيضاً إدخال الإسطرلاب إلى أوروبا[١].

جاء في كتاب «الحضارة الأوروبية سياسية واجتماعية وثقافية» لمؤلفيه أساتذة الفلسفة جيمس وستفال توسون وفرانكلين شارلز بام وفان لو ستراند: «في خلال قرنين نقل إلى العربية كل ما خلفه الإغريق من التراث العلمي على التقريب. وأصبحت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة مراكز لامعة لدراسة العلم وتلقينه... وأخذت المعرفة بهذه الثقافة الإغريقية العربية تتسرب إلى أوروبا الغربية في أواخر القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر.

ولم يكن تسربها من أثر الغزوات الصليبية كما يسبق إلى الخاطر، ولكنه جاء عن طريق صقلية إلى إيطاليا، ومن إسبانيا المحمدية إلى إسبانيا المسيحية ثم إلى فرنسا. وتسابق الرجال من ذوي العقول اليقظة إلى بلارمة وطليطلة لتعلم اللغة العربية ودراسة العلوم العربية، والعجيب أن معظم هؤلاء الرجال كانوا من الإنجليز»[٢].

حركة الابتعاث العلمي

ولانتشار مراكز العلم والمعرفة في العالم فإن هناك هجرة متبادلة لطلاب العلم

(١) الموسوعة العربية العالمية، ج ١٣، ص ٥٩.

(٢) عباس محمود العقاد. أثر العرب في الحضارة الأوروبية، دار نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٤١.

بين الدول المتقدمة، وحسب إحصائية اليونيسكو سنة ٢٠٠٥م يوجد في العالم ما يقرب من ثلاثة ملايين طالب يدرسون خارج أوطانهم في مختلف بلدان العالم، حتى البلدان المتقدمة في بعض المجالات، أبناؤها يذهبون للدراسة في بلدان أخرى توازيها في التقدم، أو قد تقل عنها بشكل عام، لكنها تمتاز بتخصص معين، أو ميزات مشجعة.

فالولايات المتحدة الأمريكية، وهي أقوى دولة في المجال العلمي والتكنولوجي، تستقطب ثلثي الطلاب الأجانب على مستوى العالم، لكن أمريكا نفسها لها ٤٦ألف طالب يدرسون خارج أمريكا.

واليابان، هذه الدولة المتقدمة التي تضم ٥٠٠٠ جامعة و٦٠٠٠ كلية، مع ذلك فإن ٦٥ ألف ياباني يدرسون خارج اليابان.

الصين، هذا العملاق الاقتصادي الكبير الذي يتوقع له مستقبل ضخم على مستوى العالم، فإن أكبر عدد طلاب يدرسون في الخارج هم من الصينيين، حيث ذكر تقرير لليونسكو عن الحراك الطلابي نشر عام ٢٠٠٩م أفاد أن الصين تقدمت الدول من حيث الابتعاث بـ ٤٢١ ألف طالب وطالبة، يليها الهند بـ ١٥٣٣٠٠ طالب وطالبة، ثم كوريا الجنوبية بـ ١٠٥٣٠٠ طالب وطالبة[١].

فوائد أخرى للابتعاث

إن مختلف الأمم والمجتمعات التي تسعى لكسب المعرفة والعلم، تبعث أبناءها إلى المناطق التي تتوافر فيها المعارف والكفاءات، كما أن الهجرة في طلب العلم فائدتها لا تنحصر في تحصيل العلم، وإنما هي إضافة إلى ذلك وسيلة للتبادل الثقافي والحضاري، ومدّ جسور التواصل بين الحضارات والمجتمعات.

فالطلاب الذين يدرسون خارج بلادهم، ينقلون شيئًا من ثقافة بلادهم إلى

(١) صحيفة عكاظ السعودية، الصادرة بتاريخ ٣٠ مايو ٢٠١٠م.

تلـك المجتمعـات، ويأخـذون مـن ثقافة البلـدان التي يدرسـون فيها إلـى بلدانهم ومجتمعاتهـم، ممـا يشـكل جسـرًا للتواصـل الثقافـي، والتبـادل الحضـاري بيـن المجتمعات.

وفيهـا ميزة إضافية لصالح الطالب نفسـه، حيث يتحدث الباحثون والخبراء أن من يدرس خارج وطنه ومجتمعه، يتوفر على ميزات معينة على المستوى الشخصي والعلمي، تتمثل في صقل شـخصيته ونفسـيته، إذ إنه حينما يعيش في مجتمع آخر، فإنـه يعتمـد علـى نفسـه وذاته، ويواجـه نمطاً جديـداً في الحيـاة، وأجـواءً لم تكن مألوفة بالنسـبة له، كما أنه يكون أكثر تفرغًا وتوجهًا؛ لأن الإنسـان حينما يدرس في منطقته ومجتمعه تكثر انشغالاته الاجتماعية والعائلية، فتأخذ شيئًا من وقته وجهده واهتماماتـه، بينمـا في الخـارج يكون متفرغًا أكثـر من الناحية النفسـية، ومن ناحية الوقت، لدراسته ولاهتمامه الدراسي، وهذا شيء مجرّب معروف.

إن الطالب إذا كان جادًّا في دراسته، فإنه يستفيد من وجوده في الخارج من كل وقته وجهده، بينما إذا كان يدرس في منطقته فإن الانشغالات الاجتماعية المختلفة تأخـذ من وقته وجهده، وخاصـة في مجتمعاتنا التي تكثر فيهـا الأعراف والتقاليد، وتكثـر فيهـا المناسـبات، فـإن الطالب يصرف بعـض وقته وجهده في هـذه الأمور الاجتماعيـة، وإذا أردنا أن نقرب الصورة أكثر فإن أبناءنا الذين يدرسـون في داخل الوطـن، لكن في مناطق أخرى، كونهم في منطقة بعيدة عن مجتمعهم يفرّغهم أكثر للدراسـة كمـا هو المفـروض، أما إذا كانت دراسـة الطالب في وسـط مجتمعه فإن عليه أن يتواصل في المناسـبات القائمة، كالزواج والعزاء مثلاً خاصة إذا كانت من الأقرباء.

المبالغة في المناسبات الاجتماعية

فـي بعض المجتمعات مآتم العزاء يصـرف عليها وقت محدود، مثلًا في إيران والعـراق ولبنان وسـورية، عادةً ما تكون مجالس العزاء في المسـاء لمدة سـاعتين

تقريباً، أما في مجتمعنا فهي تستغرق عشر ساعات على الأقل، في الصباح والعصر والليل، حيث نواجه صعوبة في ترشيد بعض العادات والتقاليد، مثل أن تصبح مجالس العزاء عصرًا وليلًا بدل الصباح والعصر، وهي ليست مهمة صعبة، ولا تحتاج سنين حتى نقتنع بها، ولا تحتاج بحوثاً واستفتاءات حتى نطبقها، إنها نوع من العادة أو العرف، سابقًا لم يكن لأكثر الناس التزامات وظيفية، أما الآن فالناس أغلبهم موظفون ولهم التزامات، حضور مجالس العزاء في الصباح يكون على حساب التزاماتهم، خاصة أهل العزاء والقريبون منهم.

وكذلك الحال هناك شيء من المبالغة في المناسبات الدينية، وأجد هنا فرصة لكي أتحدث عن هذه النقطة، مع الأسف الشديد في مجتمعنا أيام المناسبات الدينية يحدث فيها الكثير من التسيب من قبل الطلاب، فلا يذهبون إلى مدارسهم، هناك بعض الناس في مجتمعنا يشجعون هذه الحالة، على اعتبار أنه نوع من إحياء الشعائر وتأكيد الهوية الخاصة للمجتمع، ومع الاحترام والتقدير لوجهة النظر هذه، إلا أنني أخالفهم بأن التساهل في الأمر إلى هذا المستوى، ليس في مصلحة أبنائنا وطلابنا، حتى في المجتمعات الشيعية الأخرى كإيران ولبنان والعراق أيام التعطيل عندهم للمناسبات الدينية محدودة، وليس كل مناسبة وعلى اختلاف الروايات فيها، ثم إن هؤلاء الطلاب إذا لم يذهبوا إلى المدرسة هل سيذهبون إلى مجالس إحياء المناسبات؟ كلا، إنهم في الغالب يبقون في البيوت أو الشوارع، فلماذا نضيّع هذه الأوقات على أبنائنا؟

أئمتنا عليهم السلام يُسرُّون أكثر حينما يجتهد أبناؤنا في دراستهم، ويتفوقون فيها، ومع الأسف الشديد فإن بعض المعلمين، يشجعون هذه الحالة من التسيب، حتى يرتاحوا من التدريس، وهذا خطأ كبير، وخلاف تحمل المسؤولية. وقد أشرنا لهذه القضية استطراداً ضمن سياق مزاحمة الأعراف والالتزامات الاجتماعية للتفرغ العلمي الدراسي، وأن الطالب المغترب غير معني بهذه الالتزامات، مما يجعله

أكثر تفرغاً لدراسته، وذلك من ميزات الاغتراب والهجرة لطلب العلم.

□ بالكفاءات تبنى الأوطان

كيف يُبنى أي وطن من الأوطان، وخاصة في هذا العصر؟

المال والثروة وحدها لا تبني الوطن، الإمكانات الطبيعية المتوفرة لا تبني الوطن، التنمية والبناء يحتاج إلى الكفاءة، خاصة وأن مسيرة التطور العلمي والتكنولوجي والصناعي في العالم تسير بسرعة مذهلة، وتحتاج إلى متابعة وملاحقة، أي أمة وأي شعب يتأخر عن مسيرة العلم والتطور سيبقى غارقًا في تخلفه وفقره.

بلادنا ـ والحمد لله ـ فيها ثروات، وفيها عنصر بشري، وإمكانات طبيعية، وما تحتاج إليه بلداننا هي الكفاءة في مختلف المجالات، في الطب، والهندسة والإدارة والتقنية والعلوم المختلفة.

على المستوى الطبي مثلاً تشير إحصائية إلى أن نسبة السعودة في المجال الطبي في السعودية لا تتجاوز ١٦٪ وهي نسبة منخفضة جدًّا، في الماضي كان جذب الكفاءات أمرًا ميسورًا، أما الآن فقد أصبح صعباً، في الماضي كان يذهب شخص أو بعثة من قبل وزارة الصحة أو المستشفيات الخاصة إلى الخارج لجذب عدد من الأطباء، والكفاءات الطبية، وبالفعل يحصلون على ما يريدون من الكفاءات الممتازة، ويأتون بها، أما حالياً ليس من السهولة الحصول على كفاءات من الخارج؛ لأن الكفاءات على مستوى العالم أصبحت مطلوبة، كما أن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بلادنا لم تعد مغرية، ولأن البلدان الأخرى تنافسنا في تقديم الامتيازات والإغراءات لهذه الكفاءات، فلماذا يأتون إلينا؟

إننا نعيش فقرًا وحاجة ملحّة للكفاءات والقدرات والطاقات، وإذا لم نسرع ونحث الخطى لردم هذه الهوة، فإن وضعنا سيصبح أصعب وأسوأ يومًا بعد آخر،

وسنة بعد أخرى، حتى لو بنينا مستشفىً ضخماً واشترينا أفضل المعدات والأجهزة الطبيـة، لكن العلاج لا يتوفر ولا يتحقق بالمبنى الضخم وبالمعدات الجيدة، وإنما يحتـاج إلـى الكفاءة والخبرة والمعرفة، والأجهزة المتطورة تحتاج إلى من يحسـن استعمالها وصيانتها، وواضح جدًّا كيف أن بلادنا قد أصبحت ميدانًا لكسب الخبرة من قبل أبناء الشـعوب والمجتمعات الأخـرى، يأتون من مختلف البلدان بلا خبرة ولا تجربة، ويعملون في مختلف المجالات الفنية والعملية، فيكسـبون الخبرة من عملهـم، ونحـن ندفـع الثمن؛ لأن هذا العامـل الذي يأتي للعمل فـي أي مجال من المجـالات، وهـو لا خبرة ولا تجربة له، حتى يتوفر علـى الخبرة والتجربة، كم من الأخطاء والخسائر ندفعها نحن؟

مثـلًا فـي المجال الميكانيكـي، بعض من يأتي لتصليح السـيارات وليسـت له خبـرة وتجربة، أو تحصل فقط على الشـهادة النظريـة، فيتعلم الجانب العملي على حسـابنا ونتحمل أخطـاءه، وبعد مدة من الزمن حين يكسـب الخبرة والتجربة، فإن بلدانـاً أخرى تنافسـنا عليه. وقرأت تقريرًا أنه في المجـال الطبي، بعض الأطباء في مجـال تخرجهـم من بلدان أخرى، يأتون إلى بلادنا بقصد أن يحصلوا على شـهادة خبرة، وممارسـة العمـل، ثم يذهب ليسـتفيد منها في دول متقدمـة، هكذا أصبحنا مسـرحًا للتجـارب، ولتحصيل الخبـرات، لماذا لا نبنـي طاقتنا وكفاءتنـا؟ لماذا لا نكسـب نحن الخبـرة والتجربـة؟ المجتمعـات الأخرى التـي كانت تعيـش تخلفًا سـلكت هذا الطريق، فاليابان استطاعت أن تبني نهضتها، جلبت القدرات، وبعثت أبناءها لكسب الخبرة، وأسرار التكنولوجيا من الدول الأخرى.

ومـن التجارب المعاصـرة الناجحة، تجربة كوريا الجنوبيـة، وهي بلد فقير في مـوارده الماليـة والطبيعية، وكان واحداً مـن أفقر ثلاث دول في آسـيا إلى منتصف القـرن الماضي، لكـن كوريا الآن أصبحت ثالث أقوى اقتصاد في آسـيا بعد اليابان والصيـن، صادراتها الصناعية تقدر بـ (بليون دولار) يومياً من السـيارات والآلات

حسب إحصائية سنة ٢٠٠٥م، الذين كتبوا عن تجربة كوريا الجنوبية قالوا إن سرّ نهضتها وتقدمها يعود لعوامل مختلفة، لكن بالدرجة الأساس استفادوا من بعث أبنائهم للخارج، وهؤلاء الذين ذهبوا للخارج وعادوا، نقلوا المعرفة والعلم والتكنولوجيا إلى بلادهم، وأصبحت كوريا في هذا المستوى، من هنا لا بدّ أن نهتم أكثر ببناء الكفاءات، وإلا فإن بلادنا ستبقى في هذا الوضع المتخلف، وسنة بعد أخرى سنشعر بالتخلف أكثر.

ومن أفضل طرق بناء الكفاءات الاستفادة من أجواء التقدم العلمي والتكنولوجي في المجتمعات الأخرى، ولا يكفي أن تكون عندنا جامعات في بلداننا؛ لأن مستوى الجامعات في بلداننا لا يزال متأخرًا عن مستوى الجامعات في العالم المتقدم، كما أن المسألة ليست مستوى الجامعات فقط، وإنما البيئة بشكل عام، إذا عاش الطالب في بيئة متقدمة فإنه يكسب من أجوائها بشكل أفضل، مما يصقل كفاءته، ويمنحه الخبرة والتجربة، إننا بحاجة إلى أكبر عدد من الجامعات في بلادنا، وأن يتطور مستوى هذه الجامعات، في الوقت ذاته لا غنى لنا عن الاستفادة من أجواء التقدم والرقي في الجامعات الأجنبية بابتعاث أبنائنا إليها.

□ إنجاح برنامج الابتعاث

المستوى الذي عليه الابتعاث من بلادنا إلى الخارج، يعتبر منخفضاً وضئيلاً قياسًا بالدول الأخرى، هناك مقياس عالمي يقيسون به عدد المبتعثين الذين يدرسون في الخارج، إلى مجموع طلاب التعليم العالي، هونغ كونغ مثلًا، نسبة المبتعثين من طلابها٢٢٪ قياساً إلى عدد طلاب الدراسات العليا، المملكة المغربية نسبة المبتعثين فيها ١٤٪.

ونسبة المبتعثين في البحرين وقطر والكويت ١٣٪ حسب إحصائيات سنة ٢٠٠٥م.

أما بالنسبة للمملكة العربية السعودية فإن نسبة المبتعثين إلى الخارج ٦ , ١٪، ومع البرنامج الجديد للابتعاث تصل إلى ٣٪، وهي نسبة منخفضة جدًّا، البلد في حاجة إلى عدد أكبر من المبتعثين، وليس عندنا عجز مالي ـ والحمد لله ـ بلدنا فيها موارد مالية وثروة كبيرة، وأفضل استثمار للثروة الموجودة في البلد هي في بناء الإنسان وكسب العلم والمعرفة، وقد ذكر أحد الباحثين أن برنامج الابتعاث في المملكة قائم على أساس كل سنة ٥٠٠٠ طالب، وهذه النسبة لا تكفي للتنمية في هذا البلد يجب أن تضاعف عشر مرات على الأقل، يعني أننا نحتاج في كل سنة لـ ٥٠٠٠٠ طالب يبتعث وليس ٥٠٠٠ طالب، إذا بعثنا ٥٠٠٠٠ طالب يدرسون في الخارج، تصل النسبة إلى ٢٠٪، أي نسبة المبتعثين إلى طلاب مرحلة التعليم العالي، ومع الوضع التنموي الذي نعيشه وحاجتنا إلى إسراع الخطى، فنحن بحاجة إلى توسعة هذا البرنامج، وزيادة رقعة المبتعثين.

(إن ابتعاث ١٠٠ ألف طالب خلال عشر سنوات سيعطينا ١٠ آلاف خريج سنوياً، وهو رقم متواضع قياساً بتجارب أخرى، ولعل قراءة تجربة كوريا الجنوبية تكشف لنا أهمية الأرقام، إذ استطاعت كوريا أن تحافظ على وجود ١٠٠ ألف طالب سنوياً في الجامعات الأمريكية وعلى مدى عشر سنوات، وحصلت في نهاية المشروع على مليون خريج من أهم الجامعات الأمريكية)[1].

والمجتمع أيضًا يجب أن يدرك قيمة الاستثمار في العلم، وأهمية الابتعاث إلى الخارج، وأن يكون له دور، أي رب عائلة يجب أن يعرف أن مصلحته ومصلحة ذريته، ليس في بناء العمارات والعقارات، حتى إذا مات يخلف لأبنائه وأسرته أراضي وعمارات، وأسهم في البنوك والشركات، بل الأهم لأبنائه ولمجتمعه هو الاستثمار في العلم، إن بعض العوائل بالرغم مما تمتلكه من الخير والثروة لا تبادر إلى ابتعاث أبنائها.

(١) جريدة الحياة، ٤ مايو ٢٠١٠م، داود الشريان، أرقام المبتعثين لا تكفي.

بينمـا يتحدث الإعلامي الأسـتاذ جمال خاشـقجي عن حضـوره لحفل أقامته منظمـة الطلبة العـرب بالجامعة العريقـة (**MIT**) في بوسـطن الأمريكية، لتكريم الطـلاب النابغيـن العرب فـي حقلي العلوم والتقنيـة من الجامعـة، وكان من بينهم طالـب فلسـطيني وهـو الدكتور هشـام كسـاب، الـذي حصل علـى الدكتـوراه في الهندسـة الكهربائية، وأسس شـركة، وأصبح استشـارياً في البنك الدولي، وسجل اختراعاً باسـمه، وألف عشـرة كتب وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره، وفي كلمته تحدث عن والدته التي رعته عن بعد بدعائها، وعن والده الذي لم يمنعه فقر مخيم فلسـطيني عـاش فيـه من تعليـم ابنه أفضـل تعليم، وإرسـاله إلى أفضـل جامعة في العالم[١].

دور المجتمع

وعلـى المسـتوى الاجتماعي العام، فإن قـوة المجتمع في قـوة كفاءاته، وإنما يحتـرم المجتمع بمقـدار ما لديه من طاقات وكفاءات، علينا أن نشـجع أبناءنا على كسـب الكفـاءة، وأن نبـذل قدراتنـا وإمكاناتنا من أجل أن يكسـب أبناؤنـا الكفاءة العلمية.

هـل يصعـب علينا في مجتمعنـا أن نرصد مبلغـاً من المال من أجل أن نشـجع أبناءنا على الدراسة، وكسب المعرفة والكفاءة في الخارج، إما منحة أو قرضاً؟

في منطقة قريبة وهي مملكة البحرين، أنشـأت مؤسسـة مجموعة الحاج حسن العالي مكتباً للمنح الدراسية للابتعاث على حسابهم لأبناء مجتمعهم، هذا البرنامج مضى عليه عشـر سـنوات من سـنة ١٩٩٨م، ابتعثـوا حوالـي ٥٠٠٠ طالب وطالبة على نفقتهم، أو بقروض ميسّـرة بدون فوائد، بين طلاب يدرسـون دراسـة جامعية كاملة، وطلاب يذهبون إلى دورة للتدريب من سـتة أشـهر فما فوق، هذه المؤسسة

(١) جمال أحمد خاشقجي. قصة نجاح عربي في بوسطن الأمريكية، جريدة الوطن، ٢٥/ ٤/ ٢٠٠٦م.

ميزانيتها السنوية للصرف على هذا البرنامج ١٠٠٠٠٠ دينار بحريني، أي مليون ريال سعودي.

أليس مؤلماً أن بعض الطلاب وهم يدرسون داخل البلد، في بعض الجامعات أو المؤسسات الأهلية، يحتاج إلى تسديد قسط دراسته، وقد لا يجد من يساعده أو من يقرضه.

من ناحية أخرى، علينا أن نهتم بأبنائنا المبتعثين في الخارج، العوائل يجب أن تتابع هؤلاء الأبناء، لتشجيعهم وتفقد أحوالهم، وينبغي أن ننشئ مؤسسة أو لجنة تهتم بمتابعة شؤون هؤلاء الطلاب، نبعث لهم مرشدين، فيهتم بأوضاع الطلاب في كل منطقة أحد العلماء والموجهين، يقوم بزيارتهم، ويتفقد أمورهم، ويتواصل معهم.

إن جولة أي عالم لتفقد أوضاع الطلاب المبتعثين قد لا تكلف أكثر من مصرف مأتم أو مجلس من المجالس الكثيرة في بلادنا.

إلى طلابنا المبتعثين

النقطة الأخيرة ترتبط بطلابنا المبتعثين، نتخاطب معهم: يا أبناءنا الأعزاء وأنتم في الخارج، وضمن هذا البرنامج، عليكم أن تعرفوا مدى الآمال المعلقة عليكم، أنتم تصرفون من أموال بلدكم، من ثروات شعبكم، وعلى حساب عواطف أهاليكم، فالذي يفارق أهله وأسرته ليس أمرًا هينًا عليهم.

الاجتهاد في الدراسة

أولاً: عليكم أن تجدِّوا وتجتهدوا في دراستكم، إن بعض طلابنا في الخارج يعتبر الابتعاث وكأنه رحلة وفرصة للنزهة، أن يرى بلداً آخر، ويرتاح، لا يحمل همًّا كافيًا للاجتهاد في دراسته، وفيما توجّه من أجله، وبذلك يفوّت على نفسه فرصة عظيمة، ويخيّب آمال مجتمعه ووطنه.

الالتزام بالقيم

ثانيًا: الالتزام بالقيم الدينية والأخلاقية، الطالب الذي يذهب إلى مجتمع، يعيش وضعًا غير الوضع الذي كان يعيش فيه، تحصل له صدمة ثقافية، يرى الأجواء مفتوحة أمامه، قسم من الطلاب والمبتعثين ينهارون أمام هذه الصدمة، يفقدون التزامهم الديني والأخلاقي، لدينا طلاب نفخر بالتزامهم وبدينهم وأخلاقهم، ولكن هناك حالات سلبية لا ينبغي أن نسكت عنها، فبعض من يذهبون إلى هناك يتناسون القيم والالتزامات الشرعية، وربما كانت هذه النقطة إحدى المبررات للتوقف والتردد عن بعث الأبناء إلى الخارج من قبل بعض الأوساط الدينية، ولكن هذا ليس مبررًا صحيحًا؛ لأن الفساد ما عادت له جغرافيا، من تكون نفسه مهيأة، ومن لا تكون تربيته بالمستوى المطلوب، من يخضع لإغراءات الشيطان، حتى وهو في بلده، وبين أهله، يمكن أن يطاله الفساد، صحيح أن الأجواء هناك مفتوحة، لكن ثبت بالتجربة أن الإنسان حينما يتوفر على تربية صالحة، ووعي وثقافة وتوجيه، فإنه في تلك المناطق يستثير تحديه في الالتزام بالقيم والمبادئ، يشعر بالتحدي أكثر، يحس بقيمة الدين والأخلاق في تلك المجتمعات أكثر، وأعرف أشخاصاً وطلاباً يوم كانوا يعيشون في البلد كان اهتمامهم الديني عادياً، وحينما ذهبوا إلى هناك ارتفعت عندهم درجة الالتزام، ومستوى الالتزام، أصبحت له لذة وقيمة؛ لأنه تحدٍّ، وليس استجابة للمألوف، والتقاليد والأعراف.

كسب الإيجابيات

ثالثاً: الاستفادة من إيجابيات تلك المجتمعات، المسألة لا تقتصر على الدراسة فقط، تلك المجتمعات متقدمة ومتحضرة، فيها جوانب من الإيجابيات، وهناك سلبيات بسبب الاختلاف بيننا وبينهم في الثقافة والقيم، ولكن لا يصح لنا أن تتضخم في أذهاننا السلبيات، ونتناسى الإيجابيات.

في تلك المجتمعات، هناك إيجابيات كبيرة، مثل الجدية في الحياة، الدقة في المواعيد، الاهتمام بالدراسة والعمل، الصدق والصراحة، بعض طلابنا حينما

يذهبون إلى هناك يصطدم الآخرون بهم؛ لأنهم ليسوا في مستوى هذه القيم الحضارية، تعوّد على عدم الدقة، يُسأل عن شيء معين فيجيب جواباً، وتختلف إجابته لنفس السؤال مرة ثانية، فيرصدونه ويأخذون عنه فكرة أنه ليس صادقًا.

في تلك المجتمعات هناك صدق وصراحة، وانضباط، على طلابنا وطالباتنا أن يستفيدوا من هذه الإيجابيات، إن بعض المبتعثين بدل أن يستفيد من الجوانب الإيجابية يأخذ بالجوانب السلبية، كالانحراف والانحلال والمفاسد الأخلاقية، يذهب بهذا الاتجاه، أرأيتم كيف أن النحل يبحث عن الفواكه والثمار! ويمتص منها، أما الذباب يبحث عن الأوساخ، كل إنسان يبحث عن الأشياء حسب وعيه، ومستواه النفسي، نحن نريد أبناءنا الذين يذهبون إلى الخارج أن يكونوا نحلاً يمتصون الرحيق من الأزهار والورود والثمار، ويصقلون بها شخصياتهم، ويعودون بها لمصلحة أوطانهم ومجتمعاتهم.

كل مجتمع له عاداته وأعرافه، وينبغي أن نستفيد من العادات الإيجابية في تلك المجتمعات، وأن نتلافى العادات السلبية، حينما يلتقي الناس من مجتمعات مختلفة فإنهم ينظرون إلى تلك المجتمعات من خلال من يلتقون بهم، ولذلك فأبناؤنا وبناتنا هناك هم رسل لأمتهم ووطنهم ومجتمعهم، العالم ينظر إليهم، ومن خلالهم ينظر إلينا، فعليهم أن يقدموا صورة مشرقة، وألا يشوهوا هذه الصورة، ببعض التصرفات، بتساهلهم وتسيبهم الدراسي، أو بعدم انضباطهم الأخلاقي، فيكوّنون صورة مشوهة لأمتهم، وللدين الذي ينتمون إليه، قال الإمام الصادق عليه السلام فيما روي عنه: «إنكم قد نسبتم إلينا كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً»[1].

التلاحم والتعاون بين الطلاب

وفيما يرتبط بالعلاقة بين الطلاب أنفسهم، عليهم أن يدعموا بعضهم بعضاً، وأن يتعاونوا، ويتركوا الخلافات والفروقات الموجودة في بلداننا ومجتمعاتنا،

(١) بحار الأنوار، ج ٥، ص ١٥١.

لأسباب مذهبية أو مناطقية أو مرجعية وثقافية، يفترض في أبنائنا وبناتنا هناك أن يتجاوزوا هذه الحالات، وأن ينفتحوا على بعضهم، وأن يستفيدوا من تجاربهم، ويتداولوا التجارب، ويرفعوا معنويات بعضهم بعضاً، وأوجّه الخطاب بالخصوص إلى أبنائنا الملتزمين دينيًّا، بأن يهتموا بإرشاد بقية الطلاب والطالبات، لا يكفي أن يكون الإنسان ملتزمًا، وإنما يسعى بمقدار ما آتاه الله من معرفة ووعي، ومن قدرة لهداية الآخرين، والمساهمة في إصلاحهم وإرشادهم وتوجيههم، نسأل الله تعالى أن يوفق طلابنا وطالباتنا في الخارج، وأن ينجحهم في دراستهم، وأن يوفقهم للصمود والثبات على قيمهم وأخلاقهم ومبادئهم، وأن يعودوا لنا بحصيلة من العلم والخبرة والتجربة، تقرّ بها أعيننا، ويتقدم بها الوطن إن شاء الله.

إن مما يعمر قلوبنا بالأمل والتفاؤل أن نجد اهتمام بعض أبنائنا المبتعثين بإقامة الشعائر والمناسبات الدينية، التي تخلق في أوساطهم أجواء التفاعل الاجتماعي، وتقرّبهم من بعضهم بعضاً، وتشجّع حالة الالتزام الديني والقيمي.

وفي أيام عاشوراء نرى حرصاً من أبنائنا المبتعثين في مختلف الدول والبلدان على المشاركة في إحياء هذه المناسبة الحسينية العظيمة، بالحضور في المراكز والمؤسسات التي تقيم المجالس العاشورائية، وإن لم يكن في المنطقة مركز فإنهم يتداعون إلى الاجتماع فيما بينهم لإحياء ذكرى عاشوراء.

فهنيئاً لهم هذا الاهتمام الذي يدلّ على عميق ولائهم لأهل البيت عليهم السلام وعلى تأثير التربية الصالحة في نفوسهم.

إن إحياء ذكرى الحسين عليه السلام عوائدها على الإنسان عظيمة في الدنيا والآخرة.

شخصية الإنسان بين الفطنة والسذاجة

- ☐ الفطنة إدراك وانتباه
- ☐ تنمية الفطنة في المجتمع

جاء عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام أنه قال: «المرء بفطنته لا بصورته»[1].

الفطنة إدراك وانتباه

حين يسير الإنسان في طريقٍ مظلم فإنه بحاجةٍ لنور يهتدي به، حتى لا يتعرض للتيه والضياع، وحتى لا يعثر في حفرة من الحفر التي قد تكون في الطريق، وإذا لم يكن له نور يستضيء به، فإنه معرض لهذه الاحتمالات، كما أن درجة النور لها تأثير أيضاً، فكلما كان النور أكثر إضاءة، كان الطريق أكثر وضوحًا أمام السالك فيه.

وكذلك واقع الإنسان في هذه الحياة، فهي عالم جديد مجهول بالنسبة له، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ [سورة النحل: الآية٧٨]، لذلك يحتاج في مسيرته إلى نور يستضيء به، وقد منح الله تعالى الإنسان هذا النور في أعلى درجاته، وهو يتمثل في العقل، فالعقل هو ذلك المصباح المنير، إلا أن الناس يتفاوتون في مدى التفاتهم لهذا النور، وفي مدى استضاءتهم به. وتلحظون أن بعض المصابيح الكهربائية الآن نستطيع التحكم في درجة الاستنارة بها، فيمكن أن تكون إنارتها خافتة ضعيفة لوقت النوم والاسترخاء مثلاً، أو تكون قوية الاضاءة عند الحاجة للقراءة والكتابة ، بينما هناك مصابيح لها درجة معينة من النور ثابتة.

ومن حكمة الله تعالى وكرمه أن أعطى الإنسان مجالاً للتحكم في مدى الاسترشاد بهذه القوة الهائلة وهي العقل. فإلى أي مستوىً تستفيد من عقلك

(١) غرر الحكم ودرر الكلم ج١ ص١١٩ حكمة ٢١٩٠.

وقدراته اللامتناهية؟ إن ذلك يعتمد عليك أنت وعلى جدّك ومثابرتك.

وهنا يأتي مصطلح: الإنسان الفَطِن، وهو الذي يسترشد جيداً بعقله، والفَطِن من الفِطنة، والفِطنة هي الحذق والفهم، ومعرفة خلفيات الأمور، وهذا لايتم إلا بالعقل. فالإنسان يكون فطناً حينما يسترشد عقله، ويرفع درجة الاستنارة به، أما إذا غفل عن عقله، أو انخفضت درجة استضاءته بعقله يقع في الحالة الأخرى، وهي السذاجة أو الغباوة، وبالتالي تضيع مصالحه في هذه الحياة، ويتعرض للتيه وللعثرات.

تجليات الفطنة في شخصية الإنسان

والفِطنة تتجلى في مظاهر، منها:

أولًا: الوعي والمعرفة بما حول الإنسان: كلما كان الإنسان أكثر وعيًا بما حوله من حياة وبشر وأوضاع، كان إدراكه للمعادلات الاجتماعية التي يعيشها أكبر، فيصبح أكثر فِطنة، أما إذا كان إدراكه ومعرفته محدودة ضعيفة، فبنفس تلك الدرجة تكون فطنته، ويكون معرضاً لحالة السذاجة والغباوة.

لذلك ورد عن الإمام علي عليه السلام: «لا بدّ للعاقل من ثلاث: أن ينظر في شأنه ويحفظ لسانه ويعرف زمانه»[١]، وفي رواية عن الإمام الرضا عليه السلام قال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «ينبغي للمسلم أن يكون مالكاً لنفسه، مقبلاً على شأنه عارفًا بأهل زمانه»[٢]. وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس»[٣]، أي لا تلتبس عليه الأمور، ولا تختلط أمامه الأوراق.

ثانيًا: الانتباه والتركيز: مشكلة أكثر الناس أنهم لا يركّزون، فيمرون على

(١) تحف العقول. ص ٢٠٣.
(٢) وسائل الشيعة. ج١٦، ص ٢٤٧.
(٣) تحف العقول. ص٣٥٦.

الأمـور مـرور الكرام، من دون انتبـاه، وهذا ما يتحدث عنه القـرآن الكريم، ويطلق عليه مصطلح الغفلة، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾[سورة يونس، الآية:٧]، بمعنى: لا ينتبهون، ولا يركّزون.

وربمـا يمرّ حـدث معيّن على شـخصين أو على عدة أشـخاص، أحدهم يركّز وينتبـه، والآخر لا يركّز ولا ينتبه، وبالتالي فإن مقدار التركيز والانتباه هو مما يحدد مستوى فطنة الإنسان.

وفي هذا السياق يُحكى أن أعرابياً شرد منه جمله، وأخذ يبحث عنه فلقيه رجل فقال له: عمَّ تبحث؟ قال: عن جمل لي شـرد مني، فقال له الرجل: هل جملك أبتر الذيـل (أي مقطوع الذيل)؟ قال: نعم. قال له: هل فيه رجل عرجاء؟ قال: نعم. قال هل جملك أعور؟ قال نعم. فلما ذكر الرجل كل هذه الأوصاف في الجمل، أمسك بـه الأعرابي وقال: إذن أنت أخـذت جملي. واقتاده إلى القاضي متهمًا إياه بسـرقة الجمل.

فلما سـأله القاضي وأنكر أنه أخـذ الجمل، قال له القاضي: إذن من أين عرفت كل هـذه الصفـات عن الجمل؟ فقال الرجل: كنت سـائرًا في الطريق فوجدت بعراً متجمعاً على غير عادة الجمال؛ لأن ذيل الجمل يفرق بعره يميناً ويساراً عندما ينزل منـه، ولكني وجدت هـذا البعر متجمعاً في أكوام صغيـرة، فعرفت أن صاحب هذا البعر جمل مقطوع الذيل.

فقال له القاضي: وكيف عرفت أن الجمل أعرج؟ قال الرجل: لأني وجدت أن للجمل قدماً غائرة في الرمل، والأخرى قد لامسـت الرمل ملامسة خفيفة، فعرفت أنه أعرج. فسـأله القاضي، وكيف عرفت أنه أعور؟ فقال الرجل: لأني وجدته يترك الخضرة في جانب ويأكل من واحد فعرفت أنه يرى بعين واحدة[١].

(١) محمد متولي الشعراوي. قصص الأنبياء ج٢، ١٩٩٦م، (القاهرة: مكتبة التراث الإسلامي)، ص١٤٢٠.

فبعض الناس يركّزون على الأشياء فيفهمونها بشكل دقيق، والبعض الآخر ليس لديهم تركيز، وعلى الإنسان ألّا يأخذ الأمور بسهولة وإنما يركّز تأمله فيها.

قبل أيام نشروا في الصحف عن مريضة في المستشفى جاءت لها الممرضة بالدواء، ولها مقدار من الدواء تتناوله كل عدد معين من الساعات، هذه المريضة ركّزت قليلاً في الدواء الذي جاءت به الممرّضة، فوجدته يختلف عن دوائها الذي يُصرف لها، فسألت الممرضة: هل أنت متأكدة أن هذا الدواء لي، قالت: نعم، وهذا لا يعنيك، أنا ممرضة وأعرف تكليفي، هذا دواءك، رفضت المريضة أن تتناول الدواء، مع إصرار الممرضة على إعطائها الدواء، فاستدعوا الإدارة، وتبين بالفعل أن هذا الدواء الذي جاءت به لهذه المريضة بالخطأ، وهو دواء لمريض آخر ولو تناولته هذه المريضة لقضى على حياتها، وفتح تحقيق في المستشفى حول هذا الموضوع.

في المقابل كم من مريضٍ في المستشفى يسلم أمره للممرّض أو الممرضة، ويأخذ أدويته وهو مغمض عينيه، وكأن لا شغل له في الأمر، متجاهلاً ورود الخطأ. بينما نجد الناس في المجتمعات الأخرى يتعاملون مع الدواء بطريقة أكثر تركيزاً واهتماماً.

فالثقافة العامة للناس، والثقافة الصحية مهمّة جداً، وعلى الإنسان أن يتحلى بالفِطنة في هذا الجانب وفي كل جوانب الحياة، يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «الغفلة أضر الأعداء»[1].

ثالثًا: حماية الإنسان لحقوقه

على الإنسان ألّا يتساهل في حقوقه، بل عليه أن يحمي حقوقه، فالمتساهل تضيع حقوقه ويُستغل، وهذا خطأٌ كبير. وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال:

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. ج١، ص٢٩، حكمة٥٢٧.

«المغبون لا محمود ولا مأجور»[١].

ورد في سيرة أبي عبد الله الحسين عليه السلام أن رجلًا كان يحمل له متاعًا من البصرة، يقول: كنت أحمل المتاع من البصرة إلى الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فكان ربما يماكسني فيه ـ المماكسة: طلب تخفيض الثمن ـ، فلعلي لا أقوم من عنده حتى يهب عامته، قلت له: يا ابن رسول الله، أجيئك بالمتاع من البصرة تماكسني فيه، فلعلي لا أقوم حتى تهب عامته؟ فقال: إن أبي حدثني عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: المغبون لامحمود ولا مأجور»[٢].

في رواية أخرى عن رجلٍ يسمى سوادة قال: كنا جماعة بمنى فعزّت الأضاحي فنظرنا فإذا أبو عبد الله ـ جعفر الصادق عليه السلام ـ واقف على قطيع يساوم بغنم ويماكسهم مكاسًا شديدًا، فوقفنا ننتظر، فلما فرغ أقبل علينا فقال:أظنكم قد تعجبتم من مكاسي؟ فقلنا: نعم، فقال: إن المغبون لا محمود ولا مأجور[٣]. وفي موضع آخر اعترض عليه أبو حنيفة قائلًا: عجب الناس منك أمس وأنت بعرفة تماكس ببُدنك ـ البُدن: الإبل ـ أشدّ مكاساً يكون، قال: فقال له أبو عبدالله عليه السلام: «وما لله من الرضا أن أغبن في مالي»[٤].

إذاً ينبغي أن يتحلى الإنسان بالفطنة في حمايته لحقوقه، ولدينا نصوص كثيرة على هذا الصعيد تدعو الإنسان إلى ألا يقع في الغبن والخديعة والغباء والغفلة حتى تكون شخصيته شخصية المستفيد من عقله وتفكيره.

☐ تنمية الفطنة في المجتمع

من الملاحظ أن طبيعة الناس في بعض المجتمعات وسجيتهم فيها تُبيّن مدى

(١) كنز العمال. ج٤، ص١٩، حديث ٩٢٨٧.
(٢) ابن عساكر. ترجمة الإمام الحسين، ص٩.
(٣) الكافي. ج٤، ص٤٩٦.
(٤) الكافي. ج٤، ص٥٤٦.

فِطنتهم في أمورهم، بينما بعض المجتمعات يغلب على الناس حالة السذاجة، وهذا أمر ملحوظ بالنسبة لاختلاف الأفراد، واختلاف المجتمعات.

فكيف يمكننا أن ننمي حالة الفطنة في المجتمع؟ لتحقيق ذلك هناك عدة أمور:

الأول: مستوى الوعي الحقوقي في المجتمع: كلما كان الناس أكثر معرفة بحقوقهم، كانوا أبعد من أن يُستغفلوا، وإنما يُخدع الإنسان ويُستغفل لعدم معرفته بحقوقه، ولذلك فإن الوعي الحقوقي مهم جدًا في كل مجال من المجالات.

نجد في المجتمعات الأخرى أن كل معاملة يدخل فيها الإنسان هناك تحديد وتوضيح للحقوق التي له وعليه، فالسجين من بداية سجنه يُعطى قائمة بحقوقه التي له والتي عليه، بإمكانه أن يطلب محاميًا، وبإمكانه ألا يجيب عن أي سؤال لا يرغب في الإجابة عنه، كل الحقوق تكون واضحة أمامه، أما في بلداننا فالسجين يسجن وليس له الحق في السؤال عن حقوقه، بل قد يخشى أن يسأل عن حقوقه.

وكذلك في مختلف المجالات: الطالب ينبغي أن يعرف حقوقه، والراكب في الطائرة لديه تذكرة مبين فيها حقوقه على الجهة الناقلة.

وهناك الآن تجربة جيدة في البلد، لبعض المؤسسات فيما يرتبط مثلاً بالتعليم، أصدروا وثيقة حول حقوق الطالب، بحيث يعرف الطالب ما هي حقوقه كطالب في مجال التعليم، وهذا مهم جدًا، بأن يعرف كل إنسان ما هي حقوقه، أما التجهيل، وعدم الوعي الحقوقي، فهي التي تجعل الكثير منا يقع في المشاكل.

فمثلًا شخص موقوف للتحقيق في قضية معينة، يعترف ويوقع، وعند سؤاله لماذا توقع وتعترف؟ يقول: ماذا أعمل، قالوا لي إذا اعترفت القضية تسهل وتنتهي؟ فهذا تضليل، إذ يجب أن يُعرف من هو المخطئ، ومن هو المعتدي، فحينما توقع أنت على الاعتراف بجرم لم تقم به تكون قد ضلّلت الجهات المعنية بالوصول إلى

المعتـدي الحقيقي، أو أنك وقعت في خديعة حيـن توقّع عن غير معرفة بما يترتب على اعترافك.

علينـا أن ننشـر الوعـي الحقوقـي في مختلـف الجزئيـات والقضايا، فبالنسـبة للعلاقـات الزوجيـة مثلاً، نجد الكثير من الشـباب والفتيات، مـن يتم عقد الزواج، والعقـد يعنـي اتفاقًا بين طرفين، إلا أنه اتفاق على ماذا؟ لا يدري. والفتيات في هذا الجانب أكثر غفلة من الشـباب، وهذا سـبب لكثيرٍ من المشـاكل وارتفاع معدلات الطـلاق. ومن النماذج التـي وضعت حدًّا للطلاق والخلافـات الزوجية تجربة في ماليزيـا تُلـزم كل مواطـن قبل الزواج، أن يدخـل في دورة لمدة شـهر ليتعرف على الحياة الزوجية، من واجبات وحقوق، ويمكن خصم وقت حضوره في هذه الدورة من دوامه إذا كان موظفًا في الحكومة، أو في إحدى الشـركات، فحصل بعد تطبيق هذا النظام أن نسبة الطلاق انخفضت؛ لأن الناس أصبحوا يعرفون ما لهم وما عليهم، وأيضاً في الجمهورية الإسـلامية الإيرانية، قبل إجراء عقد الزواج يقدمون للشـاب والفتـاة ملفـاً، يتضمن نقاط الحقـوق التي للزوج والتي للزوجـة، يقرأها الزوجان، والمأذون الشرعي يسأل كلاً منهما عن الموافقة على بنودها وبعد ذلك يتم العقد.

أما في مجتمعنا فالأمر يسـير بطريقة عفوية، وخصوصاً بالنسـبة للفتيات حيث تتزوج البنت ولا تعرف ماذا لها وماذا عليها! لأن جهات التوجيه الديني في الغالب هي من الرجال، ولذلك اعتدنا ألّا نخبر المرأة بكل حقوقها، وأنا شخصيًا تعرضت لهـذا الأمر، فحينما أتحدث عن حقـوق المرأة في الحياة الزوجية، يعترض البعض بقولهم: إنك تسـتثير نساءنا علينا وتريدهم أن يتمردوا علينا، إذا عرفوا هذا الكلام. لكـنّ هذه حـدود الله وهي حقـوق للزوجة، ويجـب أن تكون واضحـة ومعروفة. فمثـلًا: مـن حق الزوجة في عقد الزواج أن تشـترط لنفسـها الوكالة في الطلاق عن الزوج متى شاءت، هذا من حقها شرعًا، فحين ترى المرأة أن حياتها مع هذا الزوج لا تناسـبها، وغيـر ممكنة لها، تسـتطيع أن تذهـب وتجرى الطـلاق، باعتبارها هي

وكيلة عنه في الطلاق، وإذا قبل الزوج بهذا الشرط في العقد؛ فإنه لا يمكن إلغاؤه، ويبقى هذا الحق ثابتاً للمرأة.

والآن لدينا الكثير من المشاكل والقضايا، يتعامل فيها الرجال بقسوة مع زوجاتهم، ويُجبرونهم على البقاء تحت سيطرتهم، مع عدم المعاشرة بالمعروف، ولا يقبل أن يطلقها، وهذا خلاف أمر الله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: من الآية٢٢٩]، وفي بعض الأحيان إذا طلبت الزوجة الطلاق، أو الخلع، يطلب الزوج مبالغ طائلة، لتبقى المرأة ضائعة، وتضيع حقوقها، فلو أنها تشترط لنفسها منذ البداية أن تكون وكيلة عن الزوج في تطليق نفسها، لما وقعت في هذا المأزق. وطبعًا أكثر الناس لا يرون أنه من المناسب إخبار النساء بهذا الحق.

إن الوعي الحقوقي مهم جدًّا، في مختلف المجالات، وهو يساعد الناس على أن يكونوا فطنين، ويدافعوا عن مصالحهم وحقوقهم.

الثاني: بذل التجارب والخبرات للناس: يتوفر مجتمعنا على تجارب كثيرة، إلا أنها لا تتداول لتكون في متناول الجميع، فمثلاً: كم من فتاة تقع في حالات الابتزاز، وهناك مخرج من ذلك، إلا أن هذه الفتاة المسكينة لا تعرف ما هو الطريق لكي تتجاوز حالة الابتزاز! فتدوير التجارب يحمي الكثير من المآزق التي وقع فيها غيرهم.

الثالث: عامل التربية: ينبغي للعائلة أن تربي أبناءها على حالة الفطنة، بأن تحذرهم وتوعيهم وتنبههم، ونحن الآن نعيش في عصر لا ينبغي فيه أن نتعامل مع الأمور بعفوية وسذاجة، نعيش في عصر فيه الكثير من التعقيدات والمشاكل، والكثير من النفوس الشريرة، ولذلك علينا أن نوعِّي أبناءنا. فموضوع التحرش الجنسي بالنسبة للأطفال، مثلاً، ينبغي أن تكون هناك توعية للأبناء تجاهه، هذا الطفل البريء لا يعرف عن الموضوع شيئًا، لذا يحتاج إلى توعية، إما من قبل العائلة أو عبر البرامج التدريبية التوعوية، بأن يحذر الطفل، ويُشرح له، وبدون ذلك

يقـع الكثير من الأطفال والناشـئين والناشـئات في مثل هذه المـآزق؛ لأنه لا معرفة ولا خبـرة لهم، وليس هناك تربية، فحين تخجل العائلة من فتح مثل هذه المواضيع لأبنائها، يصبح الأبناء ضحايا للجهل والغفلة.

الرابع: قوة الشـخصية: كلما كان الإنسـان أقوى شخصية كان أبعد عن الوقوع في الاستغفال، وفي فخ التضليل. وهنا يأتي موضوع إثارة العقل في أوساط الناس، فالمجتمعـات التي تحكمهـا العواطف غالباً ما يقع الناس فيها في فخ الاسـتغفال، بسبب العواطف، وإغفال العقل، ومجتمعاتنا العربية، وخاصة الخليجية منها، ينظر إليهـا من قبـل الآخرين على أنهـا مجتمعات سـاذجة، بالعواطف يمكـن أن يؤخذ الكثير منها، ومن نماذج ذلك حالات التسـول، فهناك شـركات تأتي بأطفال ونساء إلـى بعـض مناطقنا، يتسـولون ويطلبون الأمـوال، وقد كتب عن ذلـك في الجرائد والمجلات، فيستغلون العاطفة في شهر رمضان المبارك، مثلاً، وفي أوقات معينة، وأماكـن خاصة، عنـد المقابر والمجالس، والمسـاجد، بل اكتشـف أيضًا أن بعض حـالات الإعاقـة هي مفتعلـة، من أجل أن يسـتثيروا بها العواطف، واكتشـف أيضًا أن بعض النسـاء اللاتي يطلبن في بعض الشـوارع في الواقع ليسـوا نساء، بل رجال في لباس النسـاء. والسـبب في ذلك أن هناك من يراهن على السذاجة والبساطة في أوساط الناس، من أجل تحقيق مآربه.

ومن المظاهر أيضاً هؤلاء المشعوذون والدجالون والسحرة، وكتب الكثير عن هذا الأمر، فقبل أيام قرأت تحقيقاً في إحدى الجرائد المحلية، أن أحد السحرة من أصـل أفريقـي أوقفوه، وبعد التحقيق معه تبيّن أنه جاء بتأشـيرة عمل للمملكة، ولم يجد فرصة عمل لمدة ستة أشهر، فأشار عليه البعض أن يمارس هذا الدور، فادّعى أنه يقرب بين القلوب، وأنه يوفق بين الأزواج، وأنه يفتح الطريق للنجاح في الحياة، ويعالج الكثير من المشـاكل، ففوجئ بإقبال الناس عليه نساءً ورجالًا، وصار اسمه معروفـاً، فتتصل به هذه المرأة، ويتصل به هذا الـزوج، ويأخذ مبالغ من هذا وذاك،

وكوّن له ثروة طائلة.

يحصل في بعض الأحيان أن شخصاً يسلك طريق العلم الديني حتى يصير عالمًا، فلا يكون ناجحاً في هذا المسار لسبب أو لآخر، فيكتشف أن هذا أفضل طريق لكسب المال والثروة، فيستثير العاطفة عند الناس، ويستقبل الاتصالات فهذا يطلب منه أن يحل له مشكلة، وذاك أن يفتح له كتابًا، وغير ذلك. البعض من الناس يعترضون، إذ كيف يعمل هذا العمل وهو ضمن الوسط الديني، وقد جاءني جماعة يشتكون من بعض هذه الحالات، فقلت لهم: اللوم عليكم أنتم، لماذا تُستغفلون؟

وهناك قصة أسطورية مشهورة عن حمار الحكيم حينما سأله حماره: أيها الإنسان أنت تركبني وتمتطيني وتثقل ظهري، ألست أنا وأنت مخلوقين لله، فالله خلقني كما خلقك، قال: نعم، قال: إذاً لماذا أنت تركب ظهري ولا يحصل العكس؟ قال له: هذا لا يحتاج إلى تفسير عميق، أركبك لأنك حمار.

فالإنسان حينما يكون مغفلاً ساذجاً، فإن الآخرين يستغفلونه، وإلا كيف يقبل هؤلاء الناس أن يحكوا أسرارهم لمن لا يعرفونه؟ وكيف يقبلون ادّعاءاته؟

لدينا الكثير من المشاكل والقضايا في هذا المجال، شخص يوهمك بأنه قادر على أن يجعلك ثرياً في مقابل أن تعطيه مبلغاً من المال، وحالته يرثى لها، لماذا لا يثري نفسه إذاً؟ كيف يقبل عقلك هذا الأمر؟ على الإنسان أن يحتاط لنفسه، كم من النصابين الذين أخذوا أموالاً من الناس على أساس استثمارها لهم، وفي البداية يخدعهم ويعطيهم بعض الأرباح، ويجمع له الملايين ثم يهرب.

مع أننا نجد في هذا الإطار أن أطول آية في القرآن الكريم هي الآية التي تتحدث حول موضوع توثيق الديون بين الناس، بأحكام تفصيلية، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن

يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْـهِدُواْ شَـهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاء أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّـهَدَاء إِذَا مَا دُعُواْ وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنـدَ اللّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّـهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُواْ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَـارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْـهِدُوْاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُ فُسُـوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة، الآية:٢٨٢].

فلمـاذا يتسـاهل الإنسـان في حقوقـه؟ ونسـمع كل يوم عن محـاولات نصب جديـدة، فمثلاً في الإنترنت مواقع لشـركات وهمية للشـراء، وتنمية الثروة! وهناك من يتعامل معها فيقع في فخ النصب والابتزاز وتضيع أمواله وآماله؟

استغلال العواطف الدينية

وفـي بعـض الأحيـان يكون هنـاك اسـتغلال للعاطفـة الدينيـة، فمثلاً رسـائل بالجوالات تقول: انشـر هذه الرسـالة ١٣ مرة، وإلا سـيصيبك بلاء. وقبل مدة نقل إليَّ أن هنالك رسائل تتداول بالجوالات في شهر رجب، أن من كانت في بيته بنت اسمها زينب أو فاطمة فعليه أن يدفع صدقة في هذا الشهر، وإذا لم يدفع صدقة فقد يصيبه بلاء! إن هذا كلام فارغ.

فالله تعالى أعطى الإنسـان عقلاً، حتى يفكر به، وعليه أن يسـتثمره الاسـتثمار الأفضل.

وفي السيرة النبوية نقرأ أن رسول الله ﷺ حينما بعث جيشاً وأمّر عليهم رجلاً، وأمرهـم أن يسـمعوا له ويطيعوا، فأجج ناراً وأمرهـم أن يقتحموا فيها، فأبى قوم أن يدخلوهـا، وقالوا: إنما فررنا من النـار، وأراد قوم أن يدخلوها، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لو دخلوها أو دخلوا فيها لم يزالوا فيها» وقال ﷺ: «لا طاعة في معصية الله،

إنما الطاعة في المعروف»[١].

وأثنى قوم بحضرته ﷺ على رجل حتى ذكروا جميع خصال الخير، فقال رسول الله ﷺ: كيف عقل الرجل؟ فقالوا يا رسول الله نخبرك عنه باجتهاده في العبادة وأصناف الخير تسألنا عن عقله؟ فقال: إن الأحمق يصيب بحمقه أعظم من فجور الفاجر، وإنما يرتفع العباد غداً في الدرجات وينالون الزلفى من ربهم على قدر عقولهم»[٢].

لذلك يجب أن نكون واعين، فلا نُستغل عبر العواطف الدينية، وباسم الدين، ينبغي للإنسان أن يكون فطنًا، وألا يُستغفل، وألا يتنازل عن شيء من حقوقه بدون إرادة ووعي.

وهنا نقرأ هذه الرواية الجميلة عن الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام حين أتى مولى له فقال له: أقرضني عشرة آلاف درهم إلى ميسرة، فقال: لا؛ لأنه ليس عندي ولكن أريد وثيقة، قال: فشق له عليه السلام من ردائه هدبة (أي خيطاً) فقال عليه السلام له: هذه الوثيقة، قال: فكأن مولاه كره ذلك فغضب عليه السلام وقال: أنا أولى بالوفاء أم حاجب بن زرارة؟ فقال: أنت أولى بذلك منه، فقال عليه السلام: فكيف صار حاجب يرهن قوساً وإنما هي خشبة على مائة حمالة وهو كافر فيفي وأنا لا أفي بهدبة ردائي؟! قال: فأخذها الرجل منه وأعطاه الدراهم، وجعل الهدبة في حق، فسهل الله عز وجل له المال فحمله عليه السلام إلى الرجل ثم قال له: قد أحضرت مالك فهات وثيقتي فقال له: جعلت فداك، ضيّعتها، فقال عليه السلام: إذن لا تأخذ مالك مني، ليس مثلي من يستخف بذمته، قال: فأخرج الرجل الحق فإذا فيه الهدبة فأعطاه علي بن الحسين الدراهم وأخذ الهدبة فرمى بها وانصرف»[٣].

(١) سنن أبي داود. ج٢، ص٤٦، حديث٢٦٢٥.
(٢) بحار الأنوار. ج٧٤، ص١٥٨.
(٣) الكافي. ج٥، ص٩٦.

هكذا ينبغي أن يكون الإنسان يقظًا، وفي حديث مروي عن رسول ﷺ يقول: «المؤمن كَيِّس فطن حذر»[١]، كَيِّس يعني: لديه كياسة وفطنة.

ولو قرأنا التاريخ لوجدنا أن المجتمعات، إنما وقعت في المآزق بسبب انطلاء الخدع عليها، وغفلتها عن مصائر الأمور، فما الذي أوقع أهل الكوفة فيما وقعوا فيه، إذ كانت لديهم فرصة كبيرة وعظيمة، فأبو عبد الله الحسين عليه السلام، سيد شباب الجنة، قدم إليهم ولو التفوا حوله ووقفوا إلى جانبه، لأعاد تجربة أبيه أمير المؤمنين عليه السلام كما وعد، «إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي»[٢]، ولأقام لهم الدولة العادلة التي تحفظ كرامتهم وحقوقهم وحريتهم، لكن حالة من الخديعة والغفلة، أصابتهم فخذلوا الإمام الحسين عليه السلام، ودفعوا الثمن باهظاً، ولو أنهم قاوموا ابن زياد في ذلك الوقت لكانت خسائرهم أقل مما دفعوه فيما بعد، في سني الدولة الأموية الطويلة.

وحده عبد الله بن عفيف انتفض في مجلس عبيد الله بن زياد، حينما سمعه يشتم عليًّا والحسين، في حضور أسارى أهل البيت، وبين يديه رأس أبي عبد الله الحسين عليه السلام.

(١) كنز العمال. ج١، ص١٤٣، حديث٦٨٩.
(٢) بحار الأنوار. ج٤٤، ص٣٢٩.

المحتويات

المظالم الكبرى في ذاكرة التاريخ ١٧

الموقف من ظلامات التاريخ ١٩

ضحايا الرأي ٢٥

فاجعة كربلاء في التاريخ الإسلامي ٣١

علي نفس الرسول ٣٥

قيمة القرب من رسول الله ٣٧

خصائص الإمام علي ٤٢

عليٌّ حاجة العصر ٤٧

صناعة الإحسان ٥٣

الإحسان شريعة أخلاقية ٥٥

مجالات الإحسان وآلياته ٥٩

ثقافة الإحسان وتنميته ٦٥

تجربة في البناء والتغيير: الإمام الصدر نموذجاً ٧٣

القراءة الواعية لتجارب الآخرين ٧٥

الحالة الشيعية في لبنان ٧٨

دور الإمام موسى الصدر ٨٣

مواجهة أهل البيت لسياسة العزل والتهميش ٩١
العزل والتهميش سياسة الظلم ٩٣
برنامج أهل البيت لمواجهة هذه السياسة ١٠٠
عالم الدين وشجاعة الرأي ـ الإمام كاشف الغطاء نموذجاً ١٠٩
التعبير عن الرأي بين الحق والواجب ١١١
العوائق والتحديات ١١٤
الإمام كاشف الغطاء نموذجاً ١٢٢
شخصية الفرد ١٢٩
بين الفردية والجمعية ١٣١
الفرد الأمة ١٤٣
نقد الحالة الدينية ١٤٧
بين الدين والحالة الدينية ١٤٩
النقد الذاتي في الحالة الدينية ١٥١
كيف نتعامل مع النقد؟ ١٥٥
الرحمة تصنع السعادة ١٦٥
الرّحمة صفة ونعمة إلهية ١٦٧
الحضارة المادية تنشر العنف ١٧٧
العنف شقاء المجتمع ١٧٩
رسالة عاشوراء ١٨٥
فلسفة الشهادة ١٨٧
لماذا قُتل الحسين؟ ١٩٦
في مواجهة خطر الطائفية ١٩٧

الجماعات الشبابية والدور المطلوب. ٢٠٣
دور الأصدقاء في حياة الإنسان.. ..... ٢٠٥
اختيار ثلة الأقران. ٢٠٨
الانفتاح على جماعات الشباب ٢١١
المبتعثون للدراسة .. طموح التنمية والتقدم ٢١٧
الهجرة للعلم ظاهرة إنسانية عالمية ٢١٩
بالكفاءات تبنى الأوطان ٢٢٥
إنجاح برنامج الابتعاث ٢٢٧
شخصية الإنسان بين الفطنة والسذاجة ٢٣٥
الفطنة إدراك وانتباه.. ..... ٢٣٧
تنمية الفطنة في المجتمع. ٢٤١

صدر للمؤلف عن الإمام الحسين

١. الحسين ومسؤولية الثورة

الطبعة الأولى: ١٣٩٦هـ ـ١٩٧٦م، مطابع دار السياسة، الكويت.

الطبعة الثانية: ١٣٩٨هـ ـ١٩٧٨م، مطابع دار السياسة ـ الكويت.

الطبعة الثالثة: ١٤٠٠هـ ـ١٩٧٩م ـ أمريكا.

الطبعة الرابعة: ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ـ فرنسا.

الطبعة الخامسة: ١٤٠١هـ ـ١٩٨٠م، طهران ـ الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

الطبعة السادسة: ١٤٠٦هـ ـ١٩٨٦م، دار الحوراء، بيروت ـ لبنان.

الطبعة السابعة: ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م، دار البيان العربي، بيروت ـ لبنان.

الطبعة الثامنة: ١٤١٨هـ ـ١٩٩٨م، مكتب سماحة الشيخ حسن الصفار، القطيف ـ السعودية.

٢. الإمام الحسين رمز التضحية والفداء

الطبعة الأولى: ١٣٩٧هـ ـ١٩٧٧م، مكتبة الرسول الأعظم ﷺ، مطرح ـ سلطنة عمان.

الطبعة الثانية: ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م ـ الكويت.

٣. رسالة المجالس الحسينية

الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م، دار الجزيرة للنشر، لندن – بريطانيا.

٤. الإمام الحسين الشخصية والقضية

الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م، دار المحجة البيضاء، بيروت ـ لبنان.

الطبعة الثانية: ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م، مكتب سماحة الشيخ حسن الصفار، القطيف ـ السعودية.

الطبعة الثالثة: ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م، مكتب سماحة الشيخ حسن الصفار، القطيف ـ السعودية.

٥. الحسين في وجدان الأمة

الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م، مكتب سماحة الشيخ حسن الصفار، القطيف، السعودية.

٦. عاشوراء خطاب التنمية والإصلاح

الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م، دار المحجة البيضاء ـ بيروت.

٧. الحسين منهج الإصلاح والتغيير

الطبعة الأولى: ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م، مكتب سماحة الشيخ حسن الصفار، القطيف، السعودية.